أعمال القلوب

الطاعات والذنوب

بسم الله الرحمن الرحيم

أعمال القلوب
الطاعات والذنوب

بقلم

د. أمير علي الحداد

الكويت

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا..

الحمد لله الذي قال في كتابه: ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾**﴾ (الحج).

الحمد لله الذي أنزل: ﴿ **أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾**﴾ (العاديات).

وأشهد ألّا إله إلّا الله القائل: ﴿**وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾**﴾ (آل عمران).

والصلاة والسلام على محمد بن عبدالله الذي يروي عنه أبو هريرة رضي الله عنه قوله: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم» وأشار بأصابعه إلى صدره. (صحيح مسلم)

وقال ﷺ: «**التقوى ها هنا.. التقوى ها هنا.. التقوى ها هنا**» وأشار إلى صدره. (صحيح مسلم)

أما بعد:

كثير من الناس يجتهد في الطاعات والعبادات ويسعى لكسب الحسنات ورفع الدرجات فلا يضيّع فرضاً... ولا يتهاون في سُنة... ولا يقصّر في حُسن خُلق.. وهذه لا شك هي السبيل لنيل رضا الله إن كانت وفق هَدي النبي ﷺ وعلى منهجه!!!

وكان هديه ﷺ الحرص على إصلاح القلوب.. والإرشاد إلى أعمالها لتقويمها.. فهو القائل: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» (متفق عليه).

فلا ينبغي لعبد أن يغفل عن أعمال قلبه... بل يجب عليه أن يتعاهد قلبه ويحرص على أعماله أكثر من أعمال جوارحه... يقول ابن القيم في (بدائع الفوائد): «أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح».

«والمراد بالقلب شرعاً.. هو القلب المعنوي الذي هو لطيفة ربانية لها تعلق بالقلب الحسي ومكان هذا القلب الصدر وهو الذي يعقل ويعمى ويبصر ويصلح ويفسد».[١]

«ومما يبين أهمية أعمال القلوب... أن العبادة التي من أجلها

(١) أعمال القلوب، د. سهل بن رفاع الروقى.

خلق الله الخلق وأرسل الرسل تقوم على ثلاث أعمال قلبية هي أركانها، وهي: المحبة والخوف والرجاء... وهذه الأركان الثلاثة هي التي يقوم عليها التوحيد والإسلام».[٢]

يقول ابن تيمية: «اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، وأقواها المحبة، وهي مقصودة تُراد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة قال تعالى: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾.

وطاعات القلوب منها ما هو ركن، ومنها ما هو واجب، ومنها ما هو مستحب... فالأركان هي المحبة والخوف والرجاء.

والواجبات: مثل الإخلاص والتوكل والإنابة، والمستحب: مثل بعض أنواع الرضا بقضاء الله وقدره من الألم والمرض والخشوع في الصلاة...

أما ذنوب القلوب فهي نوعان: كفر ومعصية..

فالكفر كالشرك والشك والنفاق..

والمعصية نوعان... كبائر وصغائر.. فالكبائر كالرياء والعجب والكِبر والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله.. والفرح والسرور بأذى المسلمين...

---

(٢) أعمال القلوب، د. سهل بن رفاع الروقى.

والصغائر شهوة المحرمات وتمنيها (مدارج السالكين).

في هذه الورقات التي بين يديك... إجتهد مصنفها أن يجمع ما تيسر من «أعمال القلوب... الطاعات والذنوب».. بأسلوب حواري سهل ميسر ليقرب للناس هذه القواعد الأساسية من عقيدة المسلم، ذلك لينتبه المرء إلى قلبه... ويراقب أعماله القلبية... ليقوّمها.. أكثر مما يقوّم أعمال جوارحه... وكلاهما مطلوب للنجاة يوم القيامة..

يقول ابن القيم في (بدائع الفوائد): «وهل الأعمال الخالية عن عمل القلب إلا بمنزلة حركات العابثين وغايتها أن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب، ولما رأى بعض أرباب القلوب طريقة هؤلاء انحرف عنها إلى أن صرف همّه إلى عبودية القلب، وعطّل عبودية الجوارح، وقال المقصود قيام القلب بحقيقة الخدمة والجوارح تبع، والطائفتان متقابلتان أعظم تقابل، هؤلاء لا التفات لهم إلى عبودية جوارحهم ففسدت عبودية قلوبهم، وأولئك لا التفات لهم إلى عبودية قلوبهم ففسدت عبودية جوارحهم والمؤمنون العارفون بالله وبأمره قاموا له بحقيقة العبودية ظاهراً وباطناً، وقدّموا قلوبهم في الخدمة وجعلوا الأعضاء تبعاً لها، فأقاموا الملك وجنوده في خدمة المعبود وهذا هو حقيقة العبودية».

ختاماً.. أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به كل من ساهم في إخراجه للناس، وأن يكون في ميزان حسنات الفقير إلى عفو ربه... ولا تنسوه من خالص دعائكم بالثبات وحُسن الخاتمة والمغفرة...

كاتبه

د. أمير علي الحداد

الكويت

شعبان ١٤٤٥

فبراير ٢٠٢٤

للتواصل:
البريد الإلكتروني: **amir122@yahoo.com**
الموقع: **prof-alhddad.com**

أعمال القلوب

إعتاد المكوث في المسجد بين العشائين، يقرأ القرآن، يستقبل أصحاب الحاجات، يبحث في مكتبة المسجد، هكذا عرفته منذ انتقلت إلى هذا الحي، قررت الأحد الماضي أن أذهب إلى العشاء الآخرة باكراً لأجالسه، كان في مكتبة المسجد ومعه أحد المصلين، استأذنت أن أشاركهما، نظر إلى جليسه كأنه يطلب إذنه فرحب، أخذت مجلسي.

– حديثنا لا خصوصية فيه، ولعلك تستفيد أو تفيد، كنت أشكو إلى الشيخ أحوال قلوبنا، في رمضان كنا نتقلب في الطاعات، ونزداد في القربات، ونكثر من العبادات، وكذلك في أوائل ذي الحجة، وبعد أن انتهي الموسم لا نرى أثراً لما كُنا فيه، ونرجع إلى ما كنا عليه قبل رمضان!

تحمست قليلا، وعلقت:

– هذا حال معظمنا – إن لم نكن كُلنا كذلك.

تدخل إمامنا موضحاً:

– إن تقلب أحوال العبد في الإيمان أمر طبيعي؛ فالإيمان يزيد وينقص، ولكن العبرة هي: هل الزيادة من الإيمان إلى الإحسان؟ أم من الإسلام إلى الإيمان؟ أم من الطاعات إلى المعاصي؟ أم من الواجبات إلى المنهيات؟ هذا ما يجب أن يقلق تجاهه المرء، فالصحابة –رضوان الله عليهم– شَكَوا حال قلوبهم لرسول الله ﷺ كما في حديث حنظله قال:

كنا عند رسول الله ﷺ فذكرنا الجنة والنار حتى كأنّا رأي العين، فأتيت أهلي وولدي فضحكت ولعبت، ثم ذكرت ما كنا عليه مع رسول الله ﷺ، فخرجت فلقيت أبا بكر – رضي الله عنه –، فقلت: نافقتُ نافقتُ، فقال أبا بكر: إني لأفعله، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك فقال: **يا حنظلة لو كنتم تكونون كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فُرشكم أو في طُرقكم، يا حنظلة ساعة وساعة**» (صحيح الترمذي).

فالصحابة كانوا يتقلبون بين الإيمان والإحسان، وبعض الناس يستغل هذا الحديث ليسوّغ تقلبَه بين الطاعة والمعصية، يقول: ساعة وساعة!

على أية حال، ينبغي على المرء أن يعلم بعض الثوابت عن أعمال القلوب، حتى يعرف كيف يحافظ على إيمانه، وثواب أعماله.

– **أولاً**: أعمال القلوب أعظم عند الله من أعمال الجوارح؛ ولذلك كان القلب محل نظر الرب عز وجل كما في الحديث: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأشار إلى صدره**». (مسلم).

وفي المسند عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله عز وجل لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

– **ثانيا**: القلب السليم يُثمر عملاً صالحاً، أما العمل الصالح فلا يدل على سلامة القلب، كما في حديث النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة،**

إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»، متفق عليه.

- **ثالثاً**: أعمال القلب تؤدي إلى الخلود في النار أو النجاة منها؛ وذلك أن من أعمال القلب الشرك، والنفاق، وهذه تخلد في النار، ومن أعمال القلب توحيد الله عز وجل والإيمان بـ(لا إله إلا الله)، وهذه منجية من النار.

- **رابعا**: أعمال القلوب إما أن تحبط أعمال الجوارح، أو تبطل نفعها، أو تقلّل أجرها؛ فثواب أعمال الجوارح يعتمد على أعمال القلوب، والأدلة على ذلك كثيرة، منها: حديث عمار بن ياسر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرجل ليصلي ولعله ألا يكون له منها إلا عشرها، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**» (صححه الألباني). وفي حديث الصيام والقيام عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر**» صحيح الجامع.

وهذه من أعظم أعمال الجوارح، الصلاة والصيام.

- **خامسا**: أعمال القلوب تحتاج إلى عناية مستمرة، أما أعمال الجوارح فيجب مراعاتها أثناء أدائها، وذلك أن العبد يحتاج إلى الحرص على طهارة القلب وعدم تنجسه دائماً، أما طهارة البدن فلا يحتاج إليها إلا إذا أراد العبادة، وكذلك سلامة القلب من الكبر، ومن الحسد، والبغضاء والشحناء وإلاّ حُرم الأجر، بل والمغفرة، والعتق من النار؛ بسبب هذه المعاصي القلبية، كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**تفتح**

أبواب الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس؛ فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء؛ فيقال: أَنظِروا هذين حتى يصطلحا أَنظِروا هذين حتى يصطلحا» مسلم.

دخل المجلس مؤذن المسجد، قبل موعد الأذان بعشر دقائق، نبَّهنا إلى الوقت، ثم خرج ينتظر موعد الأذان.

تابع الإمام حديثه:

ودعُونا نختم الآن بحقيقة ثابتة عن أعمال القلوب، وهي أن القلب شديد التقلب، ولذلك يحتاج إلى جهدٍ عظيم ودائم ليبقى على استقامته، مع الاستمرار بالدعاء؛ ففي الحديث عن المقداد بن الأسود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقلبُ ابن آدم أشد انقلاباً من القدر إذا استُجمعت غلياً**» (الصحيحة)، وكان من دعاء النبي ﷺ كما في الحديث عن أم سلمة أنها قالت: «**كان أكثر دعاء النبي ﷺ يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك، فقيل له في ذلك فقال ﷺ: إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقامه، ومن شاء أزاغه**» (الصحيحة).

التوحيد

«إن لله على العبد عبوديتين: عبودية باطنة وعبودية ظاهرة؛ فقيامه بالعبودية الظاهرة مع تعريه عن العبودية الباطنة لا يقربه إلى الله، ولا يوجب له الثواب؛ فإن المقصود امتحان القلوب وابتلاء السرائر» (الفوائد).

كنت في مطار (كوالامبور) بانتظار رحلة العودة إلى الكويت، أتيت باكراً؛ لأنه لم يكن لدي ما أنجزه في المدينة بعد انتهاء مدة إقامتي في الفندق، ذهبت إلى المصلَّى قبل أذان المغرب، وهذه من الأمور التي أحببتها هناك، توفر المصليات النظيفة الواسعة في كل مكان، أدينا المغرب والعشاء، جمعاً وقصراً، وأنا في طريقي إلى بوابة السفر، سلّم علي أحدهم، ونبهني إلى أن قراءتي تحتاج إلى مراعاة المدود، شكرته ومضيت.

إلتقيته مرة أخرى، في صالة الانتظار، كان عائداً إلى مصر، بعد دردشة قصيرة بدأ حوارنا.

- لا شك أن التوحيد، الذي هو إفراد الله تعالى بما اختص به من الألوهية والربوبية والأسماء والصفات، أعظم أعمال القلوب، من مات عليه نجا من الخلود في النار، ومن نقضه حُرِم من دخول الجنة، فهو نفي وإثبات في الحديث. «**من قال لا إله إلا الله وكَفَر بما يُعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله**» (مسلم)، فلا يكفي أن يقول العبد «لا إله إلا الله»، بل يجب أن يكفر بما يُعبد من دون الله، من قبور وأضرحة ومزارات وقبب ومشاهد، يعظّمها بعض الناس، ويتقربون إليها بالنذور والذبائح والهدي والتمسح وغيرها، وهذه تنفي تلك.

- هذه أفكار الوهابية!

نظرت إليه منكراً عليه مقولته، أردت أن أنهي الحديث معه، استجمعت هدوئي، وقررت متابعة الحوار.

- أقول لك: قال رسول الله ﷺ، وتقول: وهابية؟! هل نطقت أنا بهذه الكلمة، أو ذكرت شيئاً عدا حديث النبي ﷺ، ولكن دعنا نتحاور فيما ثبت عن الله في كتابه وعن رسول الله ﷺ في سنته الصحيحة.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (النحل). ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء).

وفي سورة الأعراف يذكر الله تعالى، نوحاً، وهوداً، وصالحاً، وشعيباً، وكلهم يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥)، وهكذا مع جميع الأنبياء والرسل؛ فلأجل التوحيد أَرسل اللهُ الأنبياء وأنزل الكتب، وخلق الجنة والنار، فالتوحيد سبب الخلق وغايته وتوحيد الله، مكانه القلب أولاً، فإذا تمكن من القلب أفلح العبد ونجا.

- هل تعني أن ما يفعله عامة المسلمين عند ضريح السيدة زينب أو ضريح (أبو مسلم)، أو (البدوي)... وغيرها، ينقض قولهم (لا إله إلا الله)؟

– نعم، هذه تنقض تلك، وما يفعله إلا الجهلة من الناس، فالعبد كلما ازداد علمه الصحيح بالله عز وجل، ازداد عبادة له، وبُعداً عن الشرك به، هؤلاء جهلوا معنى التوحيد، ومعنى العبادة، وأسماء الله وصفاته، فتعلقت قلوبهم بالموتى، من الأنبياء والأولياء والأئمة والمشايخ، وجهلوا أنه لا يملك النفع أو الضر إلا الله عز وجل، ولا يعطي ويمنع إلا الله عز وجل، ومن كانت له حاجة فليتوجه بها إلى الله مباشرة، كما أمر الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ (غافر: ٦٠). وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦﴾ (المائدة).

قاطعني:

– ولكنهم لا يعبدون هذه الأضرحة، لا يصلون لها ولا يسجدون لها!

– وهل العبادة الصلاة، والسجود فقط؟ العبادة بتعريفها الشرعي (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة)، فالدعاء عبادة، بل قال النبي ﷺ: «الدعاء هو العبادة» (صحيح الجامع)، ولو تدبرت قول الله تعالى في الآية التي ذكرت سابقا. ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦﴾ (المائدة)، ذكر أولًا الدعاء، ثم ذكر العبادة، وفي قوله –تعالى عن إبراهيم عليه السلام–: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩﴾ (مريم).

فذكر الدعاء أولاً، ثم ذكر أنها العبادة. فالدعاء عبادة، والنذر عبادة،

الحلف عبادة، بل أعظم من ذلك، أعمال القلب، من الخوف والرجاء عبادة، والخشية والرضا عبادة، والتوكل عبادة، وغيرها من أعمال القلوب، كما أن الصلاة عبادة، والسجود عبادة، لا ينبغي صرف أي شيء منها لغير الله؛ فهي تبدأ في القلب، وتنعكس على الجوارح، سكت صاحبي، فتابعت الحديث:

– فالتوحيد عملٌ قلبي أولاً، يظهر أثره على الجوارح، وهو أعظم قربة يتقرب بها العبد إلى الله عز وجل، وشعاره: (لا إله إلا الله)؛ لذلك من عرف هذه الكلمة صادقاً مخلصاً، نجا من النار، كما قال الرسول ﷺ: «**أتاني جبريل فقال: بشّر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، قلت: يا جبريل وإن سرق وإن زنا؟ قال: نعم، قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم. قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم وإن شرب الخمر**» (الصحيحة).

تعظيم الله عزوجل

«أعرف الناس بالله أشدّهم له تعظيماً وإجلالاً» (مدارج السالكين)

كانت خطبة الجمعة جامعة نافعة، هزت مشاعر المصلين، وحركت قلوبهم وذكَّرتهم بالخوف من الله وتعظيمه وإجلاله، والاستعداد للوقوف بين يديه يوم القيامة.

إجتمعت وصاحبي بعد الصلاة في مكتبه، نتذاكر ما ورد في الخطبة.

- جزى الله خيراً خطيبنا على هذه الموعظة.

- إن تعظيم الله عمل قلبي، ينبغي على العبد أن يستحضره دائماً، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فمن اعتقد الوحدانية في الألوهية لله سبحانه وتعالى والرسالة لعبده ورسوله ﷺ ثم لم يُتبع هذا الاعتقاد موجبه من الإجلال والإكرام الذي هو حال في القلب يظهر على الجوارح، كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه» (الصارم المسلول: ج١، ص٣٦٩).

- وماذا يقول ابن القيم عن مقام تعظيم الله -عز وجل؟

أحضر لنا الخادم الماء وبعض الفاكهة والمكسرات كالمعتاد.

- **قال ابن القيم عن منزلة التعظيم**: «هذه المنزلة تابعة للمعرفة؛ فعلى قدر المعرفة، يكون تعظيم الرب تعالى في القلب، وأعرف الناس به أشدّهم له تعظيماً وإجلالاً، وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته، ولا عَرَفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته، قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ (نوح).

قال ابن عباس ومجاهد: «لا ترجون لله عظمة»، وقال سعيد بن جبير: «ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته، وروح العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت العبادة». (مدارج السالكين: ٢/ ٤٩٥).

- كلام جامع مانع.

- يحتاج العبد دائماً أن يذكر نفسه بعظمة الله عز وجل، ويملأ قلبه تعظيماً وإجلالاً وتمجيداً لله عز وجل، فمن أسمائه سبحانه (العظيم)، كما ورد في آية الكرسي، التي هي أعظم آية في كتاب الله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ (البقرة). وكذلك قوله عز وجل: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾ (الواقعة). وكذلك قوله سبحانه: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤﴾ (الشورى). وأمرنا الرسول ﷺ أن نعظم الله عز وجل في صلاتنا: عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً؛ فأما الركوع فعظّموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء؛ فقمن أن يستجاب لكم**» (صحيح مسلم). وذلك أن نقول في ركوعنا: «سبحان ربي العظيم»، وكذلك: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة». ولا شك أن العبد إذا استحضر أنه يقف أمام الله عز وجل الجبار الملك العظيم، كلّما كبر للصلاة، يزداد تعظيماً له.

- ومن تعظيم الله، تعظيم كتابه؛ لأنه كلام الله عز وجل تعظيماً مادياً ومعنوياً، بمعنى يكرم المصحف ولا يهينه ولا يرميه، ولا يضعه في مكان لا يليق به، ومعنوياً، أن يتبع أوامره، وينتهي بنواهيه ويتدبر آياته، ويتفاعل معها، ويؤمن بكل ما جاء فيه.

- لا شك أننا مقصرون كثيراً في هذا الجانب، بغفلتنا عن تعظيم الله، ونغتر أوقاتاً كثيرة بأمور الدنيا، ولا تؤثِّر فيها آيات القيامة والبعث والحساب، نسأل الله السلامة.

- على المؤمن أن يجتهد في هذه العبادة القلبية العظيمة، ويقرأ الآيات التي تبين عظمة الله سبحانه وتعالى، مثلاً يقول الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ (مريم).

السماوات والأرض والجبال، أعظم المخلوقات تنكر نسبة الولد لله العظيم، وتعظم الله كما ينبغي، وابن آدم يصرُّ على هذا الكفر القبيح! وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري؛ فمن نازعني واحداً منهما، أدخلته النار**» وفي رواية «**قذفته في النار**»، ونحن نؤمن بهذا الحديث كما ورد دون تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تأويل، نؤمن به كما يليق برب العزة؛ لأنه وحي من الله إلى رسوله ﷺ.

وفي الحديث أيضا: عن عبدالله - رضي الله عنه -، قال: جاء حبر من اليهود، فقال: إنه إذا كان يوم القيامة جعل الله السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والماء والثرى على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك أنا الملك، فلقد رأيت النبي ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه تعجباً وتصديقاً لقوله، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٧﴾ (الزمر)» (البخاري).

حُبُّ الله

«إن القلوب لا بد لها من تعلُق بمحبوب؛ فمن لم يكن الله محبوبه ومعبوده، تعلق قلبه بغيره»، (إغاثة اللهفان).

يَسر الله لنا العمرة، رجعنا إلى المدينة بعد تجربة رائعة في قطار الحرمين.

- «حُبُّ الله» قضية يدَّعيها كل الخلق، ويبنون عليها أن الله يحبهم!

يدَّعيها اليهود والنصارى والمبتدعة وحتى أصحاب الأهواء والشهوات، وينسون أن من ادعى شيئا يجب أن يقيم الحجة على ادعائه!

- إنها كلمة عظيمة، وعمل قلبي كبير أن يحقق العبد (حب الله)، ولا شك أن لهذا العمل أركانه ودلالاته وثمراته.

- نعم، هو كما قلت، ولنبدأ بقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ (البقرة).

وقوله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ (المائدة).

وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

ذُنُوبَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ (آل عمران). في هذه الآيات أثبت الله عز وجل حب المؤمنين له سبحانه وتعالى وبيّن مقياس هذا الحب وبرهانه، فلنفصل في هذه القضية الجميلة العظيمة من أعمال القلوب.

– أول أسباب حبِّ العبدِ لله، أن يعرف الله معرفة صحيحة، ولا سبيل لمعرفة الله، إلا كتاب الله وسنة الرسول ﷺ، كما بيّنها هو ﷺ وكما فهمها من كان معه من الصحابة – رضي الله عنهم –، معرفة أسماء الله الحسنى، وصفاته العُلا، تورث في القلب المحبة الصحيحة لله، فتدفع العبد إلى العمل بما أمر به المحبوب، والابتعاد عما نهى عنه المحبوب، لأن محبة الله، تمتزج بتعظيمه والخوف منه، والحياء من التقصير في حقه، ورجاء رحمته وعفوه، والأمل بنيل رضاه، هذه كلها مترابطة لا تنفصل عن بعضها البعض؛ ولذلك من سعى إلى حب الله، دون تعظيم وخوف وقع في بدع المتصوفة، الذين شبهوا حب الله بحب المخلوق من حب و(عشق) و(وله)، دون تعظيم أو خوف أو خشية!

فإذا عرف العبد ربه بأسمائه وصفاته، عظّم أوامره، فأتى الواجبات وانتهى عن المحرمات، وزاد بالنوافل والمستحبات، كما في الحديث القدسي، عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يقول: «من عادَى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضه عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما**

ترددت بشيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد منه» (البخاري).

كنا في صالة الانتظار نتناول مشروبات ساخنة بانتظار موعد إقلاع طائرتنا.

- وهذا الحديث يستشهد به أهل البدع؛ لأنهم لم يفهموه كما فهمه الصحابة الذين سمعوه عن رسول الله ﷺ، وباختصار، إن غاية محبة العبد لله عز وجل ألا يرى إلا ما يرضي الله، ولا يسمع إلا في طاعة الله، ولا يبطش إلاَّ في أمر الله، ولا يمشي إلا في رضا الله عز وجل، فمن كان كذلك فقد بلغ المراد -بإذن الله-، وحيث أن العبد يقع في الخطأ والمعصية؛ فإن المحب لله، إذا عصا تاب، وإذا أذنب آب، وإذا قصّر استغفر، ولا يستغني أحد، عن التوبة والاستغفار أبداً!

ولا شك أن حب المؤمنين لله عز وجل يتفاوت، ونؤمن أن رسول الله ﷺ، كان أشدّ الخلق حبّاً لله، ثم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، ثم الصحابة -رضوان الله عليهم-، وحتى العبد، يكون في درجات متفاوتة من حبه لرب العالمين، وإن كان الأصل موجوداً في القلب إلا أن درجات المحبة تزداد بالطاعات وتنقص بالمعاصي. ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ٣١﴾ (آل عمران). وليس عند القلوب السليمة أجمل ولا أطيب ولا أنعم من محبة الله -عز وجل كما في الحديث:

عن أنس - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه**

وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحبَّ عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار»، متفق عليه. وفي الواقع هذه الثلاث ترجع إلى واحدة (حب الله -عز وجل-).

- ودلائل حب العبد لله كثيرة، منها ما ورد في هذا الحديث، ومنها الراحة والتلذذ بالطاعات، ولاسيما الفرائض، كالصلاة والصيام «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»، ومنها التلذذ بسماع كلام الله والسعادة بطاعة الله والفرحة بإنجاز أوامر الله، كالفرحة عند الفطر بعد الصيام وإتمام الحج، وختم القرآن، وقضاء حوائج المسلمين، وغيرها من الطاعات، يأتيها برغبة، ويفرح أن أداها، ولا يستغني العبد عن دعاء الله أن يرزقه محبته؛ فإن المطالب العظمى لا تنال إلا بتوفيق الله، وهذه نعمة عظيمة من الله يتفضل بها على من يستحقها بحق.

فقد ورد في الحديث عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: «احتُبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس، فخرج سريعاً فثوب بالصلاة، فصلّى رسول الله ﷺ وتجوز في صلاته، فلما سلَّم دعا بصوته فقال لنا: على مصافكم كما أنتم ثم انفتل إلينا فقال: أما إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة: أني قمت من الليل فتوضأت فصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي فاستثقلت، فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، فقال: يا محمد قلت: رب لبيك، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري رب، قالها ثلاثا قال: فرأيته وضع كفّه

بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي، فتجلى لي كل شيء وعرفت، فقال: يا محمد، قلت: لبيك رب، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات، قال: ما هن؟ قلت: مشي الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلاة، وإسباغ الوضوء في المكروهات، قال: ثم فيم؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام. قال: سل. قل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك، قال رسول الله ﷺ: «**إنها حقٌ فادرسوها ثم تعلموها**». (تحقيق الألباني: صحيح مختصر العلو).

الخوف والرجاء (١)

إلتقينا بعد انقطاع السفر في الصيف، قضى صاحبي عطلته الصيفية في أوروبا، وقضيتها أنا في شرق آسيا، ثم تركيا، لفترة امتدت أسبوعين تقريباً، كان أول لقاء لنا بين العشائين.

- المراقبة أساس أعمال القلوب جميعاً، ولقد جمع الرسول ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمة واحدة (الإحسان): «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» (صحيح البخاري).

- صدق رسول الله ﷺ، وكما قال: «**فُضِّلت على الأنبياء بست: أُعطيتُ جوامع الكلم ونُصرتُ بالرعب وأُحلت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُرسلت إلى الخلق كافة وخُتم بي النبيون**» (صحيح مسلم).

- لماذا لا يُذكَر الخوف إلا وذُكر الرجاء، ولا يذكر الرجاء إلا وذكر الخوف وكأنهما مقترنان أبداً؟

- تعجبني ملاحظتك الدقيقة يا (أبا أحمد)، نعم هما مقترنان، ودعني أقرأ لك من كلام الإمام ابن القيم -رحمه الله:

«الخوف سوطٌ يَضربُ به العبد نفسه؛ لئلا تخرج عن الدرب، والرجاء حادٍ يحدوها، يُطيِّب لها السير، والحُب قائد زمامها الذي يسوقها به». وفي موضع آخر: «الخوف يبعدك عن معصيته، والرجاء يخرجك إلى طاعته،

والحب يسوقك إليه سوقاً». وفي موضع ثالث: «القلب في سيره إلى الله عز وجل مثل الطائر، المحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه».

كان حديثنا في الديوان الملحق بالمسجد، وهو مكان للراحة، وفيه أدوات إعداد القهوة والشاي، ومكتب صغير، نستخدمه في عقود الزواج، وغير ذلك.

- أراك تستشهد كثيراً بكتب ابن القيم مؤخراً!

- نعم، لأننا نتحدث عن (القلب)، وما يتعلق به، والإمام ابن القيم مرجعٌ في هذه القضايا، يفصّل فيها تفصيلاً لا تجده عند غيره.

إليك بعض ما كتب:

الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة التي عليها مدار مقامات السالكين جميعها، وهي الخوف والرجاء والمحبة، وقد ذكره سبحانه في قوله: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧ ﴾ (الإسراء)، فجَمَع بين المقامات الثلاثة؛ فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه وفعل ما يحبه، ثم يقول: ويرجون رحمته ويخافون عذابه؛ فذكر الحب والخوف والرجاء.

وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه؛ فقال عن أنبيائه -بعد أن أثنى عليهم ومدحهم-: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠ ﴾ (الإنبياء)، فالرغب

الرجاء، والرهب الخوف، وقال عن ملائكته الذين قد أمَّنهم من عذابه: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠) ﴾ (النحل)، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**والله إني لأعلمكم بالله عز وجل وأخشاكم له**» (صحيح الجامع). فكلما كان العبد بالله أعلم، كان له أخوف، قال ابن مسعود – رضي الله عنه – «**وكفى بخشية الله علماً**». والخوف ينشأ من ثلاثة أمور، أحدها: معرفته بالجناية وقبحها، والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها، والثالث: أنه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب، فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه.

وورد عن أمير المؤمنين علي – رضي الله عنه –: «لا يرجُوَنَّ عبدٌ إلا ربه ولا يخافنَّ إلا ذنبه» فجعل الرجاء متعلقا بالرب– سبحانه وتعالى–؛ لأن رحمته من لوازم ذاته وهي سبقت غضبه، وأما الخوف فمتعلق بالذنب فهو سبب المخافة حتى لو قُدر عدم الذنب بالكلية.

– فإن قيل فما وجه خوف الملائكة وهم معصومون من الذنوب التي هي أسباب المخافة، وشدة خوف النبي ﷺ مع علمه بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأنه أقرب الخلق إلى الله، قيل عن هذا أربعة أجوبة:

الجواب الأول: أن هذا الخوف على حسب القرب من الله والمنزلة عنده، وكلما كان العبد أقرب إلى الله، كان خوفه منه أشدّ.

الجواب الثاني: أنه لو فرض أن العبد يأتي بمقدوره كله الطاعة ظاهراً وباطناً؛ فالذي ينبغي لربه سبحانه فوق ذلك وأضعاف أضعافه.

الجواب الثالث: أن العبد إذا علم أن الله سبحانه وتعالى هو مقلب القلوب، وأنه يحول بين المرء وقلبه، وأنه - سبحانه وتعالى - كل يوم هو في شأن، فما يؤمنه أن يقلب الله قلبه ويحول بينه وبينه، ويزيغه بعد إقامته؟ وقد أثنى الله على عباده المؤمنين بقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ (آل عمران)، فلولا خوف الإزاغة لما سألوه ألا يزيغ قلوبهم.

الجواب الرابع: أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يخلق أفعال العبد الظاهرة والباطنة؛ فهو الذي يجعل الإيمان والهدى في القلب، ويجعل التوبة والإنابة والإقبال والمحبة والتفويض وأضدادها، والعبد في كل لحظة مفتقر إلى هداية يجعلها الله في قلبه، وحركات يحركها بها في طاعته.

والخوف يزول في الجنة؛ لأن تعلقه إنما هو بالأفعال لا بالذات كما تقدم، وقد أَمَّنهم ما كانوا يخافون منه؛ فقد أَمِنوا ألا يفعلوا ما يخافون منه، وأن يفعل بهم ربهم ما يخيفهم ولكن كان الخوف في الدنيا أنفع لهم؛ فَبِهِ وصلوا إلى الأمن التام فإن الله- سبحانه وتعالى- لا يجمع على عبده مخافتين إثنتين؛ فمن خافه في الدنيا أمّنه يوم القيامة، ومن أَمِنه في الدنيا ولم يَخَفه أخافه في الآخرة، وناهيك شرفاً وفضلاً بمقامٍ ثمرته الأمن الدائم المطلق!.

الخوف والرجاء (٢)

– لقد أسهبت وأكثرت من بيان (الخوف)، ولم تتكلم عن (الرجاء).

هكذا عقب صاحبي وقد انطلق أذان العشاء.

– حديثنا لم ينته بعد، نكمل بعد العشاء إن شئت أو في مجلس الغد.

– لنقم إلى الصلاة ونتفق بعدها -إن شاء الله.

أدينا صلاة العشاء، علم بعض إخواننا بنقاشنا، شاركونا المجلس.

– أظن أننا لن نزيد عن نصف ساعة في نقاشنا -إن شاء الله.

– أما الرجاء فهو ضد اليأس، فهو من أعمال القلوب الواجبة ويقترن بالخوف، أما اليأس فهو من معاصي القلب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (يوسف).

استوقفني (أبو عمر).

– ربما يجعل بعضهم (الرجاء) سبباً للبناء على المعاصي وترك الطاعات.

– هذا لم يعرفْ ربه معرفة صحيحة ولم يفهم معنى (الرجاء).

نعم (الرجاء) عمل قلبي، ولكن يصحبه عمل في الجوارح، ويذكرُ العلماء، أنه لا يكون الرجاء إلا بعد بذل الأسباب، كالزارع، لا يرجو أن يثمر نباته، إلا إذا وضعه في أرض صالحة واعتنى به وسقاه، ثم بعد ذلك يرجو ثمره، هذا هو الرجاء، أما الآخرُ فهو (أمانيّ)، لا قيمة لها، وربما تكون وبالاً على صاحبها، وضرب الله لنا مثلاً في سورة الكهف، بصاحب الجنة الكافر، حين قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ (الكهف)،

دون سبب ودون عمل؛ فخاب وخسر. كنا خمسة نفر، أنا وصاحبي، و(أبو عمر)، محفظ للقرآن، ومدرس في المعهد الديني، واثنان من رواد المسجد الدائمين.

- والعبد يحتاج للرجاء الصحيح على الدوام، ولكن أحوج الناس للرجاء رجلان، رجل غلب عليه الخوف؛ فأخذ بنفسه وأفسد حياته وتملّكَه الوسواس، ورجل غلب عليه اليأس من المعاصي، حتى ترك جميع الطاعات، والعالم هو الذي يعطي كل مريض دواءه الصحيح من كتاب الله عز وجل وسنة النبي ﷺ.

عقّب (أبو عمر).

- ولعل أرجى آية في كتاب الله عز وجل، هي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ (الزمر).

- نعم هي كذلك وكما قال العلامة ابن باز -رحمه الله- هذه لمن تاب من الشرك وما دونه، فلا ينبغي لعبد أن يرجو رحمة الله، وهو مقيم على المعصية.

ويتحقق الرجاء عند العبد الصالح بأمور:

- **أولها**: أن يذكر سابق فضل الله عليه، ديناً ودنيا، من هداية وعافية وتوفيق وغير ذلك.

- **وثانيها**: أن يتذكر وعدَ الله وهو ثواب الله الجزيل وعظيم كرمه، دون سؤال من العبد.

– **وثالثها:** عِظَمُ الأجر، مع قلة العمل، وهذا من العلم باسم الله (الشكور)، ونيل العبد ثواباً، دون استحقاق حقيقي.

– **ورابعها:** العلم بعِظَم رحمة الله، وأن رحمته سبقت غضبه وكما في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من الجنة أحد**» (مسلم).

(الرجاء) مطلوب، و(التَّمَنِّي) مذموم، و(القنوط) ممنوع. ولا شك أن (الرجاء) الصحيح له ثمرات جميلة في قلب العبد المؤمن؛ فهو الدافع له أن يأتي الطاعات برغبة وحب، ويقبل على الله بقلبه، ويتلذذ بمناجاته، فتكون قرة عينه في الصلاة وراحة قلبه في الوقوف بين يدي الله، وقمة سعادته في السجود لله؛ حيث يكون أقرب ما يمكن إلى ربه، ويبث حاجاته إلى ربه، وهو موقن بالإجابة حتى يصل أن يفوّض أمره إلى الله، في كل شأن من شؤون دينه ودنياه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ (غافر). فيطيب له المسير إلى الله، و(الرجاء) يوصل العبد إلى مقام (الشكر)، وهو من أعمال القلوب أيضا.

– **وهل ينتفي الخوف عن العبد بعد ذلك؟**

– كلا، أبداً، لا ينتفي الخوف إلا في الجنة، وحال المؤمن أن كل خائف راجٍ، وكل راجٍ خائف، إذا كان (الخوف والرجاء) صحيحين في قلب المؤمنٍ، فالراجيٍ يخاف أن يفوته مطلوبه، فالخوف بلا رجاء قنوط، والرجاء بلا خوف تمنّ، واسمع قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (المؤمنون).

ففي التفسير: قال الزجاج: قلوبهم خائفة؛ لأنهم إلى ربهم راجعون وسبب الوجل هو أنهم يخافون ألا يُقبل منهم ذلك على الوجه المطلوب لا مجرد رجوعهم إليه سبحانه: والمعنى من آمن بالجزاء والحساب وعلم أن المجازي والمحاسب هو الله سبحانه لم يخلُ من وجل، وفي الحديث عن عائشة -رضي الله عنها- قلت يا رسول الله: قول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله؟ قال ﷺ: «لا ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف الله ألا يتقبل منه». (فتح القدير)

- سبحان الله! حقاً أعمال القلوب تحتاج إلى العلم الصحيح بها.

هكذا عقب (أبو صالح).

- والرجاء ثلاثة أنواع، الأول: رجاء رجل يعمل بالطاعات على نور من الله يرجو ثواب الله، فهذا محمود، والثاني: رجل أذنب ذنوباً وربما تكرر الذنب منه، فيتوب، يرجو مغفرة الله وعفوه وهذا محمود أيضاً، والثالث: رجل تمادى في المعصية واغتر بالدنيا، وزعم أن رحمة الله واسعة، دون عمل، فهذا مذموم؛ لأنه غرور وتمنّ، وليس رجاءً صحيحاً.

ونختم بقوله الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ (البقرة).

الصدق

«أصل طاعات القلوب كلها الصدق مع الله، وأصل معاصي القلوب كلها الكذب».

– الصدق خُلقٌ حميد للمسلم وهو ضد الكذب، ومفهوم عامة الناس أن الصدق يكون في الحديث وكذلك الكذب.

– الصدق مع الله، هو أجلّ أنواع الصدق وأشرفه، وذلك أن الصدق يكون في الحديث وفي الأفعال، وأهم من هذا وذاك، الصدق الذي يكون في القلب مع الله عز وجل، وكلُّ أمر بالصدق في كتاب الله وسنة النبي ﷺ يتناول هذه الأنواع جميعاً، وأولها صدق القلب مع الله، مثل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ (التوبة)، والصدق يكون في ثلاثة أمور: العقيدة، والعبادات، والمعاملات.

كنت وصاحبي نتحاور في أول يوم عمل بعد إجازة الصيف الطويلة، أنهينا كلَّ إلتزاماتنا الإدارية، كنا بانتظار صلاة الظهر، التي –عادة– نؤديها مع بقية الزملاء والطلبة في المصلى المتوسط بين جميع الأقسام العلمية.

– وقد جمع الله تعالى صفات الصادقين في آية واحدة في سورة البقرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ

بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ (البقرة).

في تفسير السعدي «أي: المتصفون بما ذكر الله من الصفات الحسنة والأعمال الصالحة والأخلاق الطيبة، هم (الذين صدقوا)؛ لأن أعمالهم صدَّقت إيمانَهم». قال ابن القيم -رحمه الله- «ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربَّه في جميع أموره، ومن صَدَقَ الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره» (الفوائد).

وفي الحديث عن سهل بن حنيف - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «**من سأل الله الشهادة بصدق، بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**» (مسلم). قال المناوي في شرح مسلم: «قيّد السؤال بالصدق؛ لأنه معيار الأعمال ومفتاح بركاتها وبه تُرجى ثمراتها، و(بلّغه الله منازل الشهداء)، مجازاة له على صدق الطلب» (فيض القدير).

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله-: «فإذا سأل الإنسان ربه وقال: اللهم إني أسألك الشهادة في سبيلك فإن الله تعالى إذا علم منه صدق القول والنية أنزله منازل الشهداء وإن مات على فراشه» شرح رياض الصالحين.

قطع حديثَنا طالبان، كانت لديهما مشكلة في تسجيل المقرر الذي يدرسه صاحبي، عمل اللازم لحل الإشكال، تابعنا حديثنا.

- يحضرني حديث سمعته في خطبة الجمعة: عن شداد بن الهاد

الليثي – رضي الله عنه –، أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه، ثم قال: «أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوةٌ غَنِم النبي ﷺ سبياً فقسم، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلمَّا جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسمٌ قسمه لك النبي ﷺ. فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ فقال: ما هذا؟ قال: قسمته لك، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أُرمى ها هنا، –وأشار إلى حلقه– بسهم فأموت فأدخل الجنة، فقال ﷺ: «**إن تصدق الله يصدقك**». فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو، فأُتي به النبي ﷺ يُحمل قد أصاب السهمُ حيث أشار، فقال النبي ﷺ: «**أهوَ هُوَ؟ قالوا: نعم، قال: صدق اللهَ فصدقه**»، ثم كفنه النبي ﷺ في جبته، ثم قدّمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «**اللهم هذا عبدك، خرج مهاجراً، فقُتلَ شهيداً، أنا شهيدٌ على ذلك**» (صحيح النسائي).

– نعم، هذا حديث عظيم في الصدق مع الله.

– وكذلك حديث عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في صحيح البخاري: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ»، فمات شهيداً في المدينة. ولكن ماذا عن درجة الصديقية، أي أن يكون العبد صدِّيقاً، لا صادقاً فحسب؟

– سؤال جميل، إليك الإجابة عنه من الكتب المخزنة في جهاز الحاسوب أمامي.

بحثت سريعاً واستخرجت لصاحبي ما يلي:

أخبر سبحانه أنه يوم القيامة لا ينفع العبدَ وينجيه من عذابه إلّا صدقُه قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾ (المائدة)، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الزمر) فالذي جاء بالصدق: هو مَنْ شَأْنُه الصدق في قوله وعمله وحاله فالصدق: في هذه الثلاثة.

فالصدق فى الأقوال: إستواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها والصدق في الأعمال: إستواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد والصدق في الأحوال: إستواء أعمال القلب والجوارح وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صدّيقيته؛ ولذلك كان لأبي بكر الصديق – رضي الله عنه –: ذروة سنام الصدّيقية، سُمي الصدّيق على الإطلاق، والصدّيق أبلغ من الصدوق والصدوق أبلغ من الصادق.

وقد أمر الله تعالى رسوله: أن يسأله أن يجعل مُدخله ومُخرجه على الصدق فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ (الإسراء)، وأخبر عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه سأله أنه يهب له لسان صدق فى الآخرين فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الشعراء)، وبشّر عباده بأن لهم عنده قدم صدق ومقعد صدق فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (يونس: ٢) وقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ

مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ (القمر)؛ فهذه خمسة أشياء: مُدخل الصدق، ومُخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق، وحقيقة الصدق في هذه الأشياء هو الحق الثابت المتصل بالله الموصل إلى الله.

وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «**إن الصدق يهدي إلى البرّ، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**».

الصدق مفتاح الصديقية ومبدؤها، وهى غايته فلا ينال درجتها كاذب البتة؛ فلذلك كانت الصديقية: كمال الإخلاص والانقياد والمتابعة للخبر والأمر ظاهراً وباطناً.

الإخلاص

«الصادقون مع الله قسمان، قسم صرفوا ما فضل من أوقاتهم بعد الفرائض إلى النوافل وجعلوها دأبهم، وقسم صرفوا ما فضل من الفرائض إلى الاهتمام بصلاح قلوبهم من تصحيح المحبة والخوف والرجاء والتوكل، وشتان بين هؤلاء وأولئك!» ابن القيم (الفوائد).

– هذه القضية وهي قضية كبرى، يغفل عنها أكثر الناس، بل أكثر الصالحين الملتزمين دين الله.

– تعني، أعمال القلوب، والعمل على إصلاحها؟

– نعم.

كنت وصاحبي في رحلة قصيرة إلى المدينة المنورة، وتركنا موضوع العمرة حسب الظروف هناك إن تهيأت.

– لا شك أن أعمال القلوب أشدّ وأصعب من أعمال الجوارح، أين تطهير القلب، من تطهير البدن؟ وأين مراقبة الله، من صلاة ركعتين، وأين الخوف من الله من ترك المسكرات؟ فأعمال القلوب صعبة شديدة، والفائز من تيسرت له وعمل بها.

– مثلاً، الإخلاص، عمل عظيم من أعمال القلوب، وهو أصل كل عمل صالح من أعمال الجوارح، والعبد يحتاج إلى مجاهدة عظيمة حتى يحققه ويستحضره دائماً.

وذلك أن كل عمل مهما صغر، يُنشر له ديوانان: لِمَ؟ وكيف؟

فالأول: هو الإخلاص، **والثاني** هو المتابعة، ولا يُقبل إلا بهما.

ومن حقق الإخلاص في قلبه، فاز، ودخل في وصف الله تعالى: ﴿عباد الله المخلصين﴾، كما في قوله تعالى عن إبليس: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (ص).

كانت رحلتنا بالطائرة، مع أولى الرحلات المباشرة من الكويت إلى المدينة، قطع المضيف حديثنا بتقديمه القهوة والتمر.

تابعنا الحديث:

- دعني أقرأ لك بعض ما جمعت من كتابات ابن القيم -رحمه الله-: «ولا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة الثناء والمدح من الناس، فإذا طلبت الإخلاص فازهد في المدح والثناء».

والإخلاص من أعمال القلوب الواجبة، التي إن تخلفت عن العبادات، حَبَطَ أجرُها، وإن صاحبت العادات، ثبتَ أجرها.

وفي تعريف الإخلاص ورد الكثير من أقوال العلماء ومنها، تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، وذلك أن مدار الإخلاص في اللغة، الصفاء والتميز عن الشوائب، وهو أشد شيء على النفس؛ لأنها لا نصيب لها فيه.

وفي بيان عظيم ثواب الإخلاص يذكر العلماء حديث البطاقة، عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يستخلص

رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجلٍّ مثل هذا، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلَكَ عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج بطاقة فيها (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله)، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه التسجلات؟ فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء». (السلسلة الصحيحة)

يقول شيخ الإسلام -معلقاً على حديث البطاقة-: «فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون لا إله إلا الله، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة».

- يظن كثير من الصالحين أن تحقيق الإخلاص سهل ولا يستدعي كل هذا الجهد الذي تقوله.

- ذلك أنهم لا يعلمون حقيقة الإخلاص، ودعني أذكر لك ما ورد في درجات الإخلاص حتى تتبيّن لك صعوبته.

الدرجة الأولى:

إخراج رؤية العمل عن العمل، والخلاص عن طلب العوض عن العمل، والنزول عن الرضى بالعمل.

– **فالأولى**: يشاهد منّة الله تعالى وتوفيقه له على هذا العمل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ (النور).

– **الثانية**: ليعلم أنه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عِوضاً.

– **الثالثة**: مطالعته عيوبه وآفاته وتقصيره فيه.

الدرجة الثانية:

الخجل من العمل مع بذل المجهود؛ حيث لا يرى العملَ صالحاً لله مع بذل المجهود ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (المؤمنون)، فالمؤمن جمع إحساناً في مخافة، وسوء ظن بنفسه.

الدرجة الثالثة:

إخلاص العمل بالخلاص من العمل، إلا بنور العلم، فيحكمه في العمل حتى لا يقع في البدعة.

كانت ردة فعل صاحبي تلقائية.

– لا حول ولا قوة إلا بالله، حقَّاً إنها مهمة صعبة، أن يحقق العبد الإخلاص، ويداوم عليه، دائماً في كل عمل.

– نعم، هو عمل عظيم! قليل من يوفَق فيه، والصحابة –رضوان الله عليهم– لم يسبقونا بكثرة صلاة ولا صيام ولا ذكر، وإنما بشيء وقر في قلوبهم، ومما وقر في قلوبهم: (الإخلاص).

أما ثمرات الإخلاص، فلا يعلمها إلا الله عز وجل وكلها خير في الدنيا والآخرة ولكن نذكر منها:

- تفريج الكربات (قصة الثلاثة الذين حبسوا في الغار).

- العصمة من الشيطان: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ٢٤﴾ (يوسف).

- نيل شفاعة محمد ﷺ: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: **«قلت يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: لقد ظننتُ يا أبا هريرة، ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قبل نفسه»** (صحيح البخاري).

- مغفرة الذنوب ونيل الرضوان: كما في حديث البطاقة.

اليقين

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾ (البقرة).

جاري في المنزل المقابل، أستاذ جامعي من السودان، يُدرّس التفسير في إحدى الجامعات الخاصة، دمث الخلق، جميل المعشر، لا تفارق الابتسامة محياه، ولا يتردد في إلقاء الخواطر، والمواعظ الخفيفة القصيرة، في أي مجلس مكان.

– أمّا اليقين، فهو العلم الجازم الذي لا يشوبه شك، واستقرار هذا العلم في القلب؛ فلا يتزعزع ولا يضطرب، ومنه يقال (ماءٌ يقِن)، إذا استقر عن الحركة. و(اليقين) ضد الشك، وهو ركن الإيمان، بمعنى أن الإيمان إن لم يكن عن يقين، ينتقض، فالإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، كلها يجب أن تكون عن يقين لا شك فيه.

– هل اليقين درجة واحدة، أم درجات يسعى العبد لتحقيقها، ويرتقي فيها؟

كان السائل أحد طلبة العلم، كثير الاطلاع والمتابعة للدروس والمحاضرات، إلتفت إليه الشيخ بابتسامته المعهودة.

– سؤال جميل، وجيد، لا شك أن اليقين درجات يرتقي خلالها العبد، والناس يتفاوتون في درجات اليقين، ولكن الحد الأدنى هو اليقين

بما أخبر به الله عز وجل وثبت في سنة النبي ﷺ، من أمور الغيب كالإيمان بالله والملائكة والجنة والنار، والجن، والصراط والحوض، وغيرها وإليكم بعض التفصيل في ذلك، يقول تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾ (النمل:٣) و(لقمان:٤)، أما الكفار فقد أخبر الله عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (الجاثية)، فهذه علامة فارقة بين الإيمان والكفر. يقول ابن القيم: «ودرجات اليقين ثلاث: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، وقبول ما غاب من الحق والوقوف على ما قام بالحق، استوقفت صاحبي:

- مهلاً شيخنا الفاضل، أرجو أن تحدثنا بطريقة أسهل حتى تصل المعلومة لعامتنا، ابن القيم يخاطب طلبة علم متخصصين.

- لك ذلك.

أما قبول ما ظهر من الحق فهو قبول أوامر الله ورسوله والإذعان لها وعدم رد شيء من الآيات أو الأحاديث أو الأوامر أو النواهي، وقبول ما غاب من الحق، كالإيمان بما ورد من قضايا الغيب، والوقوف على ما قام بالحق، وتطبيق شرع الله والعمل بمقتضى أمر الله، أما عين اليقين: فهو مشاهدة ما كان غائباً، من أمور الآخرة ويحصل ذلك بعد الموت، مشاهدة بعض ما أخبر الله عنه كالملائكة وأنواع النعيم وأنواع العذاب، وكل ذلك يشاهد في الآخرة أيضاً.

أما حق اليقين فهو التلبس بالأمر بعد دخول الجنة للمؤمنين والنار للمجرمين، ولذلك وصف الله تعالى كتابه بأنه في أعلى درجات اليقين، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ (الحاقة).

وهذا ما ينبغي أن يسعى إليه المؤمن ليناله فينعكس ذلك على جوانب حياته كافة، في النعماء والضراءوفي كل تقلبات الدنيا كما في حديث ابن عباس – رضي الله عنه –: «**يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم لو أن الأمة اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**» (صحيح أحمد والترمذي).

فاليقين يجب تحقيقه في قضايا الإيمان، ويحتاج إليه المؤمن في أمور الحياة ليعيش حياة مطمئنة، كما في الدعاء، عن ابن عمر –رضي الله عنهما– قال: قلّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهذه الدعوات لأصحابه: «**اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ومن طاعتك ما تُبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا**» (السلسلة الصحيحة)، وكذلك يحتاج العبد لليقين في دعائه لله عز وجل كما في الحديث: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة؛ فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل**» (الصحيحة).

– وأين يكون التفاوت بين الناس؟

– التفاوت يكون بما يستقر في القلب من اليقين، وحتى يتحصل العبد

على اليقين يجب أن يتحصل على العلم ويعمل بمقتضاه ويدعو الله عز وجل أن يرزقه اليقين، والله يعطي كل عبد ما يستحق من الخير؛ لأن الله يعلم ما في القلوب، والقلب هو محل نظر الرب.

كعلم العبد أن الله رب كل شيء ومليكه، ولا خالق غيره، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله والتوكل عليه وقد لا يصحبه العمل بذلك، إما لغفلة القلب عن هذا العلم، والغفلة هي ضد العلم التام، وإن لم تكن ضد أصل العلم، وإما للخواطر التي تسنح في القلب من الالتفات إلى الأسباب وإما لغير ذلك. فأهل اليقين إذا ابتُلوا ثبتوا، بخلاف غيرهم فإن الابتلاء قد يذهب إيمانه أو ينقصه.

وأما كيف يحصل اليقين فبثلاثة أشياء: أحدها: تدبر القرآن، والثاني: تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق التي تبين أنه الحق. والثالث: العمل بموجب العلم.

يقول ابن القيم: وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون وفي تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وهو مع المحبة ركنان للإيمان، وعليهما ينبني وبهما قوامه، وهما يمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية، وعنهما تصدر، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال، وبقوتهما تقوى الأعمال، وجميع منازل السائرين إنما تفتتح بالمحبة واليقين وهما يثمران كل عمل صالح، وعلم نافع، وهدى مستقيم. (من مدارج السالكين).

النية

نية المؤمن خير من عمله

صاحبي لا يحب ركوب الطائرة!! يسافر إلى مصر ولبنان وبلاد الشام، وبالطبع دول الخليج جميعها براً، رافقته في إحدى رحلاته إلى الأردن، بعد أن اشترطت عليه أن نمكث ثلاث ليال في مكان واحد، وكان معنا مرافقه الدائم (أيوب)، وكنيته (بوصالح).

- ما معنى قولهم: (نية المؤمن خير من عمله)؟

كان السائل صاحبي، بينما تولى أيوب المقود.

- **ابتداء**: النية عمل قلبي، والقاعدة أن (أعمال القلوب أعظم من أعمال الجوارح)، وكلنا يعرف حديث النبي ﷺ عن عمر رضي الله عنه: «**إنما الأعمال بالنيات**» (متفق عليه)، ومعنى هذا الحديث باختصار (لا عمل إلا بالنية).

وثانياً: يثاب العبد على النية وإن لم يعمل، ولكن لا يثاب على العمل دون نية، تَدخل (أيوب)، جميلة هذه العبارة، أعجبتني.

تابعت حديثي.

- وبيان ذلك: عن أنس أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة، فقال: «**إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم**»، وفي رواية: «**إلا شركوكم في الأجر، قالوا: يا رسول الله**

وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة حبسهم العذر» (البخاري)، وأيضاً الحديث الآخر، عن أبي كبشة الأنماري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثَلُ هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالاً وعلماً، فهو يعمل به في ماله فينفقه في حقّه، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً، فيقول لو كان لي مثل مال هذا، عملت فيه مثل الذي يعمل**»، قال: قال رسول الله ﷺ، «**فهما في الأجر سواء**»، «**ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً، فهو يخبط فيه ينفقه في غير حقه، ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو كان لي مال مثل هذا، عملت فيه مثل الذي يعمل**»، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فهما في الوزر سواء**» (صحيح ابن ماجه).

والثالثة: أن النية الصالحة لا يدخلها فساد؛ لأن أصلها محبة الله، يقول ابن تيمية: «قوة المؤمن في قلبه وضعفه في جسمه، وقوة المنافق في جسمه وضعفه في قلبه»، والناس في أعمال القلوب يتفاوتون أكثر من تفاوتهم في أعمال الجوارح، وهم على ثلاث درجات، ظالم لنفسه، ومقتصد وسابق بالخيرات، علّق صاحبي:

- نَعَم النية شأنها عظيم في دين الله، وفي أمثالنا الشعبية (النية.. مطية).

- النية مسألة ينبغي مراعاتها على الدوام، قبل العمل وفي أثناء العمل وبعد العمل، فإذا فسدت في أي مرحلة، إما أن تقلب الطاعة إلى معصية أو تبطل أجر العمل، ولبيان خطورتها نذكر حديث النبي ﷺ فيمن أفسد نيته قبل العمل، عن سليمان بن يسار قال: تفرق الناس عن ابي هريرة رضي

الله عنه، فقال له ناتل أخو أهل الشام: أيها الشيخ حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم سمعت رسول الله صلى الله يقول: «**إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت والقرآن فيقال هو قارئ. فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار**» (صحيح مسلم)، كان الصمت سيد الموقف وأنا أقرأ هذا الحديث، وأول ردة فعل من صاحبي كانت:

- أعوذ بالله من غضب الله، اللهم ارحمنا برحمتك الواسعة.

وأما من يغير نيته أثناء العمل، فورد فيه عن محمود بن لبيد قال: خرج النبي ﷺ فقال: «**أيها الناس إياكم وشِركُ السرائر، قالوا: وما شرك السرائر؟ قال: يقوم الرجل فيصلي فيزيّن صلاته جاهداً، لما يرى من نظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر**». (صحيح الترغيب والترهيب).

وأَمَّـا بعد العمل فمنه قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ (البقرة: ٢٦٤)، إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ (للبقرة: ٢٦٤).

﴿تُبۡطِلُواْ﴾ تذهبوا ثوابها، ﴿بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ بأن تمُنوا على من تصدقتهم

عليه أو تلحقوا به أذى أيَّ شيئاً يكرهه، وتتمة الآية: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ (البقرة). وقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ (الدهر)، عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ (الإنسان: ٩)، قال: «لم يقولوا حين أطعموهم لوجه الله، ولكن علمه الله من قلوبهم فأثنى عليهم ليرغب فيه راغب».

محبة النبي محمد ﷺ

من تمام محبة الله، محبة النبي ﷺ فإنه أحب الخلق إلى الله

– ما تقول في تلك القصائد التي تمدح النبي ﷺ ولاسيما في المجالس التي تعقد للاحتفال بميلاده؟

صاحبي من بلاد المغرب العربي، حريص على الصلاة، محب لكل ما هو من الدين، ينقصه الكثير من العلم الشرعي، مجتهد في عمله.

– لا شك أن حب النبي ﷺ واجب على كل مسلم، سواءٌ بأمر الله، أو بما لهذا النبي ﷺ من صفات وأخلاق، أو لما أداه، وسوف يؤديه لهذه الأمة يوم القيامة، كلها توجب حبَّ النبي ﷺ، حباً صادقاً خالصاً، وهذا لا يقتصر على الصحابة الذين عاشوا معه ﷺ بل على جميع الأمة إلي يوم القيامة؛ لأن مقتضيات محبته قائمة دوماً. ففي الحديث، يقول ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين**» (البخاري).

– وكيف ينال العبد هذا الشعور بصدق؟ لأني صراحة أحب النبي ﷺ ولكن لا أشعر أنه أحب إلي من كل شيء! هذا شعور نظري وليس واقعيّ.

عجبت من صدق صاحبي وصراحته.

– محبة النبي ﷺ يجب أن ينمّيها العبد في قلبه، وذلك بخطوات، أولاً: أن يعلم يقيناً أن هذه المحبة واجبة، فيسعى إلى تحصيلها، وذلك بأمور عدة، أولا: يتعرف على حياة النبي ﷺ وسيرته، ولاسيما بعد أن

بعث رسولاً لهذه الأمة، ويحرص على هذا العلم كلما سنحت له فرصة، فيقرأ ويستمع ويتابع سيرته ﷺ .

- **ثانياً**: يعرف مكانة النبي ﷺ عند الله عز وجل وكيف أن الله اصطفاه، ورباه، وشرفه، وأكرمه، وفضله على باقي الأنبياء والرسل، ورفع ذكره، وجعل له مكانة في الآخرة وهي (الوسيلة) وليست لأحد غيره، كما في الحديث، عن عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال رسول الله ﷺ: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي؛ فإنه من صلَّى علي صلاة صلَّى الله عليه عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو؛ فمن سأل لي الوسيلة، حلت عليه الشفاعة**» (مسلم).

- **ثالثا**: يتعلم مدى حرص النبي ﷺ على هذه الأمة وحبه لها، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة). وقال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ (الكهف). وقال ﷺ في وصف حاله مع هذه الأمة، عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنه -: «**مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا؛ فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي**» (صحيح مسلم).

وهو ﷺ أشد حرصاً على هذه الأمة يوم القيامة، حتى أصحاب الكبائر ومن دخل النار من هذه الأمة يشفع لهم النبي ﷺ، كما في الحديث:

«أَخِرّ له ساجداً، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقول: إنطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة – أو خردلة – من إيمان فأَخرجه، فأنطلق، فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخِرّ له ساجداً، فيَقول: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان، فأخرجْه من النار، فأنطلق فأفعل ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد، ثم أخِرَّ له ساجداً، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي، وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله». (متفق عليه).

كان صاحبي منصتاً طوال الحديث، قاطعني:

– وهل تعتقد أنه يمكن أن نرى النبي ﷺ في الآخرة، وأن نتحدث إليه ونجالسه؟

– هل اشتقت لرؤية رسول الله ﷺ؟

– صدقاً، نعم، وتخطر لي هذه الخاطرة أحياناً، فأبتسم خفية.

– ولم لا؟ إليك بعض البشارات، التي نرجو أن ننال شيئاً منها:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة، فقال: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وَدَدت أنّا قد رأينا إخواننا!**

قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد؛ فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ فقال: أرأيت لو أن رجلا له خيل غُر محجلة بين ظهري خيل دُهم بُهم، ألا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فإنهم يأتون غُرّاً محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض» (صحيح مسلم).

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**من أشد أمتي لي حُبّاً، ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله**» (صحيح مسلم).

وعن أنس – رضي الله عنه –: «أن رجلا سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: «**وماذا أعددت لها**»؟ قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ، فقال: «**أنت مع من أحببت**»، قال أنس: فما فرحنا بشيء، فرحنا بقول النبي ﷺ: «**أنت مع من أحببت**»! قال أنس: «فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر، وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم» (متفق عليه).

– وهل تريد أن أقدم لك نصيحة محب؟

– دائماً.

– أكثِرْ من الصلاة على النبي ﷺ، حتى لو جعلتها أكثر ذكرك، واحرص على اتباع سنته، وادعُ الله صادقاً أن يرزقك حب النبي ﷺ، أما الأدلة على ذلك، باختصار: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٣١﴾ ﴾ (آل عمران).

عن أُبيّ بن كعب قال: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: «**ما شئت**» قلت: الربع؟ قال: «**ما شئت فإن زدت فهو خير لك**»، قلت: النصف؟ قال: «**ما شئت فإن زدت فهو خير لك**» قلت: فالثلثين؟ قال: «**ما شئت فإن زدت فهو خير لك**» قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «**إذن تُكفى همك ويُغفر لك ذنبك**»، (صحيح الترمذي).
وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من نسي الصلاة علي خَطِئ طريق الجنة**» (صحيح الترغيب) (نسي: ترك).

وعن ابن مسعودٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة**». حسن لغيره (الألباني). وليس من وسائل محبة النبي ﷺ الاحتفال بمولده أو السفر لزيارة قبره والدعاء عنده، أو اطراؤه ومدحه بما لم يأمر به ﷺ، وإنما الحب، باتباع سنته وتعظيم حديثه وتوقير هديه ونشر دعوته الصحيحة والتخلق بأخلاقه، والحمدلله رب العالمين.

تعظيم حرمات الله!

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ (الحج: ٣٥)

إجتمعت والعائلة كالمعتاد مساء الخميس.. وكنت في رحلة قصيرة إلى أرض الكنانة.. سألني شقيقي (محمد)..

- ماذا أحضرت لنا من «الحسين»؟

قالها مازحاً.. فانتهزت الفرصة لأطرح فكرة أجتهد أن أكررها في هذه المجالس..

- لم أذهب إلى «الحسين» هذه المرة.. ولكن في المرة السابقة.. ذهبت ورأيت ازدحام البشر في المقاهي والأسواق الشعبية، هذا يبيع، وذاك يدندن، وثالث يتسول، ورابع يدعو المارة إلى مطعمه..

- هذا المكان من الأماكن التي ينبغي تعظيمُها.. كما في المشاهد والأضرحة التي فيها الصالحون من الأئمة والسادة والمشايخ.

هكذا بدأ (محمد) الحديث يريد أن يثيرني.

- إن تعظيم الأماكن والأزمنة والأشخاص والأعمال لا يملكه إلا الله.. لأن الله نسب ذلك إلى ذاته فقال عز وجل: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ (الحج: ٣٠)، وقال سبحانه في نفس السورة ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ (الحج)، فعلى العبد أن يعظم (حرمات الله).. و(شعائر الله).. وهذه وتلك نسبها الله إلى ذاته الجليلة فهو سبحانه الذي يحددها ويبينها.. لأن هذا التعظيم من أعمال القلوب وينعكس على الجوارح.

فمن تعظيم حرمات الله في الأشخاص.. حفظُ مكانة النبي ﷺ وتوقير شخصه.. واتباع تعاليمه.. وكذلك حفظ مكانة آل بيته ومعرفة قدرهم وتعظيم مكانتهم.. وكذلك تعظيم زوجات النبي ﷺ أمهات المؤمنين ومعرفة منزلتهن والذود عنهن.. وحفظ مكانة الصحابة جميعاً وخاصة المبشرين بالجنة منهم.. والذب عنهم.. ومن تعظيم الأزمنة تعظيم الأشهر الحرم.. (ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ورجب).. وطاعة الله فيهن ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ (التوبة: ٣٦).. وتعظيم شهر رمضان وخاصة ليلة القدر والانتهاء عن الذنوب والمعاصي فيه والاستزادة من القربات.. وكذلك أيام الحج وخاصة يوم عرفة..

وتعظيم يوم الجمعة وخاصة صلاة الجمعة.. ومن تعظيم الأماكن تعظيم المسجد الحرام.. والانتهاء عن نية المعصية فيه.. ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ (الحج).. وكذلك مسجد النبي ﷺ.. والمسجد الأقصى.. ومن تعظيم الأماكن ألا يُسمَّى أي مكان (حرم) إلا ما سماه الله عز وجل.. وهذا البيت الحرام في مكة.. ومسجد النبي ﷺ في المدينة والمسجد الأقصى.. فقط.. أما إطلاق وصف (حرم) على المشاهد والأضرحة فهو من التعدي في دين الله عز وجل..

كان الحضور منصتاً.. مع أن كلامي لا يتفق وعقيدة بعضهم..

علق أخي الأكبر (أبو زكريا)...

– دعونا لا نخوض في الأمور الخلافية.. ولنستفد من هذا الموضوع في ما نتفق عليه..

- لك ذلك يا (أبا زكريا)..

- ومن تعظيم حرمات الله.. ألا يستصغر العبد ذنباً ويرتكبه ويستمر عليه ويقول هذا من (الصغائر).. فقد نهى النبي ﷺ عن ذلك.

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يأخذ بها صاحبها تهلكه**». (السلسلة الصحيحة)

وقال ﷺ: «**يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً**» (صحيح ابن ماجه).

ومعنى تعظيم شعائر الله: أن المرء يعظم حرمات ربه فلا ينتهكها، ويعظم أوامر الله فيأتي بها على وجهها، ويقدم طيب الأشياء في الزكاة والصدقات والأضحية والهدي.

وتعظيم حرمات الله ناشئٌ عن تعظيم الآمر الناهي، فإن الله تعالى ذمّ من لا يعظم أمره ونهيه، قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ (نوح)، قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة.

وأما علامات تعظيم المناهي، فالحرص على التباعد من مظانّها وأسبابها وما يدعو إليها ومجانبة كل وسيلة تقرب منها.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي أن لا يحمل الأمر على علة تضعف

الانقياد والتسليم لأمر الله عز وجل، بل يسلم لأمر الله تعالى وحكمه ممتثلاً ما أمر به سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر.

ومن أسباب تعظيم حرمات الله الرغبة في الثواب والخوف من العقاب.

وذكر سبحانه عباده الذين هم خواص خلقه وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم، ففي الصحيح حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم قال: فيحُفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم -وهو أعلم منهم- ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون: يسبحونك ويكبرونك، ويحمدونك ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: وكيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً وتحميداً، وأكثر لك تسبيحاً، قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة، قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة، قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم**». (البخاري)

الحب والبغض في الله

«أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»

- إتخذ إمامنا لوحة بيضاء متوسطة الحجم، علقها على الحائط الأيمن من مدخل حرم المسجد، يكتب عليها حديثاً صحيحاً كل أسبوع، ذهبت لصلاة المغرب قبل موعدها بنصف ساعة، وجدته يكتب الحديث أعلاه، وذيله بعبارة (السلسلة الصحيحة).

وتمامه، عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر: أيُّ عرى الإيمان أوثق؟ قال أبو ذر: الله ورسوله أعلم، فقال ﷺ: الحديث، سألته:

- أظن أنه من الأفضل أن تكتب شيئاً عن معنى ألفاظ الحديث.

- لقد خطر على بالي وربما يكون من الأفضل كتابة مختصر المعنى.

بحث صاحبي عن شرح الحديث لكتابة شيء مختصر، أخذ يقرأ من (فيض القدير)، (أوثق) أقوى وأثبت وأحكم. (عُرى) جمع عروة، استعير لما يتمسك به من أمر الدين (في الله) فيما يرضي الله موالاة وتركاً. وعند الطبراني عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سأل الصحابة: **«أتدرون أيُّ عُرى الإيمان أوثق؟ قلنا: الصلاة، قال: الصلاة حسنةٌ وليست بذلك، قلنا: الصيام؟ قال: الصيام حسنٌ وليس بذلك، قلنا: الجهاد في سبيل الله، قال: الجهاد حسن وليس بذلك، فقال: أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»** (حسن بشواهده).

- شرح جميل، وعمل عظيم من أعمال القلب، ينفع العبدَ يوم القيامة.

- نعم، الأحاديث في بيان عظم هذا العمل القلبي كثيرة.

عن معاذ بن جبل: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا، واعلموا أن لله عز وجل عباداً ليسوا بأنبياء، ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله، فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس، وألوى بيده إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم، وقربهم من الله، إنعتهم لنا جلِّهم لنا -يعني صفهم لنا، فسُرَّ وجه النبي ﷺ بسؤال الأعرابي، فقال رسول الله ﷺ: **«هم ناس من أفناء الناس، ونوازع القبائل لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابُّوا في الله وتصافوا، يضع الله يوم القيامة منابر من نور فيجلسون عليها، فيجعل وجوههم نوراً، وثيابهم نوراً، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون»** (صحيح الترغيب والترهيب). وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»**، رواه مسلم.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه -: قال: قال رسول الله ﷺ: **«زار رجلٌ أخاً له في قرية، فأرصد الله له ملكاً على مدرجته (طريقه)، فقال: أين تريد؟ قال: أخاً لي في هذه القرية، فقال: هل له عليه من نعمة تَربُّها؟ قال: لا إلا أني أحبه في الله، قال: فإني رسول الله إليك أن الله أحبك كما أحببته»** (صحيح مسلم).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**». (صحيح مسلم).

دخل المؤذن، شارَكَنا الحوار، بعد أن تأكد من موعد الأذان.

- لدي زميل في العمل يشتكي من سوء أخلاق المتدينين، يقول في التجارة يتلاعبون، وفي المواقف يتلونون، وفي المعاملات يتبعون مصالحهم، وإذا أقيمت الصلاة ركضوا إلى المصليات.

- ابتداءً، لا يمكن التعميم، من المصلين من يلتزم شرع الله بطريقة صحيحة، ومنهم من فيه من العيوب، وكذلك من غير المصلين، فلا يمكن التعميم، والعبد الصالح يلتزم شرع الله كاملاً في العقيدة والمعاملة والعبادة، ومن لم يفعل ذلك ظلم نفسه، وليس ذلك بسبب عيب في دين الله، ومن هذا الأصل فإن العبد قد يُجمع فيه حبٌّ وبغضٌ، يُحَب في المرء إلتزامه بالصلاة وحرصه على الجماعة وصلاة الفجر، ويُبغض فيه كثرة كذبِه في المزاح، وإخلافه لعهوده، وعدم إلتزامه بديونه، فربما غلب بغضُه حبه، ولكن كلاهما موجود.

يقول العلماء في هذا الباب: وهذا أصل من أصول الإيمان، وأصل عظيم، الحب في الله والبغض في الله، وهو أن تحب ما يحب اللهُ من شخص؛ فتحب هذا الشخص؛ لأنه مستقيم على طاعة الله؛ لأنه يؤدي فرائض الله، ولو كان بعيداً، ولو كان أعجمياً، ولو كان في المشرق وأنت في المغرب، وتبغض من كان مستروِحاً للمعاصي والكبائر والآثام ، والشرك،

ولو كان قريباً لأمك وأبيك، فهذا من الأصول العظيمة التي أميتت في هذا الزمن، وإذا اجتمع في الرجل الواحد خيرٌ وشرٌ، وطاعةٌ ومعصيةٌ وسنةٌ وبدعةٌ استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجِبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وذاك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: «من أحب إنسانًا لكونه يعطيه، فما أحب إلا العطاء، ومن قال: إنه يحب من يعطيه الله، فهذا كذِبٌ، ومحال، وزور من القول، وكذلك من أحب إنسانًا لكونه ينصره، إنما أحب النصر لا الناصر، وهذا كله من اتباع ما تهوى الأنفس، فإنه لم يحب في الحقيقة إلا ما يصل إليه من جلب منفعة أو دفع مضرة، فهو إنما أحب تلك المنفعة ودفع المضرة، وليس هذا حبًا لله ولا لذات المحبوب، وعلى هذا تجري عامة محبة الخلق بعضهم مع بعض، لا يثابون عليه في الآخرة ولا ينفعهم، بل ربما أدى هذا للنفاق والمداهنة؛ فكانوا في الآخرة من ﴿**الأخلاء الذين بعضهم لبعض عدو إلا المتقين**﴾، وإنما ينفعهم في الآخرة الحب في الله وحده، وأما من يرجو النفع والضر من شخص، ثم يزعم أنه يحبه لله، فهذا من دسائس النفوس ونفاق الأقوال» (الزهد والورع ج ١-٤٥).

الإفتقار إلى الله

أقرب السبل إلى الله، كمال الافتقار إليه – سبحانه!

منذ وفاة والدتي ليلة الثلاثاء، الثاني عشر من الشهر الثاني عشر من العام ٢٠٢٢ للميلاد، وأنا أتردد على المقبرة مرتين في الأسبوع، ومن فضل الله علي أني توليت صلاة الجنازة عليها،، ولحدها، وتمام الدفن، ثم الدعاء، واجتهدت أن تكون وفق سنة النبي ﷺ .

أديت صلاة الجمعة الماضية في المسجد المجاور للمقبرة، وكانت الخطبة مؤثرة، موضوعها (الافتقار إلى الله)، أدينا صلاة الجنازة على خمسة من الأموات، ثلاث نساء، ورجل، وطفل، بعد أن انتهينا من الدفن وفي طريق عودتي إلى مركبتي، قال صاحبي:

– كانت الخطبة اليوم مؤثرة ولاسيما الحديث القدسي، عن أبي ذر قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي أنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم..**» (صحيح مسلم).

– نعم هذا حديثٌ عظيم، وفيه بيان تمام افتقار الخلق جميعاً لله عز وجل في أبسط حاجاتهم، فضلاً عن أعظم الحاجات، وهي الهداية؛ ولذلك في نهاية الحديث يقول الله تعالى: «**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك لا يلومَنَّ إلا نفسه**».

– الإفتقار إلى الله، هل هذا مثل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ (فاطر).

– نعم، الكلّ فقير إلى الله، سواءً: الغني، والملك، والقوي، والعظيم، والمعافى، والشاب، والمؤمن، والكافر، ولكن الغافل، لا يُظهر الافتقار إلي الله ولا يتذكره إلا في الشدة، والضيق، أما المؤمن فإنه يظهر الإفتقار إلي الله، في كل حين، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ (الزمر:٨).

توقفنا عند براد المياه، أخذنا حاجتنا، تابعنا المسير.

– نعم إنها قضية ينبغي الإنتباه إليها، وعدم الغفلة عنها.

– من إلتزم السنة، وفَّقَهُ الله إليها، ففي الحديث: عن معاذ بن أنس، عن رسول الله ﷺ قال: «**من أكل طعاماً ثم قال: الحمدلله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن لبس ثوباً فقال: الحمدلله الذي كساني هذا الثوب ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه**» (صحيح أبي داوود).

وفي الحديث أيضاً عن حذيفه بن اليمان قال: كان النبي ﷺ إذا أراد أن ينام قال: «**باسمك اللهم نموت ونحيا، وإذا استيقظ من منامه قال: الحمدلله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**» البخاري.

فإذا تذكر العبد أنه فقير إلى الله عندما يأكل طعامه ويلبس ثيابه

ويستيقظ من نومه، فإنه يمارس هذا العمل القلبي دائماً، بل هناك تذكير أكبر من هذا، وهو قولنا في كل ركعة من صلواتنا، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾، وهذا يحدث أكثر من سبعَ عشرة مرة كل يوم.

فالعبد يفتقر إلى الله في الثبات على الدين، ويفتقر إليه في الطعام والشراب والثياب والنوم واليقظة، ومن كان هذا ديدنه، لا شك أن الله يغنيه!

بلغنا مواقف المركبات، قلت لصاحبي:

- إبحث لنا في مكتبة هاتفك عن أقوال ابن القيم في الافتقار إلي الله.

- لك ذلك.

دقائق وكان صاحبي يقرأ لنا، في طريق عودتنا.

قال ابن القيم: الفقر الحقيقي: دوام الإفتقار إلى الله في كل حال، وأن يشهد العبد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقةً تامةً إلى الله تعالى من كل وجه. ومن الافتقار إلى الله عز وجل أيضا الافتقار إليه في التوفيق إلى الأعمال الصالحة، وهو الافتقار إليه في أمر الهداية وعدم حصول العُجب؛ فالعبد المؤمن مفتقر إلى الله تعالى في عبادته ويعرف أن منازله التي يحصلها والعبادات التي يُوفق لها هي محض توفيقه عز وجل ومنّة منه تعالى فيفتقر إلى الله في الهداية؛ لذلك يقول وهو يقرأ فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ (الفاتحة)،

فهو يشهد نعمة الله عليه وعلى غيره، ويسأله الهداية ليل نهار، ويعلم أن التوفيق من عند الله تعالى، وأنه لا يثبت على الخير بنفسه، بل يثبته الله عز وجل مقلبُ القلوب ومصرفُ القلوب سبحانه وتعالى، فهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً في أمر الدين كما لم يملكه في أمر الدنيا، فيزول من قلبه إعجاب النفس، فالمؤمن يشهد فقره إلى الله تعالى إلها معبوداً، وأن الله عز وجل هو الذي سبق فضله إليه كل شيء.

فما كان به من خير فمن الله، فهو لم يتغير حاله إلى الطاعة وإلى الإيمان وإلى الحب وإلى الخوف وإلى الرجاء، وإلى التوكل وإلى الافتقار وإلى الصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة بنفسه، ولم يُوفق إلى ذلك بنفسه إلا أن هداه الله، والمفتقر إلى الله يكون قريباً من الله سبحانه وتعالى في كل عباداته وأعماله، وأن الأسباب هي مجرد أسبابٌ يسَّرها الله عز وجل بما فيها الأعمال الصالحة، كما في الصحيحين أن أبا هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «**لن يُدخل أحداً عملُه الجنة**» وفي رواية «**لن ينجيَ أحداً منكم عملُه**». قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة؛ فسددوا وقاربوا**»، فهذا مقام الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى في كل شيء؛ حيث يرى الأسباب كلها ويرى نفسه ضعيفة، لا تؤثر شيئاً إلا أن يجعلها الله كذلك، فيحقق حقيقة: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، وفقر العباد إلى ربهم نوعان: الأول: فقرٌ إلى ربوبيته، وهو فقر المخلوقات بأسرها إلى خالقها، فهي مفتقرة إلى ربها في خلقها وبقائها وحفظها ونفعها وضرها ورزقها وتدبيرها. الثاني: فقرٌ إلى ألوهيته

سبحانه، وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، وهذا هو الفقر النافع، ولُبُّه دوام الإفتقار إلى الله في كل حال.

الإفتقار إلى الله من أَجَلّ مراتب المحبين، وأرفع منازل المنيبين، وأزلف حالات التائبين، وأعظم آلات الأوّابين، وأجلّ مقامات التائبين، وأعلى وسائل المقربين، وهو أصل العبودية، وصدر الإخلاص، ورأس التقوى، ومُخّ الصدق، وأساس الهدى؛ فينبغي للعبد أن يكون مفتقراً إلى الله تعالى دون انقطاع البتة.

- كلام جميل، ويمكن ممارسة هذه العبادة القلبية العظيمة فضلاً عما ذكرناه بكثرة الإلحاح والسؤال لله عز وجل ولاسيما في السجود عند الصلاة فإن العبد يكون في أذل هيئة بدنية؛ فينبغي أن يكون في أفقر حالة قلبية بين يدي رب العزة -سبحانه.

حُسْنُ الظن بالله

«لا يموتن أحدُكُم إلا وهو يحسُن الظَّنَّ بالله»

كنت وصاحبي في طريقنا إلى المقبرة، لنصلي العصر في المسجد الجديد المجاور للمقبرة، ثم نصلي على موتى المسلمين الذين سيدفنون هذا اليوم.

وهذه عادة تعاهدنا أن نفعلها مرة كل شهر منذ سنوات ربما تجاوزت السبع!

- حديث النبي ﷺ: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**»، ورد في صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنه -، هل هذا في سكرات الموت أم على العموم؟

- إنَّ حسنَ الظن بالله، عبادة قلبية عظيمة ينبغي أن تكون ملازمة للمؤمن دوماً، وذلك أن حسن الظن بالله هو الإيمان بما يليق بالله عز وجل واعتقاد ما تقتضيه أسماؤه الحسنى وصفاته العلا، وصيغة الحديث تشبه قول الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢**﴾ (آل عمران).

والحديث قاله النبي ﷺ قبل وفاته بثلاثة أيام، أما حال حياته، فَيُحسن العبدُ الظنَّ بالله، بأنه سيغفر له إذا استغفر وتاب، وسيفرج همه إذا اتقاه، وسيستجيب لدعوته إذا دعاه، وسينصره إذا استغاث به، وسيوفقه إذا استخاره، وسيكفيه إذا توكل عليه، وسيحفظه إذا حفظ أمره، وسيعينه إذا استعان به، وهكذا. وفي لحظات الموت، يحسن الظنَّ

بالله، بأنه قِبلَ أعماله الصالحة سوف يلقى الثوابَ الحسن على طاعته وسيتجاوز عن سيئاته.

وكان السلف يدعون الله أن يرزقهم حسن الظن به، كما ورد عن سعيد بن جبير أنه كان يقول: «اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك». وكان عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - يقول: «والذي لا إله غيره ما أُعطي عبدٌ مؤمنٌ شيئاً خيراً من حسن الظن بالله عز وجل، والذي لا إله غيره لا يحسن عبدٌ بالله عز وجل الظن إلا أعطاه عز وجل ظَنَّه».

رُفع أذان العصر في المذياع، وكان أَمَامَنا -بحسب الخريطة- (سبع عشرة دقيقة) للوصول إلى مسجد المقبرة، ونعلم أن صلاة العصر لا تقام إلا بعد نصف ساعة، تابعنا حوارنا:

- إن حسن الظن بالله، يدفع العبدَ للعمل الصالح، هذا هو الفهم الصحيح لحسن الظنّ بالله، لا ذلك الفهم الذي يزعم صاحبه أن الله سيغفر له، وهو مقيم على المعاصي! مَنْ أحسنَ الظن بالله، أحسنَ العمل، وذلك أن العبد يعلم أن الله يحب العمل الصالح ويثيب عليه، فيجتهد في الطاعات ويعلم أنها تسجل له، وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، بل يَقبلُ العمل ويضاعف الأجر عليه، وذمّ الله عز وجل المشركين ووصفهم بأنهم يظنون بالله ظن السَّوْء، قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ (الفتح).

ووصف المنافقين فقال عز وجل: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ

يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

«وظنهم السوء بالله، أن الله عز وجل لا ينصر رسولَه، وعموم لفظ الآية، يشمل ظنونهم الفاسدة من الشرك وغيره» (روح المعاني).

– دعنا نبحث عن أقوال ابن القيم عن حسن الظن بالله.

– لك ذلك، لحظات وانتهى بحثنا في كتب ابن القيم، اسمع من أقوال الشيخ –رحمه الله–:

– دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال: أخبرني كيف ظنك بالله، قال: أغرقتني ذنوبٌ لي، وأشرفت على هلكة، ولكني أرجو رحمة ربي، فكبَّر واثلة وكبَّر أهل البيت بتكبيره وقال: الله أكبر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي**» (متفق عليه).

ودخل النبي ﷺ على شاب وهو يحتضر فقال: «**كيف تجدك قال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال** ﷺ: **ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو وأمَّنه من الذي يخاف**» (صحيح الترمذي).

وقال عبدالله بن عباس –رضي الله عنهما–: إذا رأيتم الرجل قد نزل به الموت فبشروه حتى يلقى ربه وهو يحسن الظن بالله –تعالى.

قال سفيان الثوري – رضي الله عنه –: من أذنب ذنباً، فاستغفر الله تعالى ورجا غفرانه غفر الله عز وجل له ذنبه قال: لأن الله تعالى ذمَّ قوماً فقال: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (فصلت)،

وقال سبحانه وتعالى في مثله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ (الفتح) أي (هَلكى)، ففي دليل خطابه عز وجل أن من ظَنَّ حُسناً كان من أهل النجاة على قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه؛ ولذلك فسّر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله. والتحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه؛ إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه. والعارف بربه حَسَن الظن به، لا يتهمه فيما يُجريه عليه من أقضيته وأقداره؛ فحُسن ظنه به يوجب له استواء الحالات عنده، ورضاه بما يختاره له ربه -سبحانه- والراجي ليس معارضاً ولا معترضاً، بل راغباً راهباً مؤمّلاً لفضل ربه.

حَسَنُ الظن به متعلقُ الأمل بِبّره وجودِه، عابداً له بأسمائه: المحسن، البَر، الحليم، الغفور، الوهاب، الرزاق، والله سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يرجوه؛ ولذلك كان عند رجاء العبد له وظنه به.

ولما احتضر سليمان التيمي قال لابنه: يا بني، حدثني بالرُّخَص، واذكر لي الرجاء حتى ألقى الله تعالى على حُسن الظن به. وكذلك لما حَضَر سفيانَ الثوري - رضي الله عنه - عنه الوفاة جعل العلماء حوله يُرجَوُنه، وعن أحمد بن حنبل أنه قال لابنه عند الموت: اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن.

وروى عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أنه قال: «عمود الدين وغاية مجده وذروة سنامه: حسن الظن بالله؛ فمن مات منكم وهو يحسن الظن بالله، دخل الجنة مدلا (أي: منبسطاً لا خوف عليه)».

الحياء من الله

﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾ (العلق)

يَصِف النبيُّ حالَ العبدِ إذا تلبّس بالمعصية، يقول ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه أبصارهم وهو مؤمن**» (متفق عليه). فحال تلبسه بالمعصية ينزع ثوب الإيمان ويغيب عنه نظرُ الله إليه، فيقع في معصية ربه، مستخدماً نِعَم ربه وتحت نظر ربه!

– إن مسألة (الحياء من الله)، تلامس القلوب مباشرة دون أن تمر على العقل أو الفكر، فتنحني الرؤوس، وتنكسر الأبصار، وتَتَلَّون الوجوه، إذا حقق العبد (الحياء من الله)، وإن كان من أصحاب الطاعات.

– ماذا تقصد بالعبارة الأخيرة؟

كنت وصاحبي نقرأ جزءاً من (مدارج السالكين) للإمام ابن القيم.

– دعني أضرب لك مثلاً –ولله المثل الأعلى– ماذا يكون موقفك من خادمك الذي أكرمته وألبسته وأسكنته وأطعمته، أفضل مما يستطيع أن يفعل لنفسه، حين تراه مقصراً فيما طلبت منه؟ وأشد من ذلك إذا رأيته يستغل نعمتك عليه، فينتهك بها حرماتك؟!

– أول عبارة ستقولها له: «ألا تستحيي؟».

– الله سبحانه أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، ما نحتاج وما لا نحتاج:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل: ٢٣). ونحن نستعمل عافيتنا وأموالنا ووقتنا -وكلها نِعم من الله- في معصية ربنا، وتحت نظر ربنا عز وجل، وحتى إن لم نكن نعصيه، نقصر في عبادته، فلا نصلي كما يجب، ولا نصوم كما يرضى، ولا نتعامل كما أمرنا، ولا نقرأ كتابه كما يُحب، وهكذا.

إنه ذلك الشعور (بالتقصير تجاه الله تعالى، مع استحضار نِعم الله). يقول الجنيد: «الحياء من الله يتولد من مشاهدة النعم ورؤية التقصير». ويقول ابن عطاء: «ما نجا من نجا إلا بتحقيق الحياء من الله».

إنضم إلينا مؤذننا (أبو صالح)، عُيّن في مسجدنا منذ شهر تقريباً يمتعنا بأذانه؛ لأنه يذكرك بأذان المسجد الحرام في مكة.

- دعني أقرأ لك شيئا من كتابنا. وقد قُسم الحياء على عشرة أوجه: حياء جناية، وحياء تقصير، وحياء إجلال، وحياء كرم، وحياء حشمة، وحياء استصغار للنفس واحتقار لها، وحياء محبة، وحياء عبودية، وحياء شرف وعزة، وحياء المستحيي من نفسه.

فأما حياء الجناية: فمنه حياء آدم عليه السلام لما فَرَّ هاربا في الجنة قال الله تعالى: أفِراراً مني يا آدم؟ قال: لا يا رب بل حياء منك.

وحياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك.

وحياء الإجلال: هو حياء المعرفة، وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

وحياء الكرم: كحياء النبي ﷺ حين دعا القوم إلى وليمة زينب، وطوّلوا الجلوس عنده؛ فقام واستحيا أن يقول لهم: انصرفوا.

وحياء الحشمة: كحياء علي بن طالب - رضي الله عنه - أن يسأل رسول الله عن المذي لمكان ابنته منه.

وحياء الاستحقار واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه -عز و جل- يسأله حوائجه احتقار الشأن نفسه واستصغاراً لها، وفي أثر إسرائيلي أن موسى عليه السلام قال: يا رب إنه لتعرض لى الحاجة من الدنيا فأستحيي أن أسألك؛ فقال الله تعالى: سلنى حتى ملح عجينتك وعلف شاتك. وقد يكون لهذا النوع سببان أحدهما: استحقار السائل نفسه واستعظام ذنوبه وخطاياه، والثاني: استعظام مسؤوله.

وأما حياء المحبة: فهو حياء المحب من محبوبه حتى، أنه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحس به في وجهه، ولا يدرى ما سببه؟.

وأما حياء العبودية: فهو حياء ممتزج من محبة وخوف ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجلّ منها؛ فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

وأما حياء الشرف والعزة: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من: بذل أو عطاء وإحسان؛ فإنه يستحيي مع بذله حياء شرف نفس وعزة.

وأما حياء المرء من نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون، فيجد نفسه مستحياً من نفسه حتى كأن له نفسين يستحيي بإحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء؛ فإن العبد إذا استحيا من نفسه فهو بأن يستحيي من غيره أجدر.

- هذا تفصيل دقيق جميل للحياء، ولاسيما الجزء الأخير (حياء المرء من نفسه).

- نعم، يحتاج المرء أن يُذكّر نفسه بهذا العمل القلبي الجليل، وألا يفارقه أبداً، وإن غفل عنه أحياناً، يرجع ويذكر نفسه، ليستحيي من الله، ويتذكر ألا يكون حيث نهاه الله، ولا يغيب حيث أمره الله.

- وإليك هذا الحديث.

- عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«استحيوا من الله حق الحياء، قال: قلنا: يا نبي الله، إنا لنستحيي والحمدلله، قال: ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء، أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»** (حسن لغيره -الألباني).

الأُنس بالله

من كان قريباً من الله أَنِسَ به

- يغمرني أحياناً شعور بأني أريد أن أكون وحدي بعيداً عن البشر وعن العمران، في الصحراء، أو في البحر، أذكر الله، (سبحان الله والحمدلله ولا إله إلا الله والله أكبر)، وأمجّده (لا إله إلا الله وحده لا شريك له)، وأثنى عليه: (الحمدلله ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد - الحمدلله كثيراً - الحمدلله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه)، أشعر براحة قلبية، في هذه الأحوال، ولاسيما عندما تكون الشوارع مزدحمة والأسواق مكتظة.

- يحتاج المرء بين فترة وأخرى أن يختلي بنفسه، ليعبد الله، فيذهب إلى العمرة منفرداً، أو يقيم الليل بعيداً عن الناس ويأنس بالتقرب إلى الله.

كنت وصاحبي في طريق عودتنا من زيارة أخ لنا في المشفى عدناه بعد صلاة العشاء، بناء على رغبته.

- الأُنس بالله، من أعمال القلوب، يجد فيه العبد حلاوة الإيمان، وحلاوة مناجاة الله، وحلاوة الذكر والدعاء، والتضرع، كل شيء يصدر من القلب، ولعل هذا الشعور، هو الذي يبث الراحة في القلب، فيستشعر العبد قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ٦١﴾ (هود)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦﴾ (البقرة)، وقوله

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ (النمل)، معية تأييد وأنس وقبول.

– نعم، هذا العمل من أعمال القلوب، يبلغه العبد بعد منازلِ أخرى من الثقة، والطمأنينة، والتوكل، والتفويض، فيستحضر العبدُ لطف الله، وإحسانه، مع تقصيره في حق ربه، فيتضرع ويناجي، ويلقي أثقال الدنيا، ويفرغ قلبه من هموم الحياة، ويملأه بذكر الله، والخوف من الله، وحب الله، والرغبة بما عند الله، والزهد في الدنيا، فينال من الأنس والأمان والطمأنينة ما لا يتحصله بأموال الدنيا كلها.

أخذ صاحبي هاتفه.

– دعنى أبحث لك عن الأنس بالله من أقوال العلماء، في أقل من دقيقة، ظهرت نتائج البحث، وأخذ صاحبي يقرأ:

قال ابن القيم –رحمه الله تعالى: «ومن علامات صحة القلب: ألا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره، إلا بمن يدله عليه، ويذكره به، ويذاكره بهذا الأمر» (إغاثة اللهفان:ص٧٢).

الأُنس بالله تعالى حالة وجدانية تحمل على التنعم بعبادة الرحمن، والشوق إلى لقاء ذي الجلال والإكرام. قال أحد السلف: «مساكينٌ أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره وطاعته».

الأُنس بالله مقامٌ عظيم من مقامات الإحسان الذي قال عنه النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعليقاً على الحديث-: فهذان مقامان **أحدهما-**: الإخلاص، وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه واطلاعه عليه وقربه منه.

الثاني: أن يعمل العبد على مشاهدة الله بقلبه، وهو أن يتنور قلبه بنور الإيمان. ويتولد عن هذين المقامين: الأنس بالله، والخلوة لمناجاته وذكره، واستثقال ما يشغل عنه مخالطة الناس والاشتغال بهم؛ فمنزلة المراقبة إذا تحققت في العبد، حصل له الأنس بالله تعالى، ووجه ذلك أنه إذا حصلت المراقبة يحصل القرب من الرب سبحانه، والقرب منه -جلَّ وعلا- يوجب الأنس.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: «والقرب يوجب الأنس والهيبة والمحبة» (مدارج السالكين). ويقول كذلك -رحمه الله-: «وقوة الأنس وضعفه على حسب قوة القرب، فكلما كان القلب من ربه أقرب، كان أنسه به أقوى، وكلما كان منه أبعد، كانت الوحشة بينه وبين ربه أشد» (مدارج السالكين).

وقال -رحمه الله تعالى-: «هذا الأنس المذكور مبدؤه التعبد بأسماء الله الحسنى التي يحصل عنها الأنس ويتعلق بها، كإسم الجميل، والبَرُّ، واللطيف، والودود، والحليم، والرحيم، ونحوها» (مدارج السالكين). والعبد إذا ارتقى بالعلم النافع والعمل الصالح إلى مقام الإحسان، واستقرت قدمه فيه، أَنِس بالله تعالى والتذّ بطاعته وذكره.

قال العلامة السعدي -رحمه الله- مقرراً ذلك في منظومته، واصفا أهل السَّيْر إلى الله والدار الآخرة-:

عـبـدوا الإلــه عـلـى اعـتـقـاد حضوره

فـتــبــؤوا فـــي مــنــزل الإحـــســـان

وهذه المنزلة من أعظم المنازل وأجلّها، ولكنها تحتاج إلى تدرج للنفوس شيئاً فشيئاً، ولا يزال العبد يعوّدها نفسه حتى تنجذب إليها وتعتادها، فيعيش العبد قرير العين بربه، فرِحاً مسروراً بقربه».

ولذا فإن الأنس بالله تعالى ثمرة الطاعات والتقرب إلى رب الأرض والسماوات، كما قال ابن القيم -رحمه الله-: «فكل طائع مستأنس، وكل عاص مستوحش». (مدارج السالكين).

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى-: «إنما يقع الأُنس بتحقيق الطاعة؛ لأن المخالفة توجب الوحشة، والموافقة مبسطة المستأنسين! فيا لذة عيش المستأنسين، ويا خسارة المستوحشين!» (صيد الخاطر).

قيل للعابد الرباني وهيب بن الورد -رحمه الله-: «هل يجد طعم العبادة من يعصيه؟ قال: لا، ولا من يهم بالمعصية، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: «من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية».

إذا استغنى الناس بالدنيا، فاستغنِ أنتَ بالله، وإذا فرحوا بالدنيا، فافرح أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبائهم، فاجعل أنسك بالله.

الذُّلُّ لله - عزوجل

إعتاد إمامنا أن يكتب أسبوعياً وبالتحديد كل يوم سبت، حديثاً على اللوحة البيضاء المعلقة على الحائط الأيمن من حرم المسجد؛ لأن معظم المصلين يدخلون من هذه الجهة، دخلت وصاحبي؛ لفت نظرنا الحديث، عن ربيعة بن كعب الأسلمي - رضي الله عنه - قال: «كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي ﷺ: سل يا ربيعة! فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال ﷺ : أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك، قال ﷺ: «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**». (مسلم).

علّق صاحبي: حديث جميل، ويمكن أن نربطه بحديث النبي ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء**» (مسلم).

أَدَّينا سنة المغرب، والفرض، ثم السنة البعدية، أخذنا مجلِسَينا في الزاوية اليسرى من المسجد؛ حيث يمكننا انتظار الصلاة الأخرى في مجلس مريح. - لنرجع إلى حديثنا.

- حديث السجود؟

- نعم.

- يقول ابن القيم عن هيئة السجود: «هو مقام ذُلّ وانكسار بين يدي الله -عز وجل»؛ حيث يمرغ العبد أكرم ما فيه بالتراب. ويضع أعلى ما فيه (جبهته) على الأرض، تعبيراً عن صدق العبودية والتذلل، وتعال نتدبر أذكار السجود.

- «سبحان ربي الأعلى» (مسلم).

- «سبوح قدوسٌ رب الملائكة والروح» (مسلم).

- «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة» (صحيح أبي داود).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «والعبدُ كلما كان أذلّ لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له: كان أقرب إليه، وأعز له وأعظم لقدره، فأسعد الخلق: أعظمهم عبودية لله..» (الفتاوى ١/ ٣٩).

إنضم إلينا إمامنا بعد أن قضى حاجة أحد المصلين، وعادة ما يمكث في مجلسه حتى ينصرف الجميع، يجيب عن الأسئلة وطلبات المصلين عن المسجد والصلاة.

- كنا نتحدث أنا وأبو بدر عن الحديث الجديد الذي كتبته، ابتسم (أبو عمر) إمامنا.

- نعم، هذا من الأحاديث المحَببة إلى قلبي، والعبادات كلها فيها تذلل إلى الله، ولكن بعض العبادات يظهر فيها التذلل أكثر من غيرها وأكثرها الصلاة، من التكبير إلى التسليم، وحتى في الصلاة بعض أركانها فيها التذلل أكثر من غيره، وأكثرها السجود.

يقول ابن تيمية -رحمه الله-: «لفظ (السجود) يحمل غاية الذلّ والخضوع»، ولذلك يحرمُ أن يسجد أحدٌ لأحد وإن لم يكن قصده العبادة.

في الحديث، عن عبدالله بن أبي أوفى قال: «**لما قدم معاذ من الشام**

سَجَد بين يدي النبي ﷺ : فقال له ﷺ : ما هذا يا معاذ؟ قال أتيت من الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك، فقال ﷺ : فلا تفعلوا؛ فإني لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» (صحيح الترمذي).

- أحسنت يا (أبا عمر)، بعض النفوس فيها من التعالي على الخلق، والعُجب، وربما يكبر قدرُ النفس عند العبد، حتى يرى نفسه متمكناً من كل شيء، قادراً على كل شيء، فتدخل فيه الوسوسة التي دخلت نفس نمرود: ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ (البقرة: ٢٥٨)! والحالة الفرعونية: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ (النازعات)؛ فينبغي على العبد أن يكسر هذا الجبروت الشيطاني من بدايته، فيجلس إلى الضعفاء، ويأكل مع الفقراء، ويعمل مع الخدم! حتى لا يتملكه العُجب بنفسه وينسى أنه (عبد)، ويذكّر اللهُ عز وجل هذا الإنسان ببداية خلقه، ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾﴾ (المرسلات)، ماء مستقذر، يغتسِل منه ويزيل رائحته الكريهة! وكما قيل: «أوَّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة».

أخذ صاحبي يبحث في هاتفه كعادته، عن أقوال (ابن القيم) -رحمه الله -دعوني أقرأ لكم ما قال شيخنا: «فإن تمام العبودية هو: بتكميل مقام الذلِّ والانقياد، وأكمل الخلق عبودية: أكملهم ذُلاً لله، وانقياداً، وطاعة، والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذُّل، فهو ذليل لعزِه، وذليلٌ لقهرِه، وذليل لربوبيته فيه وتصرفه، وذليل لإحسانه إليه، وإنعامه عليه؛ فإن من أَحسنَ إليك فقد استعبدك، وصار قلبُك معبداً له، وذليلاً، تعبده

لحاجتك إليه على مدى الأنفاس، في جلب كل ما ينفع، ودفع كل ما يضر» (١/ ٢٨٩) (مفتاح دار السعادة).

- أراك لا ترتاح إلا أن تعرف ما قاله (ابن القيم)!

- أعتقد أنه هو المرجع في (أعمال القلوب)، ولا أزكي على الله أحداً؛ فإنه بشر، فقد يخطئ أحيانا.

استأذننا (أبو عمر)؛ ليجلس في مكتبه يراجع بعض شؤونه. تابعنا الحديث.

- يقول الله تعالى في وصف أيوب: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (الأنبياء). وقال سبحانه عن زكريا: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (الأنبياء).

وهؤلاء من الأنبياء أكملُ الخلق، وهكذا العبد كلما ازداد ذلاً لله ازداد قرباً إليه. يقول ابن تيمية -رحمه الله-: «والمقصود هنا: الكلام أولاً في أن سعادة العبد في كمال افتقاره إلى ربه، واحتياجه إليه، أي: في أن يشهد ذلك، ويعرفه، ويتصف معه بموجب ذلك، من الذل والخضوع والخشوع، وإلا فالخلق كلهم محتاجون، لكن يظن أحدهم نوع استغناء، فيطغى، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾» (مجمع الفتاوي ١/ ٥٠).

ويقول -رحمه الله-: «إذا تبين هذا: فكلما ازداد القلبُ حباً لله: ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية: ازداد له حباً، وفضّله عما سواه، والقلب

فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة، ومن جهة الاستعانة والتوكل، فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا ينعم، ولا يسر، ولا يلتذ، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن، إلا بعبادة ربه وحبه، والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات: لم يطمئن، ولم يسكن؛ إذ فيه فقرٌ ذاتي إلى ربه؛ من حيث هو معبوده، ومحبوبه، ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح، والسرور، واللذة، والنعمة، والسكون، والطمأنينة. وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له؛ فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ (العبودية: ص٩٧).

والعبد مفتقر إلى الله تعالى في كل شيء، في خلقه ووجوده وفي استمراره وحياته، وفي علومه ومعارفه، وفي هدايته وأعماله، وفي جلب أي نفع له، أو دفع أي ضرر له، وهذا هو معنى: (لا حول ولا قوة إلا بالله).

الشوق للقاء الله

من اشتاق للجنة، اشتاق للقاء الله

دخلت المسجد قبل صلاة المغرب بخمس دقائق، وجدت إمامنا يكتب حديثا على لوحة الإعلانات، وعادة ما يكتب حديثاً جديداً كل يوم سبت، وقفت أقرأ ما يكتب:

عن صهيب بن سنان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل**» (صحيح مسلم).

- لنا جلسة بعد الصلاة لتدبر هذا الحديث الجميل.

- إن شاء الله.

- بعد السُّنة، ذهبنا إلى مجلسنا المعتاد، شاركنا المؤذن (أبو يعقوب) بدأت الحديث.

- بعض المصطلحات أتحرج من استخدامها، مثل الشوق إلى الله، والعشق الإلهي، والوَلَه؛ لأنها لم ترد في القرآن أو السنة -بحسب علمي- ويستخدمها أقوام خالفوا السنة ونهج السلف، وابتدعوا أموراً لم يأت بها دين الله عز وجل، تدخل (أبو يعقوب):

- ولكن هؤلاء أردوا الخير وظنوا أنهم يتقربون إلى الله بهذه الطريقة.

أَعطَينا المجال لإمامنا:

– (حُسن النية) لا يكفي للتقرب إلى الله، لابد من اتباع ما جاء به النبي ﷺ، وإلا وقع المرء في البدعة ولم يزدد إلا بعداً من الله، ويزيّن له الشيطان هذا، فلا يرجع إلى الحق؛ ولذلك قالوا: «البدعة أشد من الكبيرة»، وكما قال أبو عبدالرحمن الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه –: «وكم مريد للخير لن يصيبه».

– أما (حبّ الله)، فهذا مطلب كل مؤمن كما قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة:١٦٥). ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (المائدة: ٥٤). ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (آل عمران)؛ فالمؤمن يحب الله كما يليق بجلاله وعظمته، ويأمل أن يحبه الله، بطاعة أوامره واتباع هدي نبيه، والدعاء، أما (عشق الله)، فلم ترد هذه العبارة في القرآن ولا في السنة ولا عن الصحابة، وأما (الشوق للقاء الله)، فهو نتيجة حب الله، والشوق إلى الجنة يورث الشوق للقاء الله؛ لأنه أطيب ما في الجنة.

– أحسنت يا شيخ حسن، زِدنا من هذا البيان، أحضر لنا أحدهم الشاي كالمعتاد، بينما بحث الشيخ في الحاسوب وأخذ يقرأ:

والشوق إلى الله درجتان:

أحدهما: شوقٌ زرعه الحب الذي ينبت على حافات المنن، سببه مطالعة منة الله وإحسانه ونعمه.

الثاني: شوق زرعه الحب الذي نشأ واستقر من معرفة أسماء الله

وصفاته المختصة بالـمَنّ والإحسان، كالبَرّ والودود، والـمُحسن والرؤوف والغفور والرحيم، والوهَّاب والكريم، ونحو ذلك، وهذه أكمل وأقوى.

ويوصف الله عز وجل بالمحبة ولا يوصف بالعشق؛ لأنه لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة، وكل من عرف ربه أحبه، ومن أحبه اشتاق إليه وإلى لقائه.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «**وأسألك الرضاء بالقضاء وبَرَدَ العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك..**»، (صحيح النسائي).

وعن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «**من أحب لقاء الله أحب اللهُ لقاءه، ومن كره لقاءَ الله كره الله لقاءه. قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت، قال: ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشر برضوان الله وكرامته، فليس شيءٌ أحب إليه مما أمامه؛ فأحبَّ لقاءَ الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضره الموت بُشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيءٌ أكره إليه مما أمامه؛ كره لقاء الله، وكره الله لقاءه**» متفق عليه. وفي الحديث القدسي: «**إذا تقرّب العبد إلي شبراً تقرّبت إليه ذراعاً، وإذا تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعا، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة**» (رواه البخاري). فالبداءة من العبد ثم الإجابة من الرب: ﴿**ادعوني أستجب لكم**﴾ ﴿**فاذكروني أذكركم**﴾.

أما عوامل بعث الشوق إلى الله:

أولاً: مطالعة أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، وتدبَّر معاني هذه الأسماء الحسنى والصفات؛ فإنها السبيل للوصول إلى محبة الله عز وجل

وتأمل قصةَ أبي الدحداح في فهمه كلام ربه كيف حرك أريحيته وألبسه حب البذل.

فعن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿**من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرةً**﴾، قال أبو الدحداح الأنصاري لرسول الله ﷺ: وإن الله يريد منا القرض؟ قال: **نعم يا أبا الدحداح**، قال: أرني يدك يا رسول الله، قال فناوله رسول الله ﷺ يده، قال فإني أقرضت ربي حائطي، قال: حائطه فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح وعيالها، قال فجاء أبو الدحداح فنادى يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي من الحائط فإني أقرضته ربي عز وجل، وفي رواية أخرى أنها لما سمعته يقول ذلك، عمدت إلى صبيانها تخرج ما في أفواههم وتنفض ما في أكمامهم، فقال النبي ﷺ: «**كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح**» (السلسلة الصحيحة).

ثانياً: مطالعةُ مِنن الله العظيمة وآلائه الجسيمة؛ فالقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها؛ ولذلك كثر في القرآن سوق آيات النعم والخلق والفضل تنبيهاً لهذا المعنى، وكلما ازددت علماً بنعم الله عليك، ازددت شوقاً لشكره على نعمائه.

ثالثاً: التحسر على فوت الأزمنة في غير طاعة الله، بل قضاؤها في عبادة الهوى، قال ابن القيم: وهذا اللحظ يؤدي به إلى مطالعة الجناية، والوقوف على الخطر فيها، والتشمير لتداركها والتخلص من رقها وطلب النجاة بتمحيصها.

رابعاً: تذكر سبق السابقين مع تخلفك مع القاعدين يورثك هذا تحرقاً للمسابقة والمسارعة والمنافسة، وكل ذلك أمر الله به، قال تعالى: ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة**﴾، وقال: ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربكم**﴾.

وإليكم بعض ما ورد في هذا الموضوع:

الشوق إلى الله تعالى ينبع من المحبة، فإن «محبة الله إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح من الجدّ في طاعته والنشاط لخدمته، والحرص على مرضاته والتلذذ بمناجاته، والرضا بقضائه، والشوق إلى لقائه والأنس به» (التسهيل لابن جزي).

ويقول ابن القيم: «ثم العشق وهو سفر إفراط المحبة، ولهذا لا يوصف به الرب تبارك وتعالى ولا يطلق في حقه، ثم الشوق وهو سفر القلب إلى المحبوب أحث السفر وقد جاء إطلاقها في حق الرب تعالى... وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى: ﴿**من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت**﴾ لما علم سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه وأن قلوبهم لا تهدي دون لقائه ضرب لهم أجلاً موعداً للقائه تسكن نفوسهم به وأطيب العيش واللذة على الإطلاق عيش المشتاقين المستأنسين فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة ولا حياة للعبد أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها فهي الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالى: ﴿**من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة**﴾ (الجواب الكافي).

التوكل

سر التوكل هو اعتماد القلب على الله وحده

وأعمدته: الإيمان بالقدر، وحسن الظن بالله، واتخاذ الأسباب.

دخلت وصاحبي محلاً صغيراً يبيع أدوات كهربائية ولوازمها، علق صاحب المحل لوحة، كتب فيها: (توكلت على الله)، لا يمكن للداخل أن يخطئها.

بعد السلام

– لوحة جميلة، ومعبّرة، وأشرت إلى تلك اللوحة.

– نعم، ورثتها عن والدي –رحمه الله–، وكان يملك مخبزاً صغيراً في قريتنا بالشام، وانتقلت هنا وعملت في هذا المجال، ثم توفي والدي منذ سبع سنوات؛ فبعنا المحل وأخذت هذه اللوحة، أشعر بالراحة والأمان كلما قرأتها.

– قضينا حاجتنا، وفي طريقنا إلى مركبتنا بدأ صاحبي:

– كلام صاحب المحل جميل عن لوحة (توكلت على الله).

– نعم، ولكن قليلاً من الناس من يحقق التوكل الصحيح، ذلك أن التوكل عمل قلبي عظيم، لا يكفي أن يقول المرء توكلت على الله بلسانه، وقلبه لا يتوكل على الله.

– ماذا تعني؟

- إذا علمنا أن التوكل عملٌ قلبي، فعلينا أن نجعل القلب يتوكل على الله أولاً، فلا يتعلق بشيء غير الله، ولا يرجو إلا الله، ويرضى بما قسم الله، و يسعى دوماً إلى مبتغاه وكُلّه ثقة بالله مهما كاد له الكائدون، ومكر له الماكرون.

من توكل على الله علم أن الله كافيه، إيجاباً وسلباً، أي في جلب المنافع ودفع المضار.

ومن توكل على الله جعل التوكل دائماً في قلبه، بل يزداد توكله كلما ازداد إيمانه، فهو يزيد وينقص.

- وكيف قرن الله بين الإيمان والتوكل؟

- في آيات كثيرة، منها: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ (تبارك: ٢٩)، وقوله عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (المائدة)، وقوله -سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (آل عمران: ١٢٢- ١٦٠)، (المائدة:١١)، (التوبة:٥١)، (إبراهيم:١١)، (المجادلة:١٠)، (التغابن:١٣).

وكذلك قرن الله عز وجل بين التوكل والهداية، ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ (إبراهيم:١٢)، وقال سبحانه: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ (النمل)، وجعل الله جزاء التوكل كفايته سبحانه لعبده: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ (الطلاق:٣).

وهذه الآية، شاملة كافية، من توكل على الله حق التوكل، كفاه الله، توفيقاً وهداية ونصراً وحفظاً ورزقاً، ونجاة من النار، وفوزاً بالجنة، مع الأخذ بالاعتبار أن (كمال الأجر، مع كمال العمل).

– قرأت كلاما لابن القيم، أظنه في مدارج السالكين: «التوكل نصف الدين والنصف الثاني الإنابة».

– نعم، ابن القيم، مرجعٌ في أعمال القلوب، وإليك بعد أحاديث التوكل، الذي هو من واجبات أعمال القلوب:

عن عمر – رضي الله عنه – مرفوعاً: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصاً وتروح بطاناً**» (الصحيحة).

وعن أنس – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال –يعني إذا خرج من بيته–: بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هُديت ووُقيت وكُفيت، فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووُقي؟**» (الجامع الصغير وزيادته).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب، هم الذين لا يسْتَرْقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون**» متفق عليه.

الثقة بالله

عندما ترك أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام زوجته وابنه في صحراء قاحلة، لا أثر فيها للحياة، بأمر الله عز وجل تبعته هاجر، تستفسر عن السبب، ولا يجيبها، فما كان منها إلا أن سألت، آالله أمرك بهذا؟ فقال: نعم، ولم يلتفت ومضى، فقالت: إذن لا يضيعنا!

كنت أبيّن للجميع في لقاء الجمعة، معنى (الثقة بالله)، كان في المجلس جميع الأبناء وأزواج البنات، وبعض أبنائهم. سأَلت ابنتي براء:

– ولكن هذه ثقة لا تكون إلا عند الأنبياء، لا أظن أن أحداً منّا (عامة الناس) يمكن أن يبغلها.

– نعم، هي قمة الثقة بالله، ولا شك أن الأنبياء على ثقة كاملة بالله، ولكن علينا أن نسعى ونربي قلوبنا على الثقة بالله، بمعنى أن نكون على ثقة، بأن من حِفظ الله، يحفظه الله، كما قال النبي ﷺ: «**احفظ الله يحفظك**» (صحيح الترمذي)، هذه عقيدة إذا ترسخت في القلب، فإن العبد يراها في حياته دون شك، وينبغي أن نربي قلوبنا بأن مقادير الله عز وجل لا تأتي إلا بالخير للعبد، وإن كره العبد بعض ما يصيبه.

– يبدو لي أن الأمر يحتاج إيماناً راسخاً، قوياً.

علّقتُ على مداخلتها.

– نعم، على العبد أن يرتقي بإيمانه، فيثق بكل ما شرعه الله، ويثق بأن

الله يستجيب دعاءه إذا كان مظلوماً، ويثق بأن رزقه يأتيه كاملاً من الله، وأن الله أرحم بعباده منهم بأنفسهم، وأنه سبحانه يحب عباده، ويلطف بهم، ويتولاهم، هذه قضايا أساسية ينبغي على كل منا أن يربي نفسه عليها، وكلها تبدأ بالعلم الصحيح، والعقيدة السليمة في القلب.

علق معاذ، وهو كثير سماع لآراء العلماء والمشايخ، وقليل الاطلاع.

- سمعت درساً في اليوتيوب يشرح (الثقة بالله)، انطلاقا من قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤ ﴾ (الأنفال)، أي حسبك، وحسب المؤمنين، اللهُ -تبارك وتعالى-، بمعنى كافيكم جميعاً، يقول الشيخ: قال بعض الحكماء: صفة أولياء الله تعالى ثلاث خصال: الثقة بالله في كل شيء، والفقر إلى الله في كل شيء، والرجوع إلى الله في كل شيء، الواثق بالله يؤمن: أن الله تعالى إذا حَكَم بحكم وقضى أمراً، فلا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه. وحسبك من آثار تربية النبي ﷺ لأصحابه على قوة الثقة بالله. فهذا أبو بكر - رضي الله عنه - جاء بماله كله حتى دفعه إلى النبي ﷺ فقال له: «**ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر**»، فقال: عدة الله وعدة رسوله؛ فبكى عمر - رضي الله عنه - وقال: بأبي أنت وأمي يا أبا بكر! والله ما استبقنا إلى باب خير إلا كنت سابقاً. (صحيح الترمذي).

قال ابن القيم: الفرق بين الثقة بالله والعجز! أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله في طلوع ثمرته وتنميتها وتزكيتها كغارس الشجرة وباذر الأرض، والمغترّ العاجز قد فرَّط فيما أُمر به، وزعم أنه واثق بالله، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود. وقال -رحمه الله-: إن الثقة سكون

يستند إلى أدلة وأمارات يسكن القلب إليها؛ فكلما قويت تلك الأمارات، قويت الثقة واستحكمت ولاسيما على كثرة التجارب وصدق الفراسة. وأما الغرة فهي حال المغتر الذي غرته نفسه وشيطانه وهواه وأمله الخائب الكاذب بربه، حتى أَتْبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، والغرور ثقتك بمن لا يوثق به، وسكونك إلى من لا يُسكن إليه، ورجاؤك النفع من المحل الذي لا يأتي بخير كحال المغتر بالسراب.

- كلام جميل يا (أبا سعد)، ودعني أضيف عليه أن الثقة بالله تشمل:

- **أولاً**: الثقة بكلام الله عز وجل، والقرآن كله كلام الله عز وجل؛ فمن كان يثق بالله، يثق بكل وعد ورد في القرآن، وبكل آية في كتاب الله، دون أدنى شك، وإن لم يرها تتحقق في حياته.

- **ثانياً**: الثقة بكلام النبي ﷺ؛ لأنه وحي من الله، فيثق العبد بما ثبت عن النبي ﷺ، ولاسيما ثواب الأعمال الصالحة، وعقاب الذنوب والمعاصي، وهذه الثقة تقوِّم أعمال القلب والجوارح.

سألني أبو يوسف.

- وما الفرق بين الثقة بالله، وحسن الظن بالله؟

- حسن الظن بالله يحتاجه العبد، في سكرات الموت، يذكر رحمة الله، وعفوه، ومغفرته، وجنته، أما الثقة بالله فهي عمل قلبي يدفع، القلب إلى أن يحسن التوكل على الله واليقين بما عند الله، والاطمئنان إلى وعد

الله، وإليك بعض الأمثلة: عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - حدثه، قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟**» رواه البخاري.

وهذه أم موسى عليه السلام وثقت بكلام الله أنه سيرد إليها ابنها، قال ابن القيم -رحمه الله-: «فإن فعلها هذا هو عين ثقتها بالله تعالى؛ إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء، تتلاعب به أمواجه، وجريانه إلى حيث ينتهي أو يقف» (مدارج السالكين ٢/ ١٤٢).

وهذا موسى عليه السلام يواجه البحر، وفرعون وجنوده يطاردونه وكادوا يدركونه والفئة التي معه. ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (الشعراء).

نعم، هذه ثقة الأنبياء والرسل، ولنا فيهم قدوة، فلنثق بالله، في رزقنا، وتفريج همومنا، ونصرة ديننا، وتثبيت أمننا، كل ذلك وغيره، ولكن مع الأخذ بالأسباب.

التفويض..

روح التوكل ولُبُّه وحقيقته

قرأ إمامنا آيات من سورة غافر ومنها: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ (غافر)، بعد الصلاة، وكانت صلاة العشاء. - اسمحوا لي بخاطرة قصيرة، عن آية واحدة، آية التفويض إلى الله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾، وكانت ختام (الموعظة) التي ألقاها هذا المؤمن على أسماع أشد كفار الأرض! وكانت النتيجة: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ (غافر).

إن تفويض العبد أمره إلى الله، نتاج إيمان واستسلام وثقة وحسن ظن بالله عز وجل، إيمانٌ بأسماء الله وصفاته بأنه اللطيف الخبير العليم الرؤوف الرحيم القادر القوي العزيز، وغيرها من الأسماء الحسنى والصفات العلا التي تورِث اليقين بأن الله أرحم بالعبد منه بنفسه، وأن قضاء الله نافذ، وقضاؤه كله خير، ويتذكر العبد أنه أسلم أمره لله، واستسلم لأمر الله، وأنه عبدٌ له، ربٌّ يعطيه ويحميه وينصره ويدبر كل شؤونه، ويذكّر نفسه بأن يحسن الظن بالله، ولا يحيد عن حسن الظن بالله عز وجل، فالمفوِّض راض بكل ما اختاره له من فوض إليه؛ لأن المفوَّض إليه هو ربه -سبحانه وتعالى-.

وفي التفسير: «توقع أذاهم فقال وأفوض أمري إلى الله؛ لأن الله بصير بالعباد، يعلم المطيع والعاصي والمستحق للثواب والمستوجب للعذاب».

كانت خاطرة قصيرة جميلة.

ختمها إمامنا: وهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمن، تفويض جميع أموره إلى الله عز وجل، إيماناً بالله واستسلاماً له، وثقة به، ولجوءاً إليه.

بعد أداء سنة العشاء، صاحبتُ إمامنا إلى مسكنه القريب من المسجد.

- ليتك أطلت قليلاً بهذه الموعظة، كنا بحاجة لتذكر مثل هذه الأمور.

- لم أرد أن أطيل؛ لأن بعض المصلين لا يحب الإطالة ولكن دعني أكمل لك ما كنت أعددته... عن أبي سعيد الخدري، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع، قال: ربنا لك الحمد. ملء السماوات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». وقوله: «وكلنا لك عبد» فيه كمال التفويض إلى الله تعالى، والاعتراف بكمال قدرته وعظمته وقهره وسلطانه وانفراده بالوحدانية وتدبير مخلوقاته. وفي قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ (البقرة).

هذه الآية تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور والرضا بما يختاره له، ويقضيه له لما يرجو فيه من حسن العاقبة، ومنها أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه ولا يسأله ما ليس له به علم؛ فلعل مضرته وهلاكه فيه. وعلَّم النبيُّ ﷺ النائم أن يقول كلمات التفويض والإلتجاء والرغبة والرهبة ليستدعي بها كمال حفظ الله له، وحراسته لنفسه وبدنه وأرشده

-مع ذلك- إلى أن يستذكر الإيمان وينام عليه، ويجعل التكلم به آخر كلامه، فإنه ربما توفاه الله في منامه؛ فإذا كان الإيمان آخر كلامه، دخل الجنة فتضمَّنَ هذا الهديُ في المنام مصالح القلب والبدن والروح في النوم واليقظة والدنيا والآخرة، فصلوات الله وسلامه على من نالت به أمته كل خير.

عن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نام على شقه الأيمن، ثم قال: «اللهم أسلمتُ نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت». وقال رسول الله ﷺ : «**من قالهن ثم مات من ليلته، مات على الفطرة**» (متفق عليه).

قوله: أسلمت نفسي إليك أي: جعلتها مسلمة لك تسليم العبد المملوك نفسه إلى سيده ومالكه وتوجيه وجهه إليه، يتضمن إقباله بالكلية على ربه وإخلاص القصد والإرادة له وإقراره بالخضوع والذل والانقياد والتوكل والتفويض.

وفي دعاء الاستخارة عن جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- قال كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «**إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري**

أو قال عاجل أمري وآجله، فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال عاجل أمري وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به، قال ويسمي حاجته» (رواه البخاري).

قوله: «**فإنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر وأنت علام الغيوب**»؛ فهذا تبرؤٌ إلى الله من العلم والحول والقوة وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسَّلَ إليه بها المتوسلون، ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلاً أو آجلاً، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلاً أو آجلاً؛ فهذه هي حاجته التي سألها فلم يبق عليه إلا الرضى بما يقضيه له فقال: واقدر لي الخير حيث كان؛ ثم رضني به، فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه الحقائق الإيمانية التي من جملتها: التوكل والتفويض قبل وقوع المقدور والرضى بعده، وهو ثمرة التوكل والتفويض وعلامة صحته فإن لم يرض بما قضى له فتفويضه معلول فاسد.

استفدت كثيراً من الذي سمعته من إمامنا - جزاه الله خيراً.

- ليتك تكرر مثل هذه الخواطر. ابتسم (أبو محمد) مودعاً.

- أفعلُها -إن شاء الله.

التقوى

تمكنت من إقناع صاحبي بأداء العمرة إنطلاقا من المدنية، بعد أن يسّر أولو الأمر على المسلمين بتشغيل قطار الحرمين، كانت تجربتنا الأولى في استخدام هذه الخدمة الجميلة للانتقال من المدينة إلى مكة والعودة في اليوم نفسه دون الشعور بالإرهاق وتعب السفر، أخذنا مقاعدنا المريحة، وأنا شخصياً من عشاق السفر بالقطار أينما كنت، أفضله على وسائل السفر الأخرى.

– (التقوى)، غاية كل مسلم صادق، متى دخلت القلب، انتقل العبد من ماديات الدنيا، إلى الملذات ًالأخروية، وارتقى من حطام الدنيا، إلى نعيم الروح، وراحتها.

– وما السبيل لنيل التقوى؟ وهل من نالها يفقدها؟ وكيف أعلم أني تحصلتها، وأحافظ عليها؟

– التقوى مثلُ أعمال القلوب الأخرى، تزيد وتنقص، وتأتي وتذهب، وتظهر وتختفي، وتحتاج إلى مجاهدة لاستحضارها والمحافظة عليها دائماً، وسبل الوصول إليها، كما في أعمال القلوب الكبرى، الصدقُ مع الله والعلم الصحيح من الكتاب والسنة، والعلم وفق هذا العلم، ودعاء الله -عز وجل-.

– لنناقش الأمر نقطة نقطة، ولا تُكثِر علي، وعُدَّني أحد طلابك الجدد.

هكذا علّق صاحبي، الذي يكبرني عمراً، فما كان مني إلا أن نظرت إليه مبتسماً، مستنكراً.

– أنت أستاذنا الكبير يا (أبا عبدالله).

– التقوى، شرعاً عرَّفها كثير من علمائنا، وأُحِب دائماً أن أستشهد بتعريف طلق بن حبيب: «أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله».

– هذا التعريف، جمع العلم والعمل والقصد.

كلام جميل.

نعم، العبادات سبيل لنيل التقوى، ولكن إن لم يحافظ العبد عليها، فإنها تمضي مع انتهاء العبادة، وأوضح مثال على ذلك الصيام، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾ (البقرة)؛ فالعبد ينبغي أن يستغل هذه العبادات لاستحضار التقوى، ثم يبذل الجهد للمحافظة على التقوى وزيادتها، فقد ذكر الله التقوى وما يتعلق بها في أكثر من مائتين وخمسين آية في كتابه عز وجل، أحياناً يأمر تعالى الناس جميعاً، وأحياناً المؤمنين خاصة، وأحيانا النبي ﷺ، وكل بما يناسب مقامه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ (الحج).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ (آل عمران).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ (التوبة).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١﴾ (الأحزاب).

وفي أحاديث النبي ﷺ شيءٌ كثيرٌ لعل أشهرها حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع أحدكم على بيع أخيه، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا، وأشار بيده إلى صدره، ثلاث مرات، حسب امرئ مسلم من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله وعرضه**». (صحيح مسلم).

تركنا مقاعدنا نتجول قليلاً في ممر القطار إلى أن وصلنا دون سابق قصد إلى زاوية المرطبات، أخذنا حاجتنا، ورجعنا.

– وثمرات التقوى لا يمكن حصرها، يكفي العبدَ منها أنها شأن عظيم أمر الله به، ويريد من عباده تحقيقه، ولكن دعنا نذكرُ شيئاً مما يتحصله العبد بالتقوى.

– محبة الله، ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧﴾ (التوبة).

– معية الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ (النحل).

– الحفظ من الشيطان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ (الأعراف).

– انتفاء الخوف والحزن: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾ (الأعراف).

– الفوز بالجنة: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ (آل عمران).

– النجاة من النار: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢﴾ (مريم).

– انفراج الكُرب في الدنيا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ (الطلاق).

وغيرها كثير، لا مجال لحصرها.

وفي البخاري عن عائشة –رضي الله عنها– أن النبي ﷺ قال: «**والله إني لأعلمكم بالله وأتقاكم له قلباً**» البخاري.

ومكانة العبد عند الله بما في قلبه من تقوى.

﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ (الحجرات).

ولا شك أن من تمكنت التقوى في قلبه، انعكس ذلك على جوارحه

وأخلاقه، فتراه لا يقصّر في حق الله ولا حقوق البشر، فيأتي العبادات التي أمر الله بها، ما استطاع، ويصدُق مع الناس ويفي بالعهد ويكفّ الأذى ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وفق شريعة الله عز وجل ولا تأخذه في الله لومة لائم، وينقص من ذلك كلما نقصت التقوى.

- نعم، التقوى شأنها عظيم، وقليل من يدركها ويحافظ عليها، مع أن سبيل نيلها واضح بيّن لمن أرادها، ويسير لمن صدق الله.

- أحسنت، ولعلنا نذكّر أنفسنا بما يُعين على تحصيل التقوى، ومن ذلك، مراقبة الله، والإكثار من ذكره، والرجوع عن الخطأ والاستغفار من الذنب حال وقوعه، والتوبة منه، وتعلم أحكام الشرع واتباع هدي النبي ﷺ، ومصاحبة الأخيار الذين يذكرونك الله واليوم الآخر بمجرد رؤيتهم، ودعاء الله عز وجل دائماً باتباع الحق، والثبات عليه.

الإحسان

منزلة الإحسان هي لبُّ الإيمان

بعد صلاة الجمعة، أهداني (أبو سالم) مجموعة أوراق مطبوعة.

- هذه مقالات جمعتها، وعلقت عليها، عن (الإحسان)، ليتك تقرؤها وتخبرني برأيك.

أخذتها مبتسماً.

- لك ذلك -إن شاء الله- ولكن لا تلزمني بوقت.

- خذ ما شئت، لست في عجلة من أمري.

بعد يومين جلست عقب صلاة العشاء في مكتبي، تصفحت ما جمع صاحبي.

الإحسان بمعناه العام يشمل إحسان العبد في عبادة ربه، وتعامله مع الخلق، وأعماله، وأقواله ظاهراً وباطناً، قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ** ﴿٢﴾﴾ (الملك).

وعن شداد بن أوس - رضي الله عنه - قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ، قال: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحِسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**» (مسلم).

والإحسان شرط في قبول العمل؛ فإن العمل لا يقبل إلا بشرطين: الإخلاص لله، وموافقته للسنة، وهو الإحسان الذي ذكره الله تعالى بقوله:

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ (لقمان).

أما الإحسان إذا ذُكِر مع الإسلام والإيمان فهو أن يعبد العبدُ ربه كأنه يراه، كما فسره النبي ﷺ: قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: ما الإحسان؟، قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» (متفق عليه). وجعل الله جزاء الإحسان الجنة والنظر إلى وجهه الكريم سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (يونس).

الحُسنى، الجنة، والزيادة، هي النظر إلى وجه الله عز وجل، كما في تفسير ابن كثير عن صهيب أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه؛ فيقولون وما هو؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويُجرنا من النار؟ قال فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، قال فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقرَّ لأعينهم**» (صحيح على شرط مسلم).

والإحسان من العبد جزاؤه الإحسان من الله عز وجل وشتان بين الإحسانين، يقول الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ (الرحمن).

فمِن جزاء الإحسان الذي ذكره الله تعالى في كتابه:

معية الله للمحسنين:

- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (النحل).

- ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (العنكبوت).

حب الله للمحسنين:

- ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (البقرة).

- ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ (آل عمران).

جزاء الإحسان في الدنيا والآخرة:

- ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (البقرة).

- ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (البقرة).

- ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (المائدة).

- ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الأعراف).

- ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ١١٥﴾ (هود).

- ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ١٢﴾ (الأحقاف).

- ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ١٦﴾ (الذاريات).

أبديت بعض الملاحظات على ما كتب صاحبي، إلتقيته في الجمعة التالية، أخبرته قبل الصلاة أني استمتعت بقراءة ما كتب، وأن نلتقي بعد الصلاة لأعطيه الأوراق ونتحاور عن الموضوع.

- جهدُك واضحٌ في جمع هذه الآيات والأحاديث، وليتك تكملها ببيان كيف الوصول إلى درجة الإحسان.

أجاب مبتسما.

- أشكر لك جهدك ووقتك في قراءة ما جمعت، وبالفعل قمت ببيان سبيل الوصول إلى الإحسان، ولكني لم أحضر ما جمعت، ولكن دعني أخبرك ما جمعته، من ذاكرتي، السبيل إلى الإحسان بيّنه النبي ﷺ في حديث التقرب إلى الله: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه،**

وإن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته» (البخاري).

فالعبد يجتهد في الطاعات (الفرائض والسنن)، وينتهي عن السيئات (كبيرها وصغيرها)، ويستغفر الله ويتوب إن وقع منه تقصير، ويدعو الله أن يثبته.

فهذا الحديث يختصر كل ما كتبته.

- أحسنت، أسأل الله أن يتقبل منك هذا الجهد.

سلامة الصدر

أفضلُ طرقِ الجنةِ سلامةُ الصدر

– قرأ إمامُنا في العشاء الآخر آيات من سورة الشعراء: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾. غلبته العبرة؛ فبكى، وخيَّم الصمت على الجماعة، بعد الصلاة، إلتفتَ إلينا، وبعد المقدمة قال:

– هذه الآية تختصر للعبد أسباب النجاة يوم القيامة، في سبب واحد وهو (القلب السليم)، في صحيح ابن ماجه عن عبدالله بن عمرو – رضي الله عنه – قال: «قيل: يا رسول الله أي الناس أفضل؟ قال: كل مخموم القلب صدوق اللسان، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: هو التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد».

أنهى إمامنا خاطرته التي لم تتجاوز خمس دقائق، في شرح هذا الحديث.

خرجت وصاحبي آيبين إلى منازلنا مشياً.

– كثيراً ما ننسى عبادات قلوبنا وطاعاتها، ونغفل أن عبادة القلب أعظم من عبادة البدن، ومعصية القلب أشد من معصية الجوارح، و(سلامة الصدر) عبادة عظيمة، ينبغي أن ينتبه لها العبد ولا يغفل عنها.

– صدقت يا أبا سالم، عبادات القلب تتطلب مجاهدة دائمة ومراقبة

مستمرة؛ لأنها عبادات لا يحدها وقت، ولا ترتبط بمكان ولا بالليل ولا بالنهار، وسلامة الصدر من العبادات القلبية العظيمة، من أدّاها فاز، ومن تخلف عنها حُرم القبول والمغفرة، حتى يلتزم بها.

إستغرب صاحبي مقالتي.

– نعم (أبا سالم)، في الحديث عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ قال: «**تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس؛ فيُغفر فيها لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلاً كان بينه وبين أخيه شحناء، فيقال انظِروا هذين حتى يصطلحا**» (مسلم).

وفي رواية: «**أركوا هذين حتى يصطلحا، أركوا هذين حتى يصطلحا**» (مسلم).

هذا هَديُ النبي ﷺ وأمره لأمته، كما في حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه . قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام**» متفق عليه.

وذلك أن الهجران والتدابر أصله شيء في القلب؛ فإذا وقع ولم يستطع أن يزيل ما في قلبه، فليتواصل مع أخيه؛ فإن هذا يزيل ما كان في القلب، أيا كان، ولذلك قال ﷺ، «**يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»، وبيّن النبي ﷺ أهم أسباب هذا المرض، ومبدأه، فقال ﷺ: «**إياكم والظن! فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا،**

ولا تناجشوا، ولا تحاشدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا» (البخاري).

بَلَغْنا منزل صاحبي وهو الأقرب إلي المسجد، دعاني للدخول اعتذرت بأن لي موعداً مع أهلي، تابعنا الحديث.

- فالعبد إذا نظر إلى فداحة النتيجة، (الحرمان من المغفرة) هان عليه أن يتنازل لأخيه المسلم، وإن كان مخطئاً. وأحدنا ينبغي أن يبذل الأسباب حتى يصل إلى سلامة صدره وذلك في كل حين، وأول الأسباب الإخلاص والصدق مع الله؛ ففي الحديث عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال رسول الله -ﷺ -: «**ثلاث لا يُغَلّ عليهن صدر مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أولي الأمر ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**» (رواه أحمد وصححه الأرناؤوط)، ومن أسباب سلامة الصدر، الرضا بما قسم الله، وحسن الظن بالمسلمين، وعدم تتبع عوراتهم وزلاتهم، والستر على المسلم كما في الحديث:

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بأعلى صوته: «**يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفضِ الإيمان إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته**» (صحيح أبي داود).

وفي الحديث المتفق عليه: «**إياكم والظن! فإن الظن أكذب الحديث**»، وفي زماننا هذا كثير من الناس ينقل الأحاديث عن الآخرين ويسوغ عمله بديباجة: (يقولون...) وهو أحد القائلين.

هناك حديث سمعته في الإذاعة قبل فترة عن سلامة الصدر ولا أعلم مدى صحته. أخرج صاحبي هاتفه، بحث عن الحديث وأخذ يقرأ علي.

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: كنا جلوسا مع رسول الله ﷺ فقال: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار، تنطف لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه في يده الشمال، فلما كان الغد، قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبدالله بن عمرو بن العاص، فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي، فعلت. فقال: نعم. قال أنس: وكان عبدالله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئا، غير أنه إذا تعار وتقلب على فراشه، ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبدالله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً. فلما مضت الثلاث ليال، وكدت أن أحتقر عمله، قلت: يا عبدالله، إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول ثلاث مرار: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله – ﷺ ؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غِشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه. فقال عبدالله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق**».

– نعم هذا الحديث اختلف في صحته علماء الحديث، وآخرهم العلامة الألباني –رحمه الله–، حيث صححه، ثم تراجع عن صحته وأخرجه في

السلسلة الضعيفة، ولكن يبقى موضوع سلامة الصدر من العبادات القلبية العظيمة، وهي من أعظم النعم على أهل الجنة لتمام التنعم.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (الحجرات).

وإليك هذا الحديث الصحيح، كان الصحابي أبو ضَمْضَم إذا أصبح قال: اللهم إنه لا مال لي أتصدق به على الناس، وقد تصدقت عليهم بعرضي؛ فمن شتمني أو قذفني فهو في حل، فقال رسول الله ﷺ من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضَمْضَم؟» (صحيح أبي داود). وكذلك ما صح من أحاديث ليلة النصف من شعبان، ومنها حديث أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**ينزل الله -تبارك وتعالى- ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا، فيغفر لكل نفس، إلا إنساناً في قلبه شحناء أو مشركاً بالله -عز وجل**» (صحيح لغيره).

وفي رواية: «**يطلع الله -تبارك وتعالى- إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن**» (صحيح).

المراقبة..

فإن لم تكن تراه فإنه يراك

في زيارة قصيرة إلى الشارقة، واعتاد صاحبي أن يذهب مرة كل شهر، بعد أن اشترى شقة صغيرة، يتابع إنشاءها.

- الجميل في هذه الإمارة -فضلاً عن كل شيء آخر- كثرة مساجدها وسماع الأذان والصلاة الجهرية، أينما كنت.

- صدقت يا (أبا أحمد)، يشعر المرء براحة نفسية في هذه الإمارة.

أدينا صلاة العصر في أحد المساجد، استقبلنا الإمام بوجهه بعد الصلاة، وضع حامل الكتب الذي بجانبه أمامه، وأخذ يقرأ من كتاب، لم أتبين عنوانه، تبادلت النظر وصاحبي، اتفقنا أن نمكث قليلاً نستفيد مما نسمع.

- «المراقبة التي هي من أعلى أعمال القلوب هي التعبد لله باسمه (الرقيب)، واسمه (الشهيد)، سبحانه، فمتى عَلِم العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله بعلمها، واستحضر هذا العلم في كل أحواله، أوجب له ذلك حراسة باطنة عن كل فكر وهاجس يبغضه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يُسخِط الله، وتعبد بمقام الإحسان؛ فعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه، فإنه يراه.

لم يطل الإمام في خاطرته، خرجنا بعدها أنا وصاحبي.

- كانت خاطرة جميلة، مفيدة يحتاجها المرء ليجدد إيمانه، ويرقق قلبه.

دعني أبحث لأعرف الكتاب الذي كان يقرأ منه. أخرج صاحبي هاتفه، في أقل من نص دقيقة وجد المصدر.

- عنوان الكتاب (إصلاح القلوب) والكاتب هو (عبدالهادي بن حسن وهبي).

- كنت أظن دون شك أنه من كتاب مدارج السالكين لابن القيم -رحمه الله.

- وكان ظني أيضا كذلك.

- وماذا يقول ابن القيم عن المراقبة؟

رجع صاحبي إلى هاتفه، بينما أخذت مكاني خلف مقود المركبة.

- إليك مقتطفات من كتب ابن القيم، في المراقبة:

«مقام المراقبة جامع للمعرفة مع الخشية فبحسبهما يصح مقام المراقبة»، «المراقبة: دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي المراقبة وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه ناظر إليه، سامع لقوله ومطلع على عمله كلَّ وقت وكلَّ لحظة وكلَّ نفس وكلَّ طرفة عين».

- تعريف جامع مانع، رحم الله ابن القيم.

هكذا كان ردة فعلي بعد سماع ما قرأ صاحبي.

- تابِع وأمتعنا بهذا الكلام الطيب.

- «فمَن راقبَ الله في سره: حفظه الله في حركاته سراً وعلانية، والمراقبة

هي التعبد بأسماء الله (الرقيب) (الحفيظ) (العليم) (السميع) (البصير)، فمن أحصى هذه الأسماء (عقلها وتعبد بمقتضاها)، حصلت له المراقبة».

كما في الحديث «أُعبدْ الله كأنك تراه»، فهذا مقام المراقبة الجامع لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان، ثم قال: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فنزل به عند العجز عن المقام الأول إلى المقام الثاني وهو العلم باطلاع الله عليه ورؤيته له ومشاهدته لعبده في الملأ والخلاء».

أغلق صاحبي صفحة كتب ابن القيم، وانتقل إلى صفحة الخرائط ليدلنا على أفضل الطرق للوصول إلى موقع شقته.

- من الأمور التي تعجبني في هذا البلد إلتزام الجميع بقوانين المرور؛ فلا يشعر المرء بالضغط النفسي والعصبي أثناء القيادة.

- هذه ثقافة مجتمعية ينبغي أن توجد في المجتمع كله.

- لنرجع إلى موضوعنا، (المراقبة).

- من الآيات المبيّنة لهذا الأمر قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ (الأحزاب)، وقوله سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ (البقرة:٢٣٥).

وقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ (الحديد﴾.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ (المجادلة).

وآيات كثيرة.. يخبر فيها الله عز وجل أنه مطّلع ويسمع ويبصر ويعلم أفعال العباد الظاهرة والباطنة.

– صدق الله، وما ترادُفُ الذنوب وتتابع المعاصي إلا من غفلة القلب عن المراقبة، وأصل ذلك كله، حبُّ الدنيا، وغلبة الهوى على القلب، وإيثار العاجل الزائل على الآجل الدائم. وحتى يصل العبد إلى مقام المراقبة، يحتاج أموراً، أولها العلم بأسماء الله وصفاته، واستحضار ذلك دائماً بذكر الله، ذكراً يتحرك به اللسان، ويتفاعل معه القلب، ذكراً يُبعد الشيطان، ويُخمد لهيب الشهوة، وأداء الواجبات رغبة بما عند الله، ورهبة من عذاب الله، والصحبة الصالحة تُعين على ذلك، ثم الدعاء، فإن الدعاء خير معين على نيل المطالب.

– وإذا وقع في الغفلة بعد ذلك؟

– «**كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**» (صحيح الترمذي)، هذا شعار العبد المؤمن، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١**﴾ (الأعراف).

والعبد في حياته، يجمع الحسنات، ويقع في السيئات ولكنه يرجع ويتوب إلى الله تعالى دائماً، وإليك آخر ما ظهر لي من الهاتف: الإحسان وهو مشهد المراقبة، وهو أن يعبد الله كأنه يراه، وهذا المشهد إنما ينشأ من كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، حتى كأنه يرى الله سبحانه فوق السماوات مستوياً على عرشه، يتكلم بأمره ونهيه، ويدبر أمر الخليقة؛ فينزل الأمر من عنده ويصعد العمل إليه، وتعرض أعمال العباد عليه؛ فيشهدُ

ذلك كلَّه بقلبه، ويشهد أسماءه وصفاته، ويشهد قيَّوماً حيَّاً سميعاً بصيراً عزيزاً حكيماً آمراً ناهياً، يحب ويبغض، ويرضى ويغضب، ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو فوق عرشه لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ومشهد الإحسان أصل أعمال القلوب كلها؛ فإنه يوجب الحياء والإجلال والتعظيم والخشية والمحبة والإنابة والتوكل والخضوع لله سبحانه والذل له، ومقام المراقبة جامع للمعرفة مع الخشية فبحسبهما يصح مقام المراقبة.

التوبة

التوبة هي أول الأعمال وآخرها وهي في كل مقام مستصحبة

أديت صلاة الظهر في المسجد الملاصق للمقبرة، قدّر الله أن تكون هناك جنازة، على غير المعتاد، صليت عليها، وتبعتها، وانتظرت حتى انتهى دفنها، (رجاء القيراطين). في طريق عودتي إلى المركبة، صادفت صاحبي، دون سابق موعد.

- قرأت كلاماً عجيباً عن التوبة، ليتك تضمنه خطبة الجمعة القادمة.

- أفعلُ إن شاء الله.

- سوف أرسل إليك الورقات التي جمعتها، خذ منها ما تراه.

- بإذن الله.

بعث لي، خمس ورقات، لخَّص فيها ما قرأ من كتب عن التوبة، قرأتها، أعدت ترتيب بعض الفقرات، وبحثت عن تخريج الأحاديث وها هي بين يديك يا من تقرأ هذه المقالة:

- إن التوبة هي: انتباه القلب عن رقدة الغفلة، ورؤية العبد ما عليه من سوء الحال وتقصير في حق الله -عز وجل.

وتظاهَرَت دلائل الكتاب والسنة، وإجماع الأمة على وجوب التوبة على الجميع، فإذا كان النبي ﷺ يُحصى له أكثر من مئة مرة التوبة والاستغفار، فغيره من باب أولى، عن نافع عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: «ربما

أعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئة مرة (رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم)» (صحيح أبي داود).

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٣١﴾ (النور)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ (التحريم:٨)، أمر الجميع بالتوبة وجعلها سببا للفلاح.

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ (الحجرات).

فأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**» (رواه البخاري). قال ابن عثيمين في شرح رياض الصالحين: وأعظم توبة وأوجبها التوبة من الكفر إلى الإيمان، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ (الأنفال: ٣٨)، ثم يليها التوبة من الكبائر، كبائر الذنوب.

ثم المرتبة الثالثة: التوبة من صغائر الذنوب. والواجب على المرء، أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى من كل ذنب. وللتوبة شروط ثلاثة: كما قال المؤلف -رحمه الله-، ولكنها بالتتبع تبلغ إلى خمسة:

- **الشرط الأول:** الإخلاص لله.

- **الشرط الثاني:** الندم على ما فعل من المعصية.

- **الشرط الثالث:** أن يقلع عن الذنب الذي هو فيه.

– **الشرط الرابع**: العزم على ألا يعود في المستقبل.

– **الشرط الخامس**: أن تكون في زمن تقبل فيه التوبة.

لقول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ (النساء: ١٨) انتهى كلامه.

وقال تعالى في حق أصحاب الأخدود الذي خدّوا الأخاديد لتعذيب المؤمنين وتحريقهم بالنار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ (البروج).

قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة. وحذّر سبحانه من القنوط من رحمته وتوبته، قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (الزمر).

أما ثمرات التوبة فهي كثيرة منها:

١– التوبة سببٌ للفلاح: قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ (النور).

٢– بالتوبة تكفر السيئات: عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه**» (متفق عليه).

٣– بالتوبة تبدل السيئات حسنات: قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ (الفرقان).

قال ابن القيم في هذه الآية: وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة.

٤- التوبة سبب للمتاع الحسن: قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ (هود: ٣).

٥- أن الله يحب التوبة والتوابين: فعبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله وأكرمها؛ فإنه سبحانه يحب التوابين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ (البقرة).

٦- حصول الذل والانكسار لله: ففي التوبة من الذل، والانكسار، والخضوع، والتذلل لله ما هو أحب إلى الله من كثير من الأعمال الظاهرة وإن زادت في القدر والكمية على عبودية التوبة؛ فالذل والانكسار روح العبودية، ولُبُّها.

٧- أن يعرف العبد حقيقة نفسه: وأنها الظالمة الجهول، فإذا ابتلي العبد بالذنب عرف نفسه، ونقصها؛ فرتب له على ذلك حكماً ومصالح عديدة، منها أن يأنف نقصها، ويجتهد في كمالها، ومنها أن يعلم فقرها إلى من يتولاها، ويحفظها، وأن كل ما فيها من خير، وعلم، وهدى، وإنابة، وتقوى، فهو من ربها الذي زكاها، وأعطاها إياه.

الصبر

الإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر (الإمام أحمد)

عرض علي صاحبي مقطعاً مصوراً لأحد المعممين في رده على عدم جواز الاستعانة بغير الله، يقول:

يقول الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ (البقرة) فكيف لا تجوز الاستعانة بغير الله ولا سيّما إذا كان الله قد أمرنا بالاستعانة بهم كأئمتنا لمكانتهم عند الله؟

- هذا جهله مركب، جاهل باللغة، وجاهل بالعقيدة، وأمثاله لا يُستهدفون، وإنما نتوجه للعامة الذين يلبّس عليهم أمثال هذا.

- الصبر، واجب على المسلم بإجماع الأمة، وهو حبس النفس عن الجزع والتسخط، ولا شك أنه درجات، أعلاه صبر الأنبياء، وذكر الإمام أحمد أنه ورد في كتاب الله في نحو تسعين موضعاً على ستة عشر نوعاً.

استغرب صاحبي مقولتي!

- كنت أظن أن الصبر ثلاثة أنواع، صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على البلاء.

- نعم هو كذلك، ولكن الإمام يذكر تفصيل هذه الثلاث يقول:

- الأول: الأمر به نحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ (البقرة)، وقوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ

وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ (البقرة: ٤٥)، وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ (النحل).

- **الثاني**: النهي عن ضده كقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ (الأحقاف: ٣٥). وقوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥﴾ (الأنفال). فإن تولية الأدبار: ترك للصبر والمصابرة وقوله: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣﴾ (محمد)، فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ (آل عمران: ١٣٩) فإن الوهن من عدم الصبر.

- **الثالث**: الثناء على أهله كقوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (آل عمران: ١٧)، وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ (البقرة) وهو كثير في القرآن.

- **الرابع**: إيجابه سبحانه محبته لهم كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ (آل عمران).

الخامس: إيجاب معيته لهم وهي معية التأييد والنصرة كقوله: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ (الأنفال) وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾ (البقرة: ٢٤٩). (الأنفال: ٦٩).

- **السادس**: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه كقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ (النحل) وقوله: ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ﴾ (النساء: ٢٥).

- **السابع**: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم كقوله تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ (النحل).

- **الثامن**: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ (الزمر).

- التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ (البقرة).

- العاشر: ضمان النصر والمدد لهم كقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ (آل عمران)، ومنه قول النبي ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر». (صحيح الترمذي).

- الحادي عشر: الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ الشورى).

- **الثاني عشر**: الإخبار أنه ما يلقى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (القصص)، وقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ (فصلت).

- **الثالث عشر**: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر كقوله تعالى لموسى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ (إبراهيم)، في

أهل سبأ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ (سبأ)، وقوله في سورة الشورى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الشورى).

- **الرابع عشر**: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب والنجاة من المكروه المرهوب ودخول الجنة إنما نالوه بالصبر كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ (الرعد).

- **الخامس عشر**: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة... سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (السجدة).

- **السادس عشر**: اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان كما قرنه الله سبحانه وتعالى باليقين والإيمان والتقوى والتوكل والشكر والعمل الصالح والرحمة؛ ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له، وقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: خير عيش أدركناه بالصبر. وأخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (والصبر ضياء) (صحيح مسلم) وقال ﷺ: «**من يتصبر يصبره الله**» متفق عليه.

وفي الحديث الصحيح: «**عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكرَ فكان خيراً له، وإن أصابته**

ضراءُ صبر فكان خيراً له» (صحيح مسلم). وقال للمرأة السوداء التي كانت تصرع فسألَته: أن يدعو لها: إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك، فقالت: إني أتكشف فادع الله: ألا أتكشف فدعا لها. (متفق عليه).

- تفصيل جميل، وسمعت أن الصبر ينبغي أن يكون جميلاً

نعم هو قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾ (المعارج: ٥) وهو الصبر الذي لا شكوى فيه ولا معه، ودعني أختم بمعنى قوله ﷺ: «**ومن يتصبر يصبره الله**» (البخاري).. ذلك أن الصبر يُكتسب فيبدأ من القلب، ويذكِّر المرء نفسه بأنه يتعامل مع الله، فيتقبل أوامره وينتهي عن نواهيه ويرضى بقضائه، ويدرب قلبه، ويعالج ضعفه، ويستعين بالله على ذلك حتى يتقوى صبره، ويترقى في درجات الصبر، حتى يكتبه الله من الصابرين.

الشكر

الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، والصبر داخلٌ في الشكر

كنا في محاضرة بعد صلاة العشاء ألقاها شيخ فاضل من الجامعة الإسلامية في المدينة، بدعوة من وزارة الأوقاف في الكويت، بدأ الشيخ محاضرته بهذه الآية، يقول الله تعالى مخبراً ومحذراً ومنبهاً عباده، لِأخبث أساليب الشيطان: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ (١٧)﴾ (الأعراف).

فإن تذييل الآية بقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ (١٧)﴾ هي الغاية من الإضلال والتزيين، وذلك أن نفي الشكر، كناية عن الكفر؛ إذ لا واسطة بينهما كما قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾ (البقرة)، وكذلك في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾ (الدهر)؛ فالشكر عبادة المتقين والأولياء الصالحين، وهذا أمر الله لرسوله ﷺ وأمته من بعده: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٦٦)﴾ (الزمر).

في طريق عودتنا تدارسنا ما ذكره الشيخ في محاضرته التي استمرت لأكثر من أربعين دقيقة، ولو أراد لاستمر لأكثر من ساعة، ولكن توقف خشية ملل الحضور.

- والله ما شعرنا بمرور الوقت؛ فقد كانت المحاضرة شيقة، وفيها الكثير من المعلومات الجديدة بالنسبة لي.

- كم مرة ورد ذكر الشكر في القرآن بصيغه المختلفة.

- ذكر الشيخ أنها وردت خمساً وسبعين مرة، بمشتقاتها، والأهم من ذلك أنه ذكر أركان الشكر الخمسة:

خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره.

فإذا نقصت إحدى هذه الأركان، انتقض الشكر، ولم يكن العبد شاكراً، والشكر عبادة قلبية دائمة لله عز وجل بمعنى أن العبد ينبغي أن يكون شاكراً لله عز وجل على الدوام، ولذلك يذكّر الله عباده نعمه التي قد يغفل عنها الإنسان لوجودها دون عناء منه، فيقول عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (النحل).

في تفسير السعدي: «.. خص هذه الأعضاء الثلاثة (السمع والأبصار والأفئدة) لشرفها وفضلها ولأنها مفتاح كل علم، وذلك لأجل أن يشكروا الله باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله، فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه وقَابَلَ النعمة بالكفر لا بالشكر».

ويقول تعالى مذكّراً خلقه جميعاً: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ (النحل). كل نعمة ظاهرة وباطنة، الله هو المنعم بها، لا أحد غيره. ويقول تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ (النحل). وذلك إنْ بدأ العبدُ يعد نعم الله عليه، فإنه لن ينتهي من العد؛ لأن الإحصاء نهاية العد، فنفاه الله عز وجل.

وفي آية آخرى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ (إبراهيم). فلا ينبغي لعبد أن يشعر مطلقاً، أنه ليس في نعمة من الله عز وجل ويغفل عن شكر الله سبحانه.

- أعجبني بيان الشيخ أن العبد ينبغي أن يكون (شاكراً) ويرتقي إلى أن يكون (شكوراً) كما في حديث النبي ﷺ عن المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - قال: كان النبي ﷺ لَيَقوم ليصلي من الليل حتى تَرِم قدماه، فيقال له في ذلك؟ فيقول: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**» (البخاري)؛ فالنبي ﷺ أدَّى أعلى درجات الشكر، فكان عبداً شكوراً، والمؤمن ينبغي أن يكون -على الأقل- عبداً شاكراً، كما في الحديث.

عن صهيب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراءُ شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيراً له**» (صحيح مسلم).

فالعبد ينبغي أن يذكّر نفسه دائماً نعم الله عليه، ويملأ الشكرُ قلبه، فمن أذكار الصلاة ما ورد في حديث معاذ أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «**يا معاذ والله إني لأحبك والله إني لأحبك فقال: أوصيك يا معاذ لا تَدَعَنَّ في دُبر كل صلاة تقول: اللهم أعِنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**» (صحيح أبي داود).

- لو تدبر المرء الآيات التي ورد في الشكر لوجد أنه عبادة الأنبياء والرسل والصالحين، والشكر يؤدي إلى دوام النعمة وحسن الجزاء يوم

القيامة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ (إبراهيم).

ويقول تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ (آل عمران)، ويقول تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ (آل عمران).

- وماذا عن سجود الشكر؟

- هذه عبادة عظيمة ينبغي على العبد أن يفعلها حال تجدد نعمة من الله عليه، ففي السجود كل أركان الشكر التي ذكرتها، خضوع لله، وحب واعتراف بالنعمة، وثناء على الله، واستخدام النعمة في طاعة الله، والصحيح أنها لا يشترط فيها الطهارة وستر العورة للمرأة كما في الصلاة ولا الاتجاه للقبلة وغيرها؛ فهي عبادة جسدية تعكس ما في القلب، من شكر لله.

(والشاكر) و(الشكور) من أسماء الله الحسنى الثابتة في كتاب الله والمعنى أنه سبحانه يقبل القليل من العمل الصالح ويجازي عليه أضعافاً مضاعفة لا حدود لها، يقول تعالى لأهل الجنة: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ (الإنسان).

الرضا

الرضا عبادة قلبية، ينالها من عرف اللهَ حقاً ومن نال الرضا فاز

- مجرد النطق بكلمة (الرضا)، يترك أثراً جميلاً في القلب، وكلما قلت «**رضيت بالله ربّاً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً**» تجدد هذا الشعور الجميل، وامتلأت طاقات إيجابية، كما يقول أصحاب مبدأ الطاقة.

قالها صاحبي مبتسماً، سألته.

- ذكِّرني بالحديث الذي وردت فيه هذه العبادة.

- تقصد حديث العباس بن عبدالمطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً**» (مسلم)، وفي الحديث الآخر عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا، وجبت له الجنة**» (صحيح أبي داود).

- نعم، رددتُها، «**رضيت بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً**».

- ولكن هل تعلم واجبات قول -رضيت بالله ربا.

- أمتِعْني بما لديك يا أبا خالد.

كنت وصاحبي في طريقنا لمعرض الكتاب المقام في نوفمبر بأرض المعارض في الكويت.

- إن الرضا بالله ربّاً، آكد الفرائض، ومن لم يحققه لم يصح له إسلام ولا عمل، وهذه الثلاث هي أصول الدين، فالرضا بالله ربّاً، يتضمن توحيده وعبادته بإخلاص والخوف منه ومحبته والصبر على قضائه، والتسليم لأحكامه، والرضا بمحمد ﷺ رسولاً يتضمن الإيمان برسالته، وتوقيره ونصرته واتباع هديه، والرضا بالإسلام ديناً، يتضمن قبول كل شرائعه، والتسليم بكل جوانبه التعبدية، والسلوكية، وأحكامه في التعاملات اليومية.

- هل لنا أن نفصل في قضاء الله عز وجل؟

- تفصيل ذلك أن قضاء الله عز وجل، قضاء شرعي، وقضاء كوني، أما قضاؤه الشرعي فهو ما شرع من الأوامر والنواهي، وهذه حكمها ورد في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ (النساء).

وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ (الأحزاب).

وأما القضاء الكوني فهو إما يحبه العبد ويجب عليه شكر الله عليه، وإما مما لا يحبه العبد، وهذا الذي ورد في الحديث عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله عز وجل إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**» (صحيح الترمذي). إن

رضا الله عن العبد ينبغي أن يكون غاية كل مسلم، يسعى بما يستطيع ليناله، وهو سبحانه يعلم صدق عبده في السعي إلى هذه الغاية، فييسرها له، ويثيبه عليها، يقول تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ (التوبة). ويقول تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ (الفتح).

هؤلاء المخلصون، رضي الله عنهم في الدنيا، ووعدهم الجنة في الآخرة، واعلم أنه من رضي الله عنه، فقد فاز؛ لأن الله يعلم أن هذا العبد سيموت وهو سبحانه راض عنه.

– إنها نعمة عظيمة أن يعلم العبد أن الله راض عنه.

– هذه لا يمكن أن يزعمها أحد، ولكن يسعى العبدُ أن ينالها صادقاً، ويدعو الله، ويحسن الظن بالله.

من دعاء النبي ﷺ: «**وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وبَرَدَ العيش بعد الموت**» (صحيح النسائي).

وسُئل أبو عثمان عن قول النبي ﷺ عن الرضا بعد القضاء، فقال: «**لأن الرضا قبل القضاء عزمٌ على الرضا، والرضا بعد القضاء هو الرضا**».

وصلنا إلي مواقف المركبات، لم نجد مكاناً فارغاً إلا على مسيرة عشر دقائق، ترجلنا، تابعنا حديثا:

– وماذا يقول ابن القيم، عن الرضا، فهو المرجع في أعمال القلوب.

– نعم، يقول –رحمه الله–: إن الرضا كَسْبي باعتبار سببه، موهبي باعتبار حقيقته، فيمكن أن يقال بالكسب لأسبابه، فإذا تمكن في أسبابه وغرس شجرته، اجتنى منها ثمرة الرضا؛ فإن الرضا آخر التوكل، فمن رَسَخَ قدمُه في التوكل والتسليم والتفويض، حصل له الرضا ولا بد، ولكن لعزته وعدم إجابة أكثر النفوس له، وصعوبته عليها لم يوجبه الله على خلقه، رحمةً بهم، وتخفيفاً عنهم، لكن ندبهم إليه، وأثنى على أهله، وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم، الذي هو أعظم وأكبر وأجلّ من الجنان وما فيها، فمن رضي عن ربه رضي الله عنه، بل رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه، فهو محفوف بنوعين من رضاه: رضاً قبله، أوجب له أن يرضى عنه، ورضاً بعده، هو ثمرة رضاه عنه، ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عيون المشتاقين. ومن أعظم أسباب حصول الرضا: أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه، فإنه يوصله إلى مقام الرضا ولابد. (مدارج السالكين).

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، يقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً**» (متفق عليه).

– اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار. حقاً

من يتدبر (آيات الرضا)، يجد أنها تلامس القلب والوجدان، وتدفع العبد أن يجتهد في نيل هذا المقام العظيم من مقامات التقرب إلى الله، يقول تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ (آل عمران).

ويقول سبحانه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ (التوبة). وأيضا: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ (التوبة).

وأخيرا هذه الآيات المبشرة عند الاحتضار: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ (الفجر).

- لاحظت أن (الرضا) ورد بصيغة (الرضوان)!!

- ملاحظة جيدة.. نعم (الرضوان) ينسب إلى الله.. وهو صيغة مبالغة من (الرضا).. ولا ينسب إلا إلى الله عز وجل لكثرة وعظم (رضاه) عز وجل كما يليق به سبحانه وهو عطاء الله لأهل الجنة!!

الإنابة

«التوكل نصف الدين والنصف الثاني الإنابة» (مدارج السالكين)

– أعمال القلوب تزيد وتنقص، فَيرقى العبد في الدرجات بزيادتها، وتنخفض منزلته بنقصانها، ويتفاوت العباد، بما في قلوبهم.

هكذا بدأ ضيفُنا خاطرته، أُقدّر أنه لم يتجاوز الأربعين عاماً، ولكن له صيت في الرقائق، وتَخَصَّص في كتب الإمام ابن القيم؛ حيث كان موضوع أطروحته، تابعنا حديثه متلهفين.

– والإنابة، من أعمال القلوب، وتختلف عن التوبة، ومدارها على الرجوع إلى الله في كل وقت، والإنابة إنابتان، الأولى: إنابة الخلق جميعاً، ويشترك فيها المؤمن والكافر ولا ميزة لها ولا ثواب عليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الروم).

– **والثانية**: إنابة المؤمنين والأولياء والأنبياء، وهي إنابة العبودية لله، وتتضمن أربعة أمور، محبة الله والخضوع له سبحانه، والإقبال عليه والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم (المنيب) إلا من حقق هذه الأربع. كانت المحاضرة مسجلة، وتُبَث مباشرة عبر قنوات التواصل الاجتماعي، وكثير من الحضور كانت بيده كراسة يكتب فيها ملاحظات. يقول ابن القيم في (مدارج السالكين، ج١، ص٤٣٢):

– إذا استقرت قدم العبد في منزل التوبة، نزل بعده منزل الإنابة، وأثنى

على خليله بها، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ (هود)، وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ (هود)، وعن داود عليه السلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ (ص)، وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها أهل الإنابة وتنفعهم، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (ق)، إلى أن قال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ (ق)، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ (غافر)، وقال تعالى: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ (الروم).

﴿۞ مُنِيبِينَ﴾ منصوب على الحال من الضمير المستتر في قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ (الروم: ٣٠)؛ لأن هذا الخطاب له ولأمته، أي أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه، ويجوز أن يكون حالاً من المفعول في قوله: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: ٣٠)، أي فطرهم منيبين إليه، فلو خُلوا وفطرهم لما عَدَلَتْ عن الإنابة إليه، ولكنها تتحول وتتغير عما فطرت عليه، كما قال ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة**» (متفق عليه)، وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة، فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ (ق)، وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾ (الزمر).

وأمر الله تعالى بها فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤﴾ (الزمر).

وفي كتب التفسير: المنيب: الملازم للطاعة، ويظهر أن معنى أناب صار (ذا نوبة)، أي ذا رجوع متكرر وأن الهمزة فيها للصيرورة، والنوبة: حصة من عمل يتوزعه عدد من الناس وأصلها: فعلة بصيغة المرة؛ لأنها مرة من النوب وهو قيام أحد مقام غيره، ومنه النيابة، ويقال: تناوبوا عمل كذا، وفي حديث عمر: «**كنت أنا وجار لي من الأنصار نتناوب النزول على رسول الله ﷺ فينزل يوماً وأنزل يوماً**» (البخاري)، فإطلاق المنيب على المطيع استعارة لتعهد الطاعة تعهداً متكرراً، وجعلت تلك الاستعارة كناية عن مواصلة الطاعة وملازمتها، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥﴾ (هود). واتباع (سبيل من أناب) هو الاقتداء بسيرة المنيبين لله، أي الراجعين إليه، المقلعين عن الشرك وعن المنهيات، وهم الذين يدعون إلى التوحيد ومن اتبعوهم في ذلك. ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤﴾ (الزمر).

لما فتح لهم باب الرجاء أعقبه بالإرشاد إلى وسيلة المغفرة معطوفاً بالواو وللدلالة على الجمع بين النهي عن القنوط من الرحمة، وبين الإنابة جمعاً يقتضي المبادرة، وهي أيضا مقتضى صيغة الأمر.

أمر تعالى بالإنابة إليه، والمبادرة إليه فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ بقلوبكم ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ بجوارحكم، وإذا أفردت الإنابة، دخلت فيها أعمال الجوارح.

همس لي صاحبي مستحسناً ما نسمع:

-كلام جميل، مشوق.

تابع الشيخ حديثه:

– فالإنابة عمل قلبي دائم، كما أعمال القلوب الأخرى، يجب على العبد أن يتعاهده دائماً، ويتزود منه، نعم مطلوب من المقصرين (الإنابة إلى الله)، بالإقلاع عن المعاصي والعمل بالطاعات، وكذلك الصالحون مطلوب منهم الإنابة القلبية، وهي الرجوع إلى الله بزيادة التقرب إليه، وأشدالخلق إنابة إلى الله، أشدهم إيماناً، الأنبياء والرسل، وكان في دعاء النبي ﷺ في صلاة الليل: «**اللهم لك أسلمت، وبك أمنت وعليك توكلت، وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت؛ فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وأسررت وأعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت**» (البخاري).

وأختم بقول الإمام ابن القيم: «الإنابة هي عكوف القلب على الله عز وجل كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه، وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته وإجلاله وتعظيمه، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص والمتابعة لرسوله ﷺ». (الفوائد: ج/ ١٩٦).

الاستقامة

لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه

في إحدى زياراتي القصيرة إلى الشارقة، رافقني (أبو عبدالله)، وهو من محبي السفر في المركبة، وأنا أستثقل السفر بالمركبة، ولاسيما إذا لم تكن مدة السفر تزيد عن خمسة أيام.

كانت رحلتنا ليوم واحد، غادرنا الثلاثاء ورجعنا الأربعاء، استأجرنا مركبة من المطار، وكالعادة بدأنا الرحلة بتناول الغداء في مركز التسوق الرئيسي في عجمان.

– وهل يوصف القلب بالاستقامة؟ لأن الحديث الذي أعرفه يرشد النبي ﷺ أحد الصحابة، فيقول: «**قل آمنت بالله، ثم استقم**» كأنه يأمره بالتزام العمل الصالح.

– تعني حديث سفيان بن عبدالله الثقفي: «**أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، فقال ﷺ : قل آمنت بالله ثم استقم، فقال الرجل: يا رسول الله، وما أخوف ما تخاف علي؟ فأشار أو أومأ إلى لسان نفسه**» (مسلم).

– نعم هذا الحديث.

– في الشرح بيان بأن الاستقامة ثمرة للإيمان الصحيح، فلا استقامة نافعة إلا بعد الإيمان الصحيح، وهذا عمل قلبي، قال ابن رجب: «والاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم وهو الدين القويم من غير تعويج عنه يمنة ولا يسرة،

ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها: الظاهرة والباطنة وترك المنهيات كلها» انتهى كلامه.

أحضر العامل غداءنا، تابعنا حديثنا.

- فالاستقامة، تعني السير على المنهج الصحيح دون إفراط ولا تفريط ودون زيادة أو نقصان، وإذا وقع العبد في تقصير، تاب ورجع إلى الصراط المستقيم.

أما وصف القلب بالاستقامة فقد ورد في حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه**» (صحيح الترغيب)؛ فالقلب هو أساس الاستقامة، بأن يلتزم الصراط المستقيم، كما قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «الاستقامة: أن تسقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعلب».

- تشبيه جميل، وربما يمكننا أن نقرب المعنى لعامة الناس بأن تقول لأحدهم: ارسم لي خطاً مستقيماً، فإذا رسمه، قل هذه هي الاستقامة، دون اعوجاج، ولا دوران، بل التزامٌ بالمنهج الصحيح الذي جاء من عند الله.

- من أين أتيت بفكرة الخط المستقيم؟ أعجبتني!.

- خطرت على بالي، وربطت بين أحرف (استقامة) و(خط مستقيم).

- أحسنت!

- دعني أقرأ لك بعض الآيات التي وردت في الاستقامة، يقول تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ (الفاتحة).

ويقول سبحانه: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ (هود).

ويقول عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ (فصلت).

ويقول سبحانه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ (الجن).

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (فصلت).

وأخيراً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الأحقاف).

قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -: «فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة لم يلتفتوا بقلوبهم إلى ما سواه لا بالحب ولا بالخوف ولا بالرجاء ولا بالسؤال ولا بالتوكل، بل لا يحبون إلا الله ولا يحبون معه أنداداً ولا يحبون إلا إياه، لا لطلب منفعة ولا لدفع مضرة ولا يخافون غيره كائناً من كان ولا يسألون غيره..» (مجموع الفتاوى ٢٨ / ٣٢).

أنهينا غداءنا، توجهنا إلى مركبتنا، رُفع أذان الظهر، نظرت إلى صاحبي، قررنا أداء الصلاة ثم متابعة بنود جدول أعمالنا.

بعد الصلاة، وقد جمعنا العصر قصراً بعد صلاة الظهر، تامة.

- الآية، من سورة هود: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾، سمعت أنها أشد آية نزلت على النبي - ﷺ.

- الرواية عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشد عليه من هذه الآية، ولذلك قال ﷺ: «**شيبتني هود وأخواتها**». وفي رواية، عن الحسن أنه قال: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «**شمِّروا شمِّروا.. وما رُؤي ضاحكاً بعدها**».

انطلقنا إلى فندقنا، لنأخذ الغرف، ونضع الأمتعة قبل أن نذهب إلى موعدنا في موقع البناء لنلتقي بمهندس المشروع الساعة الثالثة عصرا.

إن الاستقامة تعنى: الاعتدال والتوازن، إنها في الحكمة والإصابة والسداد، والاستقامة مطلب نفيس وعظيم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «أعظم الكرامة لزوم الاستقامة». والاستقامة تحتاج إلى جهد وصبر ومجاهدة، وذلك بعد عون الله وفضله وتوفيقه؛ فهو سبحانه وتعالى الموفق لسلوك طريق الاستقامة، بل أَمَرَ عباده أن يسألوها ويطلبوها منه عز وجل في كل وقت، بأن يقول العبد في كل صلاة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ (الفاتحة).

ويقول سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٥٣ ﴾ (الأنعام).

فالمطلوب من العبد الاستقامة؛ فإن ابتعد عنها فالتفريط والإضاعة..

جاء في الحديث عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن أفضل أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**» (صحيح ابن ماجه)، وقوله: «**استقيموا، ولن تحصوا**». أي: لن تطيقوا ولن تبلغوا كل الاستقامة، لكن على الإنسان المسلم أن يحاول، فإن لم يقدر على السداد فالمقاربة .. كما بيّن ذلك رسول الله ﷺ في الحديث الآخر بقوله: «**سددوا ، وقاربوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**» (صحيح الجامع).

فالاستقامة هي الاتباع لا الابتداع مع إخلاص القلب لله -عز وجل.

الرغبة والرهبة

مفتاح الرغبة في الآخرة .. الزهد في الدنيا

تميّز الشيخ (حامد) بخطب الموعظة والترغيب والترهيب، صوته الجهوري وأسلوبه الخطابي، ولغته السلسة، جعلت مسجده قِبلة من أراد أن يرقَّ قلبُه، وتذرف عينه، ويتذكر الآخرة في خطبة الجمعة.

طلب صاحبي أن نصلي عنده آخر جمعة من العام الميلادي (٢٠٢٢)، ظننا أننا سنكون في الصف الأول، ولما وصلنا المسجد قبل الأذان الأول، لم نجد مكاناً إلا في الصف الثالث، فأدينا السنة، وجلست أقرأ سورة الكهف، وأخذ صاحبي يصلي إلى أن يصعد الخطيب المنبر، وهذه عادته دائماً. لم يخيّب ظننا الشيخ حامد، ألقى موعظة بليغة عن قيمة الوقت، وفناء الدنيا واغتنام الفرص للاستزادة والاستعداد للآخرة.

دعنا نستعيد ما ذكره الشيخ، جزاه الله خيراً.

كنا في انتظار خروج المركبات من المواقف، وهذا يستغرق بعض الوقت لكثرة المصلين.

- مدار (الرغبة والرهبة) اللتان لابد أن تكونا مجتمعتين في قلب كل مؤمن، مدارهما الشكر وطلب العافية والتوبة النصوح، وهما (الرغبة والرهبة) مفتاح التوفيق، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾.

علقت على كلام صاحبي.

- وهنا ذكر الشيخ قضية مهمة، وهي أن (الرغبة والرهبة) بيد الله،

وفضل الله يؤتيه من يشاء، ويضعهما الله في قلب العبد إذا كان القلب صالحاً لهذه الهبة، فعلى العبد أن يهيئ قلبه، ويدعو ربه، فيرزقه الله (الرغبة والرهبة)، وهما أساس التوفيق والفلاح.

- والموعظة، التي هي الأمر والنهي مقرونان بالرغبة بالنعيم والرهبة من العذاب، يحتاجها، المنيب الطائع، والمعرض الغافل، والمعارض المتكبر، أرسل الله موسى وهارون إلى الطاغية فرعون، ليعظاه، ويذكراه، ويأمراه، وينهياه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ (طه). ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ (طه).

وكذلك الموعظة لخيرة البشر (الصحابة) كما في الحديث عن عرباض بن سارية: «**وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون**» (صحيح أبي داود).

تيسرت أمورنا، وتمكنا من الوصول إلى الطريق السريع الموصل إلى المنازل التي لا تبعد إلا سبع دقائق عن المسجد.

- هل لك أن تبحث في كتاب الله عن آيات الرغبة والرهبة؟

- لك ذلك يا (أبا صالح).

- سبحان الله!

هكذا بدأت حديثي بعد أن انتهيت من البحث في هاتفي.

- اسمع يا (أبا صالح).

الرغبة بمشتقاتها تكررت ثمان مرات في كتاب الله، والرهبة بمشتقاتها تكررت ثمان مرات في كتاب الله، واجتمعت (الرغبة والرهبة) في آية

واحدة فقط هي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (الأنبياء).

أما الآيات فهي:

١ - ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (التوبة).

٢ - ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (القلم).

٣ - ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ (البقرة).

٤ - ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ (النساء:١٢٧).

٥ - ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ﴾ (التوبة:١٢٠).

٦ - ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ (الشرح).

٧ - ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ (مريم).

وآيات الرهبة:

١ - ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الحشر).

٢ - ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ (البقرة).

٣ - ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ (الأعراف).

٤ - ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ (الأعراف).

٥ - ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (الأنفال).

٦ - ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ (النحل).

٧ - ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (القصص).

- إنه كلام الله -سبحانه.

واسمع هذه الموعظة التي ظهرت لي للتو:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم! فإن عاجلها ذميم، وآجلَهَا وَخَيم، فإن لم ترها تنقاد بالتحذير والإرهاب، فسوِّفها بالتأميل والإرغاب، فإن الرغبة والرهبة إذا اجتمعا على النفس ذلت لهما وانقادت. ثم ضمِّنها تلاوة كتابه المنزل ليتدبر ما فيه، من أوامره ونواهيه، ويعُدّ إعجاز ألفاظه ومعانيه، ثم بأوقات راتبة، وأزمان مترادفة؛ ليكون ترادف أزمانها وتتابع أوقاتها سبباً لاستدامة الخضوع له والابتهال إليه، فلا تنقطع الرهبة منه ولا الرغبة فيه، وإذا لم تنقطع الرغبة والرهبة استدام صلاح الخلق. وبحسب قوة الرغبة والرهبة يكون استيفاؤها على الكمال أو التقصير فيها حال الجواز. (انتهى).

وفي القرآن الكريم من المواعظ والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد ما يوجب للعبد الرغبة والرهبة، وإذا وجدت عند الإنسان الرغبة في الخير والرهبة من الشر أوجبَ ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحب إلى العبد من شهوات نفسه، وينبغي أن يجمع في دعائه بين الرغبة والرهبة.

ومن حسن الدعاء الجمع بين الرغبة والرهبة، فإنها من سنن الأنبياء قبلنا، قال تعالى عن زكريا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (الأنبياء).

ومن كمال الدعاء أن يجمع الداعي حال دعائه بين الرغبة والرهبة والتوبة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأعراف).

الزهد

الزهد في الدنيا مفتاح الرغبة في الآخرة

موسم الشتاء في الكويت يترقبه الناس، ويفرحون بقدومه، فيه تنزل الأمطار، ويبرد الهواء وتخضّر الأرض، وينصب كثير منهم الخيام في الصحراء، يتمتعون بنعم الله، وكلما بعدت المسافة عن المدينة والمظاهر العمرانية، ازدانت الأرض وزاد جمال الطبيعة.

صاحبي من عشاق النزهات البرية، إذا غاب عن المسجد لأكثر من يوم عرفنا أنه خرج إلى الصحراء، لأنه لا يسافر في موسم الشتاء.

أصرّ صاحبي أن أرافقه في إحدى هذه الرحلات، قبلت عرضه بعد أن اشترطت عليه عدم المبيت.

بدأت رحلتنا بعد الشروق، وكان قد جهز كل شيء قبلها بليلة.

- عندما أكون في الصحراء بعيداً عن ضوضاء المدينة، أتفكر في هذه الدنيا، وأنها لا قيمة لها، بيوتُنا أصبحت قصوراً، وخَدَمُنا أكثر من حاجتنا، وموائدنا نترك فيها أكثر مما نأكل، إلى متى والإنسان يستزيد من ملذات الدنيا؟

- صدقت يا (أبا خالد)، حياتنا فيها من الإسراف والبذخ، ما يجعل المرء يخشى أن يصيبه غضب من الله، لذا يجب أن يذكّر العبد نفسه بين فترة وأخرى، ويخرِج الدنيا من قلبه حتى يستقيم أمره. وصلنا إلى المكان

الذي أعده صاحبي، وقد غابت مظاهر العمران من جميع الجهات، فلا ترى إلا بساطاً أخضر، ازدان بزهور صفراء على مد البصر، استقبلنا الحارس المكلف بالخيام، وتولى شأن ما أحضرنا من لوازم الرحلة، وأخذ كل منا عصاه، أخذنا نمشي دونما إلتزام باتجاه.

- دعني أقر لك بعض ما قال العلماء عن الزهد في الدنيا: قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - : الزهد في الدنيا قِصَر الأمل، وفي رواية أخرى: الزهد في الدنيا هو عدم الفرح بإقبالها، وعدم الحزن على إدبارها، فقيل له: الرجل لديه ألف دينار، هل يكون زاهداً؟

قال: نعم، إذا لم يفرح بزيادتها ولم يحزن بنقصانها!

- كلام جميل، زدنا من هذه الدرر المَخزنَة في هاتفك.

- الزهد في الدنيا يبدأ من القلب، وذلك ألا تدخل الدنيا قلبه، ودخولها كدبيب النمل لا يشعر به المرء، حتى إذا امتلأ القلب من الدنيا، هلك ابن آدم، ومهمة الشيطان تزيين الدنيا، وإبعاد الآخرة، وحتى يحفظ العبد قلبه من الدنيا ينبغي أن ينظر إلى حقيقتين:

الأولى: سرعة زوالها وإدبارها.

والثانية: إقبال الآخرة دون سابق إنذار (الموت).

وإيثار الدنيا على الآخرة لا يكون إلا بفساد الإيمان أو فساد العقل!

والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة:

قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ (الحديد).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (يونس).

وبيّن الله سبحانه مصير من ملأت الدنيا قلبه ونسي الآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ (يونس).

وزَهد النبي صلى الله عليه وسلم بالدنيا وبيّن مكانتها بالنسبة للآخرة في الحديث. عن المستورد بن شداد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليمّ فلينظر بم يرجع**». (رواه مسلم)، وبيّن موقف المؤمن منها فقال في الحديث:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثّر في جنبه، فقال يا رسول الله، لو اتخذت فراشاً أوثَر من

هذا؟ فقال: «**ما لي والدنيا؟ ما مَثَلي ومثل الدنيا إلا كراكبٍ سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة، ثم راح وتركها**» (السلسلة الصحيحة).

كنا كلما مررنا على عشبة جديدة، يقطع (أبو خالد) حديثنا ليسألني عن اسم العشبة، ثم يخبرني عن اسمها، لم أتعرف على أية عشبة صحراوية!!

أشار علي صاحبي:

– لنرجع إلى خيامنا، أظن الحارس قد أتم إعداد القهوة العربية، مع أن السير والحديث معك لا يمل، ولكنه موعد القهوة الآن.

بدأنا العودة ولكن من طريق آخر.

– على العبد أيضاً أن يعلم يقيناً أن حرصه على الدنيا لن يزيده شيئاً لم يكتبه الله له، وزهده في الدنيا لن يحرمه من شيء كتبه الله له.

– أظن أن هذه الجزئية هي الأهم من الثلاث التي ذكرت، ودائماً أذكر مقطعاً لأحد العلماء، وربما سمعته في إحدى الخطب لا أتذكر الآن، أن الحرص على الدنيا سمة اليهود، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (البقرة).

– وبعض المسلمين يتخلقون بهذا الخُلق أيضاً، مع أن المؤمن ينبغي ألّا يعطي الدنيا أكثر من قدرها الذي أعطاه الله إياها، وبيّنه النبي ﷺ لأمته كما في الحديث، عن جابر أن رسول الله ﷺ مرّ بجَدي أَسكّ ميت، قال: «**أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟! فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، قال: فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم**» (رواه مسلم).

والجَدي الأسَكّ: هو الجدي بلا أذنان، فإذا كان ميتاً لا يرغب فيه أحد فضلاً عن أن يشتريه بدرهم.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شربة ماء**» (السلسلة الصحيحة).

إنكار المنكر

وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل

جاورني في رحلتي الأخيرة إلى لندن لزيارة حفيدتي (رتاج)، ابتدرني بابتسامة لطيفة، وسرعان ما تعارفنا، وتآلفنا، بدأ الحديث:

- بعض المتدينين يتشددون مع من لا يتفق معهم؛ فيرمون هذا بالفسق، وتلك بالفجور، وذاك بالانحراف، وربما أطلقوا هذه الصفات علناً؛ ليُسمعوا الطرف الآخر.

- إن الدعوة تحتاج إلى علم، وسعة صدر، وحلم، وحكمة، نعم أتفق معك أن بعض المتدينين يضرون أكثر مما ينفعون، ولكن أيضا يجب على كل مسلم أن ينكر المنكر بطريقة صحيحة وأنت تعرف الحديث:

«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»، وفي رواية: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» (مسلم).

- دعني أكونُ صريحاً واضحاً، أنا أعرف الكثير من الملتزمين بالصلاة في المساجد، المتبعين لهدي النبي ﷺ في السنن، وكذلك أعرف كثيراً من الذين لا يصلون، وأحضر مجالس هؤلاء وهؤلاء، وربما حضرت مجلساً، يدار فيه الخمر أحياناً.. مع أني أكره هذه المجالس، ولكن من باب صلة الرحم؛ لأنهم من أقربائي، قاطعته.

– هل تعرف أين المشكلة يا (أبا فواز)، المشكلة أن يتعود القلب على المنكر، فلا ينكره، ولا يكرهه، وهذا عمل قلبي خطير، ألّا ينكر القلب المنكر؛ ففي الحديث، قطع المضيف حديثنا ليعطينا المناشف الساخنة المنعشة.

تابعت حديثي:

– أقول في الحديث، عن حذيفة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تُعرضُ الفتنُ على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأيّ قلب أُشربها نُكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير على قلبين: أبيض بمثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مِرباداً كالكُوز مجخِيًّا، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه**» (رواه مسلم).

فالعبد ينبغي أن يدرب قلبَه دائماً على إنكار المنكر وكرهه وبغضه والإبتعاد عنه؛ لأن كثرة التعرض للمعاصي والرضا بها يُميت القلب، ويُذهب الإيمان، ومن علامات الإيمان ألا يكون المسلم في مجلس يدار فيه الخمر، والحديث صريح في ذلك.

عن عمر – رضي الله عنه – قال: «**أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعدن على مائدة يدار عليها الخمر**» (صحيح الترمذي).

استوقفني:

– هل هذا الحديث صحيح؟

– نعم هذا الحديث ورد في مسند الإمام أحمد والترمذي والنسائي وصححه العلامة الألباني.

– لم أكن أعرفه.

– الشاهدُ أن المرء ينبغي ألا يألَفَ المنكر، ويتعوّد عليه، بل يذكّر نفسه، أن هذا المنكر معصيةٌ لله عز وجل، ويكره هذا المنكر، وإن كان صاحب سلطة، يزيله، وإلا فبلسانه ينكره دون أن يوقع ضرراً أكبر منه، وإلا فبقلبه، ويتحول عن المكان الذي يقع فيه، ويكره هذا المنكر. بل من صفات المؤمنين حبهم للإيمان والطاعات وكرههم للمعاصي، كما قال –تعالى في سورة الحجرات–:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ (الحجرات).

أي جعل الإيمـان بما فيه من عقيدة وعمل، محبوباً إلى قلوبكم (وزينهُ)؛ بحيث لا تتركونه، بل تقومون به وأنتم راغبون فيه، مقبلون عليه بقلوبكم، قال ابن مسعود – رضي الله عنه –: «**هَلَكَ من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر**».

– آية جميلة، كأني أسمعها أول مرة؛ لأنها أتت في صياغ عمل القلب، نعم كل الفطر السليمة تحب الإيمان وأعمال الإيمان، والصلاح من صلة الرحم، والإصلاح بين الناس والإحسان إلى المحتاجين، والصلاة،

والصيام، وقراءة القرآن، إنها نعمة عظيمة من الله أن حبَّبَ إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا.

– نعم، هذا فضل من الله، ونعمة، وأذكر حديثا آخر للتو حضرني، وهو في صحيح مسلم، عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من نبي بعثه الله في أمته قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحابٌ يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»

– أحاديث لم أعرفها من قبل، وكنت أظن أني مُلمٌ بمعظم الأحاديث لاطلاعي الدائم وثقافتي الإسلامية.

– من شيمة العلماء، كما قال الشافعي: كلما ازددت علماً ازددت علما بجهلي.

استدرك علي مقالتي.

– هذا شطر من بيت شعر للشافعي يقول فيه:

كلما أدبني الدهر أراني نقصَ عقلي
وكلما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي

– هذه أول مرة أسمع هذا البيت من الشعر كاملاً.

الوجل

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

- من القواعد المهمة التي يغفل عنها الكثير، أن كمال الأجر مع كمال العمل، وأن حصر الإيمان، يعني كمال الإيمان.

- لم أفهم الجزء الثاني.

- مثلا قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ (الأنفال)، في التفسير: إنما المؤمنون الكاملُو الإيمان، فمن لم يوجل قلبه، لا ينتفي الإيمان عنه، ولكن ينقص، هذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص.

كنت وصاحبي في استراحة الأساتذة، بعد صلاة الظهر بانتظار موعد اجتماع القسم الذي يُعقد عادة الساعة ١٢:٣٠، أخذنا حاجاتنا من المشروبات، صاحبي مدمن قهوة وأنا اكتفيت بالماء البارد.

- وما الفرق بين الخوف والخشية والرهبة والوجل؟

- دعني أبحث لك في هاتفي حتى أفيدك وأستفيد.

(الوجل) و(الخوف) والخشية) و(الرهبة) ألفاظ متقاربة غير مترادفة، قال أبو القاسم الجنيد: الخوف توقع العقوبة، وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب

المرغوب فيه، وأما الوَجَلُ فَرَجفانُ القلب، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته، وأما الهيبة فخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة، والإجلال: تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين، وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية، كما قال النبي ﷺ: «**إني لأعلمكم بالله، وأشدُّكم له خشية**» (متفق عليه). ومن هنا فإن الوَجَل إنما يكون في القلب وهو الخوف مع التعظيم ولا يكون إلّا لله عز وجل، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ (الأنفال:٢)، فوجلُ القلب من أخص صفات المؤمنين، وإنما يكون عند ذكر الله تعالى، سواء كان المؤمن ذاكراً لله تعالى أم ذُكِر الله تعالى عنده؛ إذ ليس كل من ذَكَر الله تعالى أو ذُكِر عنده لانَ قلبُه، واقشعر جلده، وفاضت عيناه، وانتابته حالة من الخوف والرهبة، والتعظيم والإجلال والافتقار.

وفي الحديث: «عن العرباض بن سارية قال: «**قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فوعظنا موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون،** ....» (صحيح بطرقه وشواهده).

ومن أهم علامات الوجَل وأماراته الوقوف عند أوامر الله، والرجوع إلى طاعته والحذر من معصيته، قال تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥** ﴾ (آل عمران).

ومن علامات الوجل وأماراته كذلك البكاء من خشية الله تعالى، عن

أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**» (متفق عليه).

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ (المؤمنون)، فهذا هو الوَجَل المختلط بالمحبة، وتلك هي مقدمات ذكر الله، فأولُّ ما يذكرُ العبدُ ربَّ العالمين يشعر بالوَجَل، ثم سرعان ما يتبدد هذا الوجل إلى طمأنينة، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ (الرعد)، فليس هناك منافاة بين أن يوجلَ القلبُ عند ذكر الله وبين أن يطمئن، فإن الوجل هو مقدمة الذكر، والطمأنينة بالذكر الخاتمة. ويذكر الله صفات المؤمنين: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ (الزمر:٢٣)، هذه مقدمة الذكر، قال: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ (الزمر:٢٣)، (تلين): هذه هي الطمأنينة، وهي آخر درجات الذكر. توقف عند الاستراحة رئيس القسم ينبهنا لاقتراب موعد الاجتماع ومضى إلى قاعة الاجتماعات.

– **وماذا عن الآية الأخرى من سورة الحج؟**

– بل هما آيتان.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ

﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الحج). ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾، المطمئنين، وعن الضحاك: المتواضعين؛ فوصفهم بالطمأنينة مع الوجل، كما وصفهم هناك بالتوكل عليه مع الوجل، وكما قال في وصف القرآن: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. فذكر أنه بعد القشعريرة تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله؛ فذكره بالذات يوجب الطمأنينة، وإنما الاقشعرار والوجَل عارضٌ بسبب ما في نفس الإنسان من التقصير في حقه، والتعدي لحده.

وفي قراءة ابن مسعود – رضي الله عنه –: «إذا ذكر الله فرقت قلوبهم»، وهذا صحيح؛ فإن (الوجل)في اللغة هو الخوف، يقال: حُمرة الخجل وصُفرة الوَجَل. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قالت عائشة رضي الله عنها: «يا رسول الله هو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعاقب؟ قال ﷺ: «**لا يا ابنة الصديق هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه**» (صحيح الترمذي).

قيل لبعض العلماء ما علامة التوبة؟ قال: الوجل من الذنب.

الخشية

(الخوف المقرون بالمعرفة والسكون، هو الخشية)

– قرأ إمامُنا آيات من سورة (تبارك)، وهي من السور التي يكررها كثيراً إمامنا في الصلاة حتى حفظها بعضنا من كثرة قراءته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ (الملك).

بعد الصلاة، استأَذَنَّا أن يلقي خاطرة قصيرة عن هذه الآية، بقي كلُّ المصلين تقريباً في أماكنهم.

– في هذه الآية وعدٌ جميل «للذين يخشون ربهم بالغيب»، والخشية تختلف عن الخوف، ذلك أن الخوف هروب وانتقال من المَخوُف، والخوف قد يكون من أي شيء وإن كان مجهولاً للعبد، أما الخشية فلا تكون إلَّا مع العلم، ونتيجتها السكون والاستقرار، يقول ابن القيم –رحمه الله– في مدارج السالكين، وأخذ إمامنا ينقل لنا النص كما ورد في الكتاب، من هاتفه الذكي:

«الخوف: اضطرابُ القلب وحركته من تذكر المخوف، وقيل الخوف هروب القلب من حلول المكروه عند استشعاره، والخشية أخص من الخوف؛ فإن الخشية للعلماء بالله كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ (فاطر)، فهي خوف مقرون بمعرفة.

وقال النبي ﷺ: «**إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية**» (متفق عليه)؛ **فالخوف حركة والخشية انجماع وانقباض.**

بعد الخاطرة، جلسنا في مكتبة المسجد مع إمامنا.

- لم تذكرْ أسانيد الأحاديث التي أوردتها في خاطرتك يا شيخ، وليست هذه عادتك.

ابتسم (أبو أحمد).

- صدقت، ذلك أني لم أكن أنوي إلقاء هذه الخاطرة ولكن الآيات التي قرأتها دفعتني، لنبحث عن تخريج الأحاديث، وبالفعل كان الأمر يسيراً.

- حديث «إني أتقاكم لله» ورد في حديث الثلاثة الذين قال أحدهم: إنه يقوم الليل فلا ينام والآخر يصوم الدهر فلا يفطر، والثالث الذي اعتزل النساء، فقال النبي ﷺ لهم: «**إنما أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له**..» صححه الألباني.

وفي البخاري عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا».

تابع الشيخ:

- الخشية عمل قلبي وطاعة عظيمة لله عز وجل تبدأ بالقلب، ويظهر أثرها على الجوارح، والخشية تبعث في العبد مراقبةَ الله عز وجل، وكلما كان العبد أكثرَ علماً ومعرفة بالله، اشتدت خشيته من الله.

وفي سورة البينة يقول الله تعالى عن المؤمنين:

﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ (البينة).

عقَّب (أبو ياسر) على مقولة الشيخ:

– وهناك فرق آخر بين الخوف والخشية، ذلك أن الخوف يقع عادة بعد الوقوع في معصية، وتذكر العقاب، وربما يختفي الخوف، أما الخشية فهي عمل قلبي دائم، لا ينبغي أن يفارق قلب العبد المؤمن.

أعجبني تعليق أبي ياسر.

– ولذلك كانت الخشية من صفات العلماء والأولياء الصالحين. وماذا عن قول الله تعالى عن موسى وفرعون: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ (النازعات)؟

هذه نجدها في كتب التفسير، ولحظات كانت جاهزة.

– أي أعلمك وأرشدك إلى الله، كما ورد في الآيات الأخرى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (الشعراء).

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ (طه)، فهذه الآيات وغيرها، يعلِّمُ موسى فرعونَ بالله عز وجل، لعله يخشى بعد العلم.

– ووردت مادة (خشي) ثمان وأربعين مرة في كتاب الله، من ذلك قوله تعالى:

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٠﴾ (البقرة).

وقال في مقام الذم لمن يخشى الناس كخشية الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ (النساء:٧٧).

وآيات أخرى وردت فيها الخشية: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ (طه).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٣٣﴾ (لقمان).

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ (الرعد).

فصاحب الخوف يلتجئ إلى الهروب، والإمساك، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم.

والعبد يحتاج إلى الخوف، والخشية، ومن بلغ منزلة الخشية، فقد ملأ الخوف قلبه سابقاً.

الإخبات

إذا أدرك العبد منزلة الإخبات نزل أول منازل الطمأنينة

لم أسافر إلى لبنان لأكثر من ثلاث سنوات؛ لما يمر به هذا البلد العزيز من أزمات، جَعَلَت الحليم حيران، بعد استشارة معارفي هناك، عقدت العزم، وتوكلت على الله، وكنت هناك لثلاثة أيام في شهر نوفمبر الفائت.

حرصت أن أصلي في مسجد (الحميضي) وسط بيروت؛ لألتقي الإمام، الذي صرت أجلس معه في كل زيارة تقريباً، كان يقرأ لبعض الشباب، من كتاب مدارج السالكين، قطع قراءته ورحب بي ترحيباً حاراً، طلبت منه متابعة الدرس، جلست استمع.

- الإخبات: هو التذلل لله عز وجل مع المحبة والتعظيم له، وهو أول مقامات الطمأنينة واليقين والثقة بالله، وهو أول مقام يتخلص فيه العبد من التردد والرجوع، سأله أحد الحاضرين:

- قرأتُ أن الإخبات، يعني التواضع.

- نعم لغة (الإخبات) من الخبت وهو المكان المنخفض من الأرض، واستعير لمعنى التواضع، ويقال فيه (خبتة) أي تواضع ودماثة.

والآيات التي ورد فيها الإخبات في كتاب الله هي: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (هود). ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ

ﵟٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ﵞ (الحج). ﵟوَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤ﵞ (الحج).

في التفسير، (المخبتين) المطمئنين المتواضعين.

ﵟفَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗﵞ، طاعةً وتواضعاً لأمره بامتثاله، استقر الحق في قلوبهم فخضعوا له.

فالإخبات، تواضع وانقياد وخضوع لأمر الله -تعالى. وفي الحديث عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه كان من دعاء النبي ﷺ: «**رب أعنّي ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي وامكر لي ولا تمكر علي واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شكّاراً، لك ذكّاراً، لك رهّاباً، لك مطواعاً، لك مخبتاً، إليك أواهّاً منيباً، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، وسدد لساني، واهد قلبي، واسلل سخيمة صدري**» (صحيح ابن ماجة).

كان الحضور يدوِّنون ملاحظاتهم من كلام الشيخ، وبعضهم كان يسجل الدرس كاملا في جهازه النقال.

تابع الشيخ حديثه:

- ومنزلة الإخبات، منزلة متقدمة من منازل القرب من الله، لا تُنال إلا بمجاهدة النفس وكبح جماحها، وتربيتها على التواضع لأوامر الله، والخضوع لتعاليمه الواردة في القرآن أو السنة الصحيحة.

وبيّن الله سبحانه صفات المخبتين في سورة الحج الآية: (٣٤)، فذكر في الآية بعدها: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الحج).

فأتبع صفة المخبتين بأربع صفات وهي: وَجَلُ القلوب عند ذكر الله، والصبر على الأذى في سبيله، وإقامة الصلاة، والإنفاق. وكل هذه الصفات الأربع مظَاهرٌ للتواضع؛ فليس المقصود جمع تلك الصفات؛ لأن بعض المؤمنين لايجد ما ينفق، وإنما المقصود من لم يخل بواحدة منها عند إمكانها، والمراد من الإنفاق الإنفاق على المحتاجين الضعفاء من المؤمنين؛ لأن ذلك هو دأب المخبتين. والمراد بالصبر: الصبر على ما يصيبهم من الأذى في سبيل الإسلام. إن القلوب بالنسبة للاستجابة للحق تنقسم إلى قسمين: أحدهما: قلوب مستجيبة للحق، فهذه بأرفع المنازل في الدنيا والآخرة. وثانيهما: قلوب معرضة عن الحق، والإعراض مراتب:

فالإعراض مرتبة، والتكذيب مرتبة دونها، ثم الاستهزاء مرتبة دونها، والمرتبة الأسوأ من ذلك هي الصدّ عنه، كما قال الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (النحل).

والله -جل جلاله- جعل القلوب على ثلاثة أقسام:

مختبة، ومريضة، وقاسية. فالقلوب المخبتة: هي التي تنتفع بالقرآن، وتزكو به. والإخبات: سكون الجوارح على وجه التواضع والخشوع لله.

ومن فوائد (الإخبات):

١ – أول درجات الطمأنينة والثقة بالله وحسن الظن به.

٢ – للمخبت البُشرى من الله بالجنة.

٣– الأَمْن من الفزع الأكبر يوم القيامة.

٤ – الإخبات من الأحوال القلبية الموجبة للالتفات عما سوى الله.

٥ – الإخبات يورث صاحبه العزة في الدنيا والنجاة في الآخرة.

٦ – الإخبات يقي من الفتنة.

٧– بالإخبات ترتفع الهمة وتعلو النفس عن الرغبة في المدح أو الخشية من الذم.

٨– بالإخبات يباشر القلب حلاوة الإيمان واليقين.

الطمأنينة والسكينة

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ (الرعد)

- وما الفرق بين السكينة والطمأنينة؟

- الطمأنينة، حال دائمة تستقر في القلب، يعمل العبد على اكتسابها، بالأسباب التي بيّنها الله عز وجل.

والسكينة، ينزلها الله عز وجل على من يستحق من عباده حال الاضطراب والخوف والحيرة، فيهدأ ويفعل الصواب وينطق بالحق.

وقالوا: الطمأنينة أعمّ وهي ثبات القلب عند هجوم المخاوف.

كنت وصاحبي في حوار علمي، مع مجموعة من مرتادي المسجد، بين العشائين، كعادتنا كل أربعاء.

- ولو تدبرنا آيات الطمأنينة وآيات السكينة، ندرك الفرق بينهما.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ (الفجر). ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ (البقرة). ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ (الرعد). ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ (المائدة).

أما آيات السكينة فمنها:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ (التوبة).

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ (التوبة).

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ (الفتح). ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ (الفتح).

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- إذا اشتدت عليه الأمور: قرأ آيات السكينة. وأصل السكينة هي السكون الذي يُنزله الله في قلب عبده، عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات.

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «**ما اجتمع**

قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» (مسلم). وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ (الآية).

قال الجمهور: لم يكن إبراهيم عليه السلام شاكًّا في إحياء الله الموتى قط، وإنما طلب المعاينة، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي...**» (متفق عليه).

الحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم، بمعنى أن إبراهيم لم يشك في مسألة إحياء الموتى؛ ولذلك فنحن أولى بالشك منه؛ فإذا كنا لا نشك في هذا الأمر، فإبراهيم من باب أولى.

- هل نستطيع أن نقول: إن المرء ينبغي أن يسعى ليصل قلبه إلى الطمأنينة؟ وأنها من طاعات القلوب، وأن السكينة في الغالب، ينزلها الله، في قلب المؤمن إذا اتخذ الأسباب؟

- نعم، والطمأنينة تزيد وتنقص كأعمال القلوب كلها، ولكن لا ينبغي أن تفارق القلب في أدنى مستوياتها، وهي الاطمئنان إلى جنب الله، وكلام الله، ووعد الله ومعية الله ونصر الله والرضا بقضاء الله.

والنفس المطمئنة، هي التي اطمأنت عند موتها، بوعد الله لأهل الإيمان بالكرامة في الآخرة وصدّقت به.

الورع

كن وَرِعاً تكن أعبد الناس

– بعد انقضاء موسم الحج (١٤٤٤هـ)، اجتمعنا في ديوان (أبي سالم) الأقرب إلى المسجد بين العشاءين، كنا تسعة رهط، ثلاثة منا أدّوا الفريضة، بعد المقدمات، بدأ (سعد) يحدثنا عن تجربته.

– لقد كان الحج هذا العام أشدَّ بكثير من العام الفائت، لدرجة أني أُغمي علي في النفرة من عرفات.

قاطعه أبو خالد.

– لقد نبهناك يا سعد، أنك لم تأكل كما ينبغي، ولم تأخذ كفايتك من الراحة والنوم قبل عرفة، لا تأكل إلا ما تطبخ أو تشتري، تشك في كل ما يقدم لك، تظن ذلك من الورع واجتناب الحرام.

تدَخَّل إمام مسجدنا، وهو قريب من الجميع ولديه قبول لهدوئه، وعلمه، وحكمته.

– وكيف يكون عدم الأكل من الآخرين ورعاً يا (أبا أحمد)؟ هذا أقرب إلى التشدد، والتعنت الذي نهى عنه الرسول ﷺ منه إلى الورع.

عقب أبو خالد.

– لقد أغمى عليه ونحن في طريقنا إلى القطار للانتقال من عرفة إلى مزدلفة، ولم يفقْ إلا في المركز الطبي بعد أن ارتاح ساعتين، وأعطيناه تمرات وسقيناه قليلاً من الماء.

- (الوَرَع)، أمر جميل في دين الله، وكما قال النبي ﷺ في حديث أبي هريرة: «**كن وَرِعاً تكن أعبد الناس، وكن قَنِعاً تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً، وأقل الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب**» (صحيح ابن ماجه).

وقال الحسن: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة. ولكن يخطئ كثير من الناس في معرفة الورع، دعوني أقرأ لكم ما قال ابن القيم عن الورع:

أخرج إمامنا هاتفه، بضعة لمسات على الشاشة: «والفرق بين الوَرَع والزُّهد أن الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما يخشى ضرره في الآخرة، والقلب المعلق بالشهوات لا يصح له زهد ولا ورع، وأما تعريض الأمر والنهي للتشديد الغالي فهو كمن يوسوس في الوضوء متغالياً حتى يفوتَ الوقت، أو كمن يردد تكبيرة الإحرام إلى أن تفوته مع الإمام قراءة الفاتحة أو يكاد تفوته» (الفوائد).

كان الخادم يقوم بواجب الضيافة، رغم إخطارنا أبا سالم ألا نريد سوى الماء، لقصر الوقت بين العشاءين! تابع إمامنا حديثه.

- والوَرَع ثلاثُ مراتب، ورعٌ واجب وهو الابتعاد عن المحرمات، وورع مندوب، وهو البعد عن الشهوات، وورع فضيلة، وهو الكف عن كثير من المباحات خشية الوقوع في الممنوعات، كما في حديث الحسن بن علي - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**» (صحيح الترمذي)، وفي البخاري عندما رأى النبي ﷺ تمرة، قال: «**لولا**

أني أخاف أن تكون صدقة لأكلتها»؛ ولذلك قالوا: «الخوف يولد الورع»؛ فالورع درجة محمودة في دين الله، ولكن الخطأ في فهم الورع والعمل به يورث تشدداً في الدين منهياً عنه.

عقب أبو سالم:

- أظن حديث النبي ﷺ جامعٌ مانعٌ لهذا الأمر، ففي الصحيحين: عن النعمان بن بشير قال رسول الله ﷺ: «**الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس؛ فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات، كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمىً الله في أرضه محارمه..**».

- أحسنت يا أبا سالم، نعم هذا حديث عظيم في بيان أمر الورع والشبهات، وهناك حديث آخر عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال: «**فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة، وخير دينكم الورع، وفي رواية وملاك دينكم الورع**» (صحيح الجامع)، والورع يشمل الورع في النظر والسمع واللسان والبطن والفرج والبيع والشراء، فلا يكاد يوجد شأن إلا ودخل الورع فيه، وفي الصحيحين عن عائشة -رضي الله عنها-، في قصة الإفك أن النبي ﷺ سأل زينب بنت جحش عنها، فقالت: «**أحمي سمعي وبصري ما علمت إلا خيراً**» قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع»، وفي صحيح البخاري عن عائشة -رضي الله عنها-: «**كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟**

قال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية -وما أحسن الكهانة- إلا أني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده في فِيهِ فقاء كل شيء في بطنه»!

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله-: «الورع ترك ما يضر، ومن ذلك ترك الأشياء المشتبه في حكمها والمشتبه في حقيقتها فالأول اشتباه في الحكم، هل هو حرام أو حلال؟ والثاني اشتباه في الحال، فالإنسان الورِع هو الذي إذا اشتبه الأمر عليه تركه إن كان اشتباهاً في تحريمه، وفَعَلَهُ إن كان اشتباها في وجوبه لئَلَّا يأثم بالترك»، شرح رياض الصالحين، نظر إمامنا لساعة الحائط.

- بقيت خمس عشرة دقيقة، لأذان العشاء، لمن يحتاج أن يجدد وضوءه، ودعوني أختم بحديث قتادة وأبي الدهماء أن النبي ﷺ قال: «**إنك لا تدع شيئا لله عز وجل إلا أبدلك الله به ما هو خير لك منه**» (صحيح على شرط مسلم (الألباني).

الخشوع

خشوع القلب لما نزل من الحق واجب

- من محاسن حضور الجماعة، سؤالُ الإخوة عنك إذا غبت عن صلاتين أو ثلاث، على غير عادتك؛ لذلك عندما إلتقيت (أبا وليد) بعد غياب يومين عن صلاة الجماعة، صافحته بحرارة، وسألته عن السبب.

- الحمدلله، كل الأمور بخير -بفضل الله.

رافقني بعد الصلاة.

- بصراحة لا عذر لي في الغياب، ولكني شعرت أنني لا أخشع في صلاتي بالمسجد، فأصابني الكسل، وحديث نفس ووسوسة: بألا داعي للذهاب إلى المسجد؛ فكنت أصلي في البيت.

- أعلم أني مقصر، ولا عذر لي كما قلت لك، ولكن أود أن أصلي بخشوع، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ (المؤمنون).

- الخشوع عمل قلبي، يجتهد الإنسان في تحصيله، ويزيد وينقص، وربما يغيب أحياناً؛ ففي الحديث عن أبي ربعي حنظلة بن الربيع الأسيدي أحد كتاب النبي ﷺ قال: «لقيني أبو بكر - رضي الله عنه - فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافَقَ حنظلة يا أبا بكر، نكون عند رسول الله ﷺ يذكُرنا بالنار والجنة كأنَّا رأي عين، فإذا رجعنا إلى الأزواج والضيعة نسينا كثيراً، قال: فوالله إنّا لكذلك، انطلِقْ بنا إلى رسول الله ﷺ فانطلقنا؛ فلما

رآه قال رسول الله ﷺ ما لك يا حنظلة؟ قال: نافق حنظلة يا رسول الله، قال : وما ذاك؟ قلت: نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنّا رأي عين، فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيراً: فقال رسول الله ﷺ : «**لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي، لصافحتكم الملائكة في مجالسكم، وفي طرقكم، وعلى فرشكم، ولكن يا حنظلة ساعةً وساعةً.. ثلاث مرات**» (رواه مسلم).

فالمسلم تتقلب حاله، من زيادة الإيمان والخشوع والتقوى وتنقص، ولكن لا يترك صلاة الجماعة؛ بزعم أنه لا يخشع فيها.

توقفنا عند مركبته.

- ما معنى الخشوع؟

- لفظ (خَشَع) ورد في القرآن سبع عشرة مرة، جاء في خمسة عشر موضعاً بصيغة الاسم، مثل قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾، وجاء في موضعين بصيغة الفعل في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ (طه)، وقوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (الحديد:١٦).

ولفظ (خشع) له أربعة معان:

- الأول: التصديق والتسليم، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (البقرة).

قال الطبري: إلا على الخاضعين لطاعته، الخائفين سطواته، المصدقين بوعده ووعيده.

- **الثاني**: التواضع والخضوع، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (الأنبياء). أي متواضعين خاضعين.

- **الثالث**: التذلل: ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ (المؤمنون)، قال الطبري: خشوعهم فيها تذللهم لله فيها بطاعته وقيامهم بما أمرهم بالقيام به فيها.

- الرابع: سكون الجوارح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ (طه)، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: سكنت.

والخشوع من آخر ما يتحصله العبد بعد مجاهدة، ولذلك يكون أول ما يفقده، كما قال حذيفة: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع.

وقال الحسن البصري: الخشوع هو الخوف الدائم اللازم للقلب؛ لذلك اتفقوا أن الخشوع محله القلب.

وخشوع كل عبد على قدر علمه بربه، ويتحصله الإنسان في الصلاة بحضور قلبه، فعلى قدر حضور القلب في القراءة بتدبر وتفكر، وفي الركوع، وفي السجود، يكون الخشوع: إذا استحضر العبد أنه إذا كبر للصلاة فإنه يقف بين يدي الله (أي أمام الله -عز وجل).

فإذا قال العبد ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾، قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾، قال الله: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾، قال الله: مجّدني عبدي، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾، قال الله: هذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾، قال الله: هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل. (صحيح مسلم).

هذا في الفاتحة، وهكذا ينبغي أن يستحضر العبد قلبه، فيسمع ما يقرأ، فتدخل المعاني قلبه، ويتحصل الخشوع.

- أحياناً، يتصنع المرء هيئة الخشوع، وليس بخاشع!

نظرت إلى صاحبي مبتسماً.

- ولماذا يتصنع الخشوع؟

لم انتظر إجابته، تابعت حديثي.

- يقول الفضيل بن عياض: يُكره أن يرى على الرجل الخشوع أكثر مما في قلبه. ويقول ابن القيم -في الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق-: «خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء؛ فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء وشهود نِعَم الله؛ فيخشع القلب لا محالة؛ فيتبعه خشوع الجوارح، وأما خشوع النفاق فيبدو على الجوارح تصنعاً وتكلفاً، والقلب غير خاشع».

أردت أن أنهي الحديث ليذهب كل منا لحاجته.

- يا أبا وليد، حضور الجماعة، عمل جسدي، تسمع الأذان، فتتوضأ وتخرج من بيتك، وتأتي إلى المسجد فتصلي مع الإمام، هذه الأمور تجلب لك ما لا يحصى من تكفير السيئات وتكثير الحسنات، ورفع الدرجات، وبعد ذلك تتحصل على ما تريد من التقوى والخشوع والإنابة، إلى غير ذلك من أعمال القلوب، وفقني الله وإياك.

التواضع

هو الخضوع للحق والانقياد له

منذ توفيت والدته، صار يذهب إلى المقبرة مرتين في الأسبوع، إحداهما يوم الجمعة بعد الصلاة مباشرة، يزور أمه، يدعو لها، ومنذ أحد عشر شهراً وهو على هذا الأمر.

- جزاك الله خيرا وأثابك على بِرِّك بوالدتك.

- أشعر أني لم أبرّها كما ينبغي في حياتها، لم أكن أزورها إلا مرة كل أسبوع، أجلس عندها مع إخوتي ثلاث ساعات، مع أن بيتها لا يبعد إلا خمس عَشرة دقيقة عن بيتي، إلا حال مرضها، كنتُ آتيها كل يوم.

- أظن أنها كانت راضية عنك في حياتها؟ كنت أكثر إخوتك عطاء لها، واستجابة لرغباتها.

قاطعني.

- الموضوع ليس استجابة أو تلبية رغبات، ولكن المبادرة لإعطائها الأمان والطمأنينة وراحة البال، وإسعادها. لدي شعور أني لم أكن أبرها كما ينبغي، وأسأل الله أن يغفر لي ذلك، وها أنا ذا لا أنفك أدعو لها في كل ركعة من كل صلاة، وأزورها مرتين كل أسبوع.

في المقبرة رأيت أحدهم، يرش (ماء الورد) على القبر، ويغرس شتلة ريحان، أردت أن أحدثه، منعني صاحبي. في طريق عودتنا إلى المركبة، سألته:

- لماذا منعتني من نصح ذاك الرجل؟

- لأنه كان سيؤذيك بردِّه عليك، هذا ديدنه منذ أشهر، تحدثت إليه مرة، فنهرني، ووصفني بالمتشدد والمتعصب والجاهل، فانسحبت بهدوء، أظنه يكرر عمله كلَّ أسبوعين.

- هذا نوع من الكِبر، كما قال رسول الله ﷺ: «**الكِبْر بطر الحق، وغمط الناس**» (مسلم)، بمعنى أن الكبر يكون في هذين الأمرين، ردّ الحق، والتعالي على الناس، كلاهما كِبر في القلب، أما المؤمن فإنه يخضع للحق، وإن كرهه، ولا يرى أنه أفضل من أحد.

- عامة الناس لا يعرفون هذه القضايا، ويتصرفون وفق خلفياتهم وأفكارهم وأخلاقهم.

- يأسف المرء على من يضيع عمره وهو لا يعرف سبيل النجاة من النار وسبيل دخول الجنة.

بَلَغنا مركبتنا، كنت أتولى القيادة.

- وهل التواضع عملٌ قلبي أم من أخلاق المسلم؟

- التواضع يبدأ في القلب، وينعكس أثره على أخلاق العبد وتصرفاته.

هلَّا بحثت لنا عن بعض الأحاديث والآيات؟ وبالفعل قام صاحبي بالبحث في هاتفه، وأخذ يقرأ. يقول تعالى واصفاً عباده: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (الفرقان)، هوناً، الرفق واللين.

عقبت:

- هذا تصرف وخلق ناتج عن التواضع في القلب. - إليك هذا الحديث:

عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب هيّن ليّن سهل**» (صحيح الترمذي).

ويقول تعالى في الخضوع للحق واتباعه:

﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾**﴾ (الأحزاب).

وهذه الآية نزلت في زينب بنت جحش -رضي الله عنها- وهي ابنة عمة النبي ﷺ ظنَّت أنه يريدها لنفسه، فلما علمت أنه يخطبها لزيد بن حارثة، كرهت وامتنعت لفَرق النسب، فقد كان زيد بالأمس عبداً، فنزلت هذه الآية، فرضِيت، وقيل: إنها نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، والشاهد أن قلب المؤمن ينبغي أن يتواضع لأمر الله عز وجل، ويخضع له، ولا يرفض الحق، وإن كان يخالف هواه، هذا هو التواضع، وإلا وقع في القلب الكِبْر، ويقول ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر**» (مسلم).

- هذه تحتاج إلى تربية قلبية.

- نَعَم هي كذلك، أن يخضع القلب لأمر الله، يؤدي ما يجب عليه ويمتنع عما نهي عنه، ويقدّم أمر الله على رأيه وسنة النبي ﷺ على هواه، هذا هو أصل التواضع، والأصل الثاني ألّا يرى أنه خيرٌ من أحد، كما في

حديث النبي ﷺ : «**إن الله أوحى إلي أن تواضعوا؛ حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد**» (مسلم)، وأغلب الناس يرى أنه خير من غيره، بنسبه أو عشيرته أو ماله أو علمه أو دينه، وهذا من محبطات العمل والعياذ بالله.

والتواضع المحمود على نوعين:

النوع الأول تواضع العبد عند أمر الله إمتثالاً، وعند نهيه إجتناباً؛ فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ في أمره، فيبدو منها نوع إباء وشراد هرباً من العبودية وتثبت عند نهيه طلباً للظفر بما منع منه، فإذا أخضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية.

والنوع الثاني تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه؛ فكلما شمخت نفسه، ذَكَر عظمةَ الرب تعالى وتفرده بذلك وغضبه الشديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه وانكسر لعظمة الله قلبه واطمأن لهيبته، وأخبت لسلطانه فهذا غاية التواضع وهو يستلزم الأول من غير عكس، والمتواضع حقيقة من رُزِق الأمرين والله المستعان.

والفرق بين التواضع والمهانة، أن التواضع يتولّد من العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها فيتولد من بين ذلك كله خلقٌ هو (التواضع) وهو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة لعباده، فلا يرى له على أحد فضلاً ولا يرى له عند أحد حقاً، بل يرى الفضل

للناس عليه والحقوق لهم قبله، وهذا خُلُق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه.

وأما المهانة فهي الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها، كتواضع السفلة في نيل شهواتهم وتذلل طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه، فهذا كله ضِعة لا تواضع، والله سبحانه يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة.

الغيرة

في رحلة عودتنا من الشارقة، أخذنا مجلسينا في الصف الأول، مقابل دفع ثمانية دنانير إضافية، دَخَلَت عائلة، من أب وأم وأربعة أبناء، ثلاث بنات وولد، يبدو أنهم حجزوا التذاكر ولم يحجزوا المقاعد، جلسوا مكرَهين في مقاعد متفرقة، أخذ الأب مجلسه في كرسي الممر بجانب صاحبي، بادرناه بالتحية، وعرضنا عليه أي مساعدة نهوّن عليه ضِيقه.

- الرحلة قصيرة، لا أود أن أزعج أحداً، ولكن شكراً على أية حال.

بعد الإقلاع بعشرين دقيقة، سألني صاحبي وقد كنا بدأنا حوارنا في صالة الانتظار بالمطار.

- **وهل يجوز أن نصف الله بـ(الغيرة)؟!**

- تعرِفُ القاعدة يا أبا طلال، نَصِفُ الله بما وصف به نفسه في كتابه أو في سنة نبيه الصحيحة دون تكييف أو تمثيل أو تشبيه أو تعطيل، وفي الحديث عن عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «**لا أحد أَغْيَرَ من الله؛ ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شيء أحب إليه المدح من الله، ولذلك مدح نفسه**» (متفق عليه)، وتعرف أيضاً حديث سعد بن عبادة؟

- **عندما نزلت آيات الشهود في الزنا؟**

- نعم، نزل قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ (النور).

قال سعد بن عبادة: «لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح عنه -أي لا أضربه بجانب السيف بل بحده قاصداً قتله- فقال النبي ﷺ : «**أتعجبون من غيرة سعد! فوالله لأنا أغير منه! والله أغير مني! من أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن...**» (متفق عليه)؛ فصفة (الغيرة) ثابتة لله عز وجل على الوجه الذي يليق به، سبحانه، وفي الحديث أيضاً بيانٌ لذلك عن عائشة -رضي الله عنها- قال رسول الله ﷺ : «**يا أُمَّة محمد، والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته..**» (البخاري).

كان (أبو مساعد)، الرجل الذي جلس بجانبي يسمع حواري مع صاحبي، دون أن يلتفت إلينا، لاحظنا ذلك، وأعجبنا إصغائه!

سألني (أبو طلال).

- وكيف تكون الغيرة من أعمال القلوب؟!

- يقول ابن حزم، (الغِيرة خلقٌ فاضل مركب من النجدة والعدل؛ لأن من العدل كره أن يتعدى إلى حرمة غيره، وأن يتعدى غيره إلى حرمته، ومن كانت النجدة طبعاً له حدثت فيه عزة، ومن العزة الأنفة من الاهتضام) (مداواة النفوس).

- هذا الكلام، صعب علي فهمه، ألا بسطته أو قرأت شيئا من أقوال (ابن القيم)، فهو أقرب إلى فهمي؟

- يقصد ابن حزم أن من كانت نجدة المظلوم (الفزعة له) طبعاً له، يرفض أن يقع التعدي والظلم عليه، أما ابن القيم -رحمه الله- فيقول:

«كلما اشتدت ملابسة العبد للذنوب أُخرِجَت من قلبه الغِيرة على نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف في القَلب جداً حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك؛ ولهذا كان الديّوث أخبث خلق الله، والجنة حرام عليه، وكذلك محلل الظلم والبغي لغيره ومزينه له، فانظر ما الذي حَمَلَت عليه قلة الغيرة؟

وهذا يدلّك على أن أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له؛ فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح فتدفع السوء والفواحش، وعدم الغيرة تميت القلب، فتموت له الجوارح؛ فلا يبقى عندها دفع البتة، ومثل الغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوة وجد الداء القلب قابلاً ولم يجد دافعاً فتمكن فكان الهلاك...» (الجواب الكافي).

لم يقاوم جارُنا فضولَه فسأل:

- هل المقصود بالغيرة هنا، الغيرة التي نعرفها؟

الغيرة على الزوجة والغيرة على البنات والمحارم؟

إلتفتُّ إليه مبتسماً..

- نعم هذه أول درجات الغيرة، ولذلك جعل الله من يموت دون عرضه شهيداً كما في الحديث، «ومن قتل دون أهله فهو شهيد» (صحيح النسائي)، ويرتقي العبد بغيرته لتصبح الدفاع والغضب لجميع ما حرم الله، فلا يرضى بالفواحش لأيٍّ كان، ولا يرضى أن تنتهك حرمات الله، حيثما كان، ويفصّل ابن القيم هذا النوع من الغيرة، فيقول: «وغيرة العبد على محبوبه نوعان:

غيرة ممدوحة يحبها الله، وغيرة مذمومة يكرهها الله، فالتي يحبها الله: أن يغار عند قيام رِيبة مشروعة، والتي يكرهها الله: أن يغار لمجرد سوء الظن وهذه الغيرة تفسد المحبة وتوقِعُ العداوة»، (روضة المحبين).

- كلام جميل، يا (أبا سعد).

عرّفنا جارنا بنفسه، (أحمد)، كنيته (أبو بدر) يعمل مدرسا للتربية الإسلامية في المرحلة الثانوية.

- أقرأ لكما شيئا مما احتفظت به في ذاكرة هاتفي عن الغيرة؛ حيث لا مجال أن نتصل بالشبكة العنكبوتية في الطائرة. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا؟ قيل: هذا لعمر، فذكرت غيرته فوليت مدبراً**». فبكى عمر وهو في المجلس ثم قال: أَوَ عليك يا رسول الله أغار؟ (البخاري).

تقول أسماء: تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير ناضح وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأستقي الماء، وكنت أنقل النوى من أرضٍ الزبير على رأسي، فلقيت رسول الله ﷺ مع نفر من الأنصار فدعاني، ثم قال: «إخ، إخ» ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان من أغير الناس، فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت فمضى، فجئت الزبير فأخبرته فقال: والله لحملك النوى كان أشد علي من ركوبك معه» (متفق عليه).

ذنوب القلوب

«المحرمات التي على القلب أشد حرمة من الزنا وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر». (مدارج السالكين)

كنت على وشك مغادرة المجلس العائلي الأسبوعي يوم الخميس، حين سألني ابن أختي أحمد:

- ما موضوع خطبة الغد؟

- (ذنوب القلوب) إن شاء الله.

- سمعنا عن طاعات القلوب، لا عن ذنوب القلوب.

- كما للقلب طاعات، كذلك تقع منه المعاصي والذنوب، بل معاصي القلب أشد من معاصي الجوارح، معاصي القلب قد تكون كفراً مخلِّداً في نار جنهم، مثل النفاق والشرك والشكّ، ومنها ما يكون كبائر، مثل الرياء والكِبر والعُجب والخُيلاء والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله، ومنها ما يكون صغائر مثل شهوة المحرمات وتمنيها، فعلى العبد أن يكون أحرصَ ألّا يقع في المعاصي القلبية من الوقوع في المعاصي الظاهرة.

طلبت مني أختي أن أجلس لتستوضح بعض النقاط.

- ولماذا كانت هذه المعاصي القلبية أشد من الكبائر التي نهى عنها النبي ﷺ؟

- سؤال جميل، والإجابة باختصار.

أولاً: هذه الذنوب تتعلق بالقلب، والقلب هو أساس نجاة العبد يوم

القيامة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ (الشعراء). وحديث النبي ﷺ: «**وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» (متفق عليه).

ثانياً: ذنوب القلوب هي التي تؤدي إلى ذنوب الجوارح، فالأصل هو ما يصدر من القلب، من حَسَد أو كِبْر أو عُجب، وغيرها.

ثالثاً: المعاصي الظاهرة، بيّنة واضحة، يعرفها العاصي، فيتوب منها، أما معصية القلب فقلّما يتوب صاحبها، وهذا هو الفرق بين معصية آدم في الجنة، ومعصية إبليس، آدم نسي، وغفل وأكل من الشجرة التي نُهي عنها، فتاب، بمجرد أن رأى أثر المعصية وتذكر، فتاب الله عليه، أما إبليس فكانت معصيته (الكِبر)، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (البقرة)، فتمادى في غَيِّه وكبره، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ (الأعراف).

رابعاً: الوعيد الشديد الذي ورد في القرآن والأحاديث الصحيحة على معاصي القلوب، ومن ذلك قوله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر**» (مسلم).

وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**دبّ إليكم داء الأمم من قبلكم الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**» (السلسلة الصحيحة). وهذه معاصي قلبية، وأحاديث أخرى كثيرة تبيّن أن معصية القلب تُـحبِطُ العمل كله.

وفي حديث آخر، يقول النبي ﷺ : «**ثلاثة لا تسأل عنهم: رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصياً وأَمَةٌ أو عبدٌ أَبَقَ فمات وامرأة غاب عنها زوجها قد كفاها مؤنة الدنيا فتبرجت بعده فلا تسأل عنهم. وثلاثة لا تسأل عنهم: رجلٌ نازع الله عز وجل رداءه فإن رداءه الكبرياء وإزاره العزة ورجل شك في أمر الله والقنوط من رحمة الله**». (صححه الألباني)

علّقت أختي الكبرى (طيبة)...

- قبل أن نذكر السبيل للنجاة من هذه الذنوب يجب التنويه أنها تقع من أهل العبادة، أكثر من غيرهم، ولا سيما ممن لم يكن من أهل العلم الشرعي، فهذا حديث النبي ﷺ: «**أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله تعالى: من ذا الذي يتألَّى عليّ ألا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك**» (مسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كان رجلان في بني إسرائيل متواخين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهدٌ في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصِر، فوجده يوماً على ذنب فقال له: أقصِر، فقال: خلّني وربي أَبُعِثتَ علي رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخِلكَ اللهُ الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد، أكنت بي عالماً، أو كنت على ما في يدي قادراً؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر، اذهبوا به إلى النار**» قال أبو هريرة رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته». (صحيح أبي داوود)

أما سبيل النجاة ففي أمور منها:

أولاً: الالتزام بطاعات القلوب وطاعات الجوارح.

ثانياً: طلب العلم الشرعي الصحيح، والعمل به.

ثالثاً: قراءة القرآن بتدبر وتفكر.

رابعاً: المداومة على ذكر الله عز وجل.

خامساً: الدعاء والتضرع.

في الحديث: عن معقل بن يسار قال: انطلقت مع أبي بكر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال ﷺ: «**يا أبا بكر لَلشرك فيكم أخفى من دبيب النمل**»، فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلهاً آخر؟! فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لَلشرك أخفى من دبيب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟! قل: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم**» (صحيح الأدب المفرد).

الشرك

إن الشرك لظلم عظيم

- منذ بدأت التعمق في دين الله، قراءة، ودراسة، وحضوراً للندوات والمؤتمرات، وأنا أركز على العقيدة، والتوحيد؛ ذلك أنني رأيت أقرب الناس إلي يزورون الأضرحة، ويشدّون الرحال إلى المشاهد، للتقرب إلى الله عند القبر وعند الضريح، وينفقون الأموال نذْراً لصاحب الضريح، ويعتقدون جازمين أنه يقضي حاجاتهم؛ فيشفي المريض، ويفرج الهمّ، ويُخرج من الكُربات، ويُرجِع الغائب، ورأيت أكثر من مرة من يبصر بعد عَمى، عندما تقرّب أهله إلى الضريح ودعاه! ومن مشى على رجليه، بعد أن كان كسيحاً!

- هكذا نقلُوا لنا الخبرَ عندما كنا في إحدى الزيارات، سمعنا تهليلاً وتكبيراً، إيذانا بهذين الحديثين، وإن كنا لم نعلم شيئاً عن حقيقة الأمر.

- إذًا اهتمامك بالعقيدة لم يكن من فراغ.

- كلا، بل من واقع عشته، مع أني لم أمارس شيئاً من ذلك ولم يدخل قلبي شيء من هذه المعتقدات، إلا أن والدتي -رحمها الله- كانت حريصة على أن تأخذنا إلى هذه الأماكن؛ لأنها كانت (متدينة) وأرادت أن نتربى تربية دينية بعيداً عن الفواحش والمحرمات.

استدعاني أحدهم للقاء إذاعي، بإيعاز من أحد المصلين في مسجدنا يعمل في الإذاعة، وكان اللقاء ضمن برنامج (واحة المستمعين).

– وما الذي جعلك لا تتبنى هذه العقيدة التي كانت عليها والدتك؟

– الفضل أولاً لله عز وجل، ومنذ كنت ربما في الصف السابع في سن الثانية عشرة من عمري، وأنا أتساءل، هل يُعقل أن تنفع هذه الأمور، أعني المبيت عند الضريح، والذبح عنده، والنذر له؟

ولماذا لا يكون عند قبر النبي ﷺ، فهو الأجدر أن ينفع لو كان بمقدور مخلوق أن يجلب نفعاً أو يدفع ضراً؟

وبالطبع بَقِيَت هذه التساؤلات في قلبي ولم أُطلِعْ عليها أحداً، ثم بدأت بقراءة كلّ كتاب أحصل عليه في العقيدة، وأظن من أولها كتاب (الأصول الثلاثة)، وجدته في المسجد الذي أصلي فيه، وهكذا بَدَأَت مسيرتي مع كتب العقيدة، ثم بدأت استمع إلى من أثق به من العلماء، وأحضر الندوات، وأزور المشايخ، أناقش، وأقارن، وأحاول أن أجمع وبعد انتهائي من المرحلة الجامعية الأولى، بدأت أجمع أهلي وأقاربي وأبيّن لهم، وكانوا يقبلون مني لثقتهم بي وحسن تعاملي معهم، وتفوقي في دراستي ورضا والدتي عني.

– وما الذي كنت تركز عليه في البدايات؟

– كان كل همي أن أبيّن لهم خطورة الوقوع في الشرك، وأن الشرك يحبطُ العمل، وآتي بآيات من كتاب الله، مثل قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ (الزمر)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ (النساء).

وأن الشرك ليس عبادة الأصنام، فحسب مع أن الأصنام لم تكن إلا

رموزاً لأناس صالحين ماتوا، وإنما الشرك عبادة قلبية واعتقاد في الوجدان بأن أحداً ينفع ويضر ويعطي ويمنع، لمكانته عند الله!

كما قال الله عن مشركي قريش الذين بُعِث فيهم الرسول ﷺ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (الزمر:٣)، فهؤلاء لم يعبدوا غير الله اعتقاداً بهذه المعبودات، وإنما ليقربوهم إلى الله، بمعنى أنهم واسطة بينهم وبين الله، وهذا الإعتقاد وصفه الله بالشرك، وأمر أن يكون التقرب إليه مباشرة، في الدعاء والاستغاثة، والنذر، والحلف، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ (الجن)، والشفاعة أيضاً، لا يملكها إلا الله كما قال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ﴾ (يونس:٣)، وكذلك ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ (البقرة:٢٥٥)، حتى النبي ﷺ، لا يملك الشفاعة لأحد إلا بعد أن يستأذن ربَّه، ويأذن له ربُّه، أن يشفع لفئة معينة كما في حديث الشفاعة الطويل.

قاطعني مقدم البرنامج:

- وهل كانت هناك استجابة وقبول لما تقول؟

استأذنته أن آخذ جرعة ماء.

- كان هناك تلقٍ واستماع، وذلك أن الموضوع كان جديداً في وسط أسرتنا، وبفضل الله، ظهرت نتائجه بعد سنين، بأن الغالب فَهِمَ معنى التوحيد، والشرك، وأنه ينبغي أن يحذر المرء كل الحذر من الوقوع في الشرك.

وماذا عن الفرق بين الكفر والشرك؟

– هذان لفظان إذا اجتمعا افترقا في المعنى وإذا افترقا اجتمعا، الكفر معناه لغة التغطية؛ ولذلك يسمى الزرّاع (كفار)، كما قال تعالى:

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ (الحديد).

فالكافر هو من يغطي الحق، وينكره، كمن ينكر شيئاً من أركان الإيمان: الإيمان بالله، والملائكة والكتب الرسل واليوم الآخر، والقضاء، والقدر.

والشرك صرف شيء مم اختص الله به لغير الله أو مع الله، كمن يعبد الله، ويعبد معه غيره، كمن يدعو الله، ويدعو المخلوق، فيقول: (يا الله.. يا رب)، ثم يقول (يا فلان)، ويعتقد أن هذا المخلوق ينفع وإلا لما دعاه، وكمن يسجد لله ويسجد لغير الله، وكمن ينذر لله، وينذر لغير الله، فهو يعبد الله ويعبد مع الله مخلوقاً يعتقد فيه أنه ينفع في شيء من دخول الجنة أو النجاة من النار، أو الرزق، أو العافية، أو غير ذلك من أمور الدنيا أو الآخرة؛ ففي الحديث، يقول رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي غيري تركته وشركه**» (مسلم).

قاطعني مقدم البرنامج مرة ثانية:

– لا أظن أن العامة بحاجة لمعرفة تفاصيل العقيدة ودقائقها وخلاف

علماء السنة والفلاسفة والطوائف في المسميات، وإنما الرجل العامي المسلم يحتاج إلى مفاهيم عامة، كما كان عامة المسلمين في عهد الرسول ﷺ وبعده.

- أحسنت، نعم لا ينبغي الخوض في نقاش كلامي أو فلسفي حول مفاهيم العقائد، بل العقيدة والتوحيد الذي أتى به النبي ﷺ بسيط واضح، بدأ بـ(لا تعبدوا إلا الله)، لا تتقربوا إلى الأصنام، ولا إلى الأموات؛ فإنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً إلا الله، كما في حديث ابن عباس: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**» (صحيح الجامع)، على العبد ألَّا يدعو غير الله، ولا ينذر إلا لله، ولا يذبح تقرباً إلَّا إلى الله، ولا يحلف بغير الله، ولا يتعلَّق قلبه حبّاً وتعظيماً وخوفاً ورجاءً، بأحد مع الله، نعم نحب النبي ﷺ وحبه دين، ونحب أهل البيت وحبهم دين، ونحب الأولياء والصالحين وحبهم دين، ولكن حبهم ليس كحبِّنا لله عز وجل، وتعلقنا بالله، نسأل الله أن يشفعوا لنا بحبنا لهم، ولكنهم لا يملكون هم الشفاعة وإنما بإذن الله، ولا أحد يملك المغفرة إلا الله، ولا أحد يملك إدخال الجنة والنجاة من النار إلا الله، فإذا نقَّى العبدُ قلبَه لله عز وجل، وصرف هذه العبادات لله وحده، ودعا الله مخلصاً أن يوفقه للتوحيد الخالص وينجيه من الشرك، فهذا هو المطلوب من عامة المسلمين.

الشرك بالله (٢)

﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ (المائدة).

– أعظم ذنب يقع في الأرض هو الشرك بالله.. ذلك أن الشرك يحبط العمل.. ويخلّد صاحَبه في نار جهنم.. لذلك لا يزال العبد في أملٍ ورجاء ما لم يقع في الشرك..

– جميع المسلمين يعلمون ذلك.. ويشهدون (ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)..

كنت وصاحبي في زيارة لأخ لنا دعانا للعشاء بمناسبة ترقيته في وظيفته.. كان الاتفاق أن نصلي العشاء في المسجد الأقرب إلى منزله.

– إن المفهوم العام للشرك لا يكفي لاجتناب الوقوع فيه.. بل يجب على العبد أن يعرف تفاصيل الشرك وأنواعه وألفاظه.. حتى لا يقع في صغيره أو كبيره.. أو ظاهره أو خفيه. ففي الحديث أن النبي ﷺ أرشد الرجل الذي قال (ما شاء الله وشئت يا محمد).. قال له النبي ﷺ: «**أجعلتني لله نداً؟ قل ما شاء الله وحده**» (السلسلة الصحيحة).. والشرك هو الذنب الوحيد الذي لا يغفره الله عز وجل كما تعلم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ (النساء: ٤٨، ١١٦)، توقفت حركة السير.. حادث مروري أغلب الظن...

– لذلك يجب على كل مسلم أن يرشد عامة الناس وخاصة من لا

علم لديهم.. إلى خطورة الشرك... وذلك بألَّا يتعلق القلب إلا بالله عز وجل.. فيبيّن لهم.. ألا يطلبوا حوائجهم إلا من الله مباشرة.. فلا يدعوا غير الله.. ولا ينذروا لغير الله.. ولا يحلفوا بغير الله.. ولا يذبحوا لغير الله.. ولا يسجدوا لغير الله.. وهذه قضية تبدأ بالقلب.. بألَّا يعظم القلبُ أحداً تعظيمه لله.. فلا يصرف شيئاً مم اختص الله به لغير الله... فالرزق.. من الله وحده.. والنفع والضر بيد الله وحده.. وإنجاب الولد بإذن الله وحده.. والمغفرة ودخول الجنة والنجاة من النار.. عند الله وحده.. فلا ينبغي للقلب أن يلتفت إلى أي أحد مع الله.. لا مَلَكٌ مقرَّب ولا نبي مرسل.. الله سبحانه وتعالى.. طلب أن نتوجه إليه مباشرة.. ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠)، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ (البقرة: ١٨٦)، فلا ينبغي لعبد أن يقول (يا فلان).. أو (يا شيخ).. أو (يا سيد).. من الأموات.. بل يقول (يا الله..).. (اللهم .. ارزقني).. (اللهم عافني)، (اللهم اغفر لي)، (اللهم أدخلني الجنة).. (اللهم نجني من النار).. وحتى الشفاعة لا ينبغي أن يسألها أحد.. فيقول (يا سيد) اشفع لي عند الله.. أو (بشفاعة فلان..) اغفر لي يا رب..

الشفاعة من الأمور التي اختص الله بها فلا يملكها أحد غيره.. وهو سبحانه يأذن لمن يشاء أن يشفع لمن شاء كما قال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ﴾ (يونس: ٣)، حتى النبي ﷺ الذي هو أكرم الخلق على الله لا يملك الشفاعة إلا بعد إذن الله عز وجل!!

لم يتبق على الأذان سوى خمس دقائق.. عبرت سيارة الإسعاف وعدة مركبات للشرطة إلى موقع الحادث الذي اقتربنا منه..

تابعت حديثي..

في حديث الشفاعة قال النبي ﷺ: «**فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها.. لا تحضرني الآن فأحمده بتلك المحامد وأخِرَّ له ساجداً فيقول يا محمد إرفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعطَ، واشفع تُشفَّع، فأقول يا رب أمتي أمتي.. فيقول إنطلق فأخرج من النار من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان.. فأنطلق فأُخرِج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان**... إلى تمام الحديث» (متفق عليه).

والمعنى أن الله سبحانه وحده هو الذي يأذن لمن شاء من عباده.. ليشفع في الفئة التي يحددها الله عز وجل... فليس لأحد أن يشفع لمن شاء.. من أتباعه أو أقربائه أو حزبه.. أو شيعته.. كله بإذن الله ابتداء وانتهاء.. أدركنا موقع الحادث.. كان رجلان ممدين على الأرض يباشرهما رجال الإسعاف، سألنا الله للجميع السلامة.. والعافية من هذا الكرب..

أذَّن العشاء.. هاتَفْنا صاحبنا.. أخبرناه أننا قد لا ندرك صلاة العشاء معه.. سنصلي في أقرب مسجد ثم نأتيه المنزل ذلك أن الصلاة تقام بعد عشر دقائق من الأذان..

- والله عز وجل حذَّر من الشرك أشدَّ تحذير فقال: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ (الزمر).. هذا خطاب من الله عز وجل لنبيه ﷺ.. الذي أرسله لإقامة التوحيد وإزالة الشرك كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ

بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف)، قال سبحانه: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾... فلا تصرَفُ عبادةٌ لأحد مع الله... ومن العبادة... الدعاء.. بل هو أهم عبادة كما قال ﷺ: «الدعاء هو العبادة» (صحيح الترغيب)، والذبح عبادة كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ (المائدة).

والنذْرُ عبادة.. والحلف عبادة.. والسجود عبادة.. والعبادات القلبية أعظم من العبادات البدنية.. فالتوكل عبادة.. ولا يصرف لغير الله.. والخوف والرجاء عبادة.. والحب والتعظيم عبادة.. كلها عبادات قلبية عظيمة لا ينبغي أن تصرف إلا لله.. فمن جعل شيئاً منها لغير الله مع الله.. فقد أشرك.. كمن اعتقد أن أحداً ينفع ويضر.. أن يقضي الحاجات.. أو يرزق الولد.. أو يشفي المريض.. كل ذلك إعتقاد باطل يؤدي إلى الشرك..

- إن المسلم ليحزن عندما يزور دول العالم الإسلامي.. شرقاً أندونيسيا وغرباً بلاد المغرب، مروراً بالشام ومصر والعراق.. ويرى المسلمين ينذرون للقبور.. ويدعون أهل الأضرحة.. ويذبحون تقرباً للقبب والمزارات... يتفطر قلبه.. ويدعو الله أن يعيد هذه الأمة إلى رشدها وتوحيدها ربها..

النفاق

من الأمور التي أحرص عليها عند جدولة السفر، ألا تفوتني صلاة الجمعة، لاسيما إذا كان الترتيب مسؤوليتي، دون إلتزام بموعد مستشفى أو محاضرة في مؤتمر أو غير ذلك. كنت وصاحبي في رحلة لتفقد منزله في إسبانيا، أدينا صلاة الجمعة في مسجد جميل، واسع، خارج (ماربيا)، بعد الصلاة كان هناك (غداء خيري)، شاركنا فيه. جاورني شخص ملتح، بادرته بالسلام، عرفت بعد ذلك أنه من ليبيا، سألني:

- ما رأيك بالخطبة؟

- كانت موعظة جيدة، ذكرنا فيها بالآخرة، والأعمال الصالحة المنجية، ويحتاج أحدنا لمثل هذه المواعظ، مع كثرة مشاغل الدنيا.

- وهكذا هو دائماً، يتكلم عن الأعمال الصالحة والآخرة والنجاة من النار، وهذه الأمور، ولم أسمعه مرة قط يتكلم عن حكام البلاد الإسلامية، وأنهم أصبحوا عبيداً لليهود والنصارى، وخَدَماً للصهيونية وأمريكا.

كان حريصا ألا يسمعنا أحد، مع حماسه في كلامه، تابع حديثه: - هذا وغيره، أئمة السلاطين، يتكلمون بقدر ما يدفع لهم، كالمنافقين.

أغضبني كلامه، تمالكت نفسي!!!

- لِمَ تصلي خلفه إذا كنت لا تحب ما تسمع؟

- مع الأسف جميع المساجد هنا، تتبع ذات المنهج (التطبيل) للحكام

والدعاء لهم، والتذكير بالآخرة، ولا أحد ينتقدهم أبداً، كلهم يتكسبون بخطبهم، ويريدون رضا أسيادهم عنهم، وبصراحة أرى ذلك (نفاقا).

- أظن أنه ينبغي أن تتريث قبل أن تصف أحداً بالنفاق.

النفاق عمل قلبي بالدرجة الأولى، وذنبٌ عظيم، من يمت منافقا فهو في (الدرك الأسفل من النار)، كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** ﴿١٤٥﴾﴾ (النساء)، والقرآن ذكر كثيراً من صفات المنافقين الظاهرة والباطنة وجاء ت هذه الآيات في صدر سورة البقرة وآل عمران والنساء والأنفال والأحزاب ومحمد والفتح والحديد والمجادلة والحشر والمنافقون والتوبة. قاطعني:

- **هل أنت حافظ للقرآن؟**

- كلا، ولكن أحفظ منه ما يكفي، تابعت حديثي:

والنبي ﷺ بيّن صفات المنافقين وأخلاقهم وعبادتهم، كما في الحديث، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً**» (مسلم)، والحديث الآخر أظنك تعرفه: «أربع من كن فيه...»، قاطعني:

- نعم أعرفه، (كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، «**إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**») (متفق عليه).

- نعم، أحسنت، وهنا ينبغي بيان أن هذه تدخل في باب النفاق العملي

(النفاق الأصغر)، وليس هو المقصود في الآية رقم (١٤٥) من سورة النساء، ولكن هذا النفاق الأصغر أيضا شأنه خطير؛ لأنه جسر إلى النفاق الأكبر الذي هو نفاق القلب، وفي الحديث، قال ﷺ: «**مَثَلُ المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين -يعني المترددة الحائرة- تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة لا تدري أيهما تتبع**» (مسلم).

كان صاحبي منصتا، لا أدري إنصات تدبر أم إنصات إنكار! قررت أن أكمل بياني، إقامةً للحجة وأداءً للأمانة.

- لذلك وصْف شخص بالنفاق لا يملكه أحد، حتى النبي ﷺ، لم يكن يعرفهم بأسمائهم إلا أن الله عرّفه إياهم كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ** ﴿٣٠﴾﴾ (محمد)، والنبي ﷺ أعلمهم أمين هذه الأمة حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه -، فأتاه عمر - رضي الله عنه - واستحلفه أن يخبره إن كان النبي ﷺ قد سماه معهم! فقال حذيفة - رضي الله عنه -: (كلَّا ولا أقولها لأحد بعدك!)، والرسول ﷺ كان يعاملهم معاملة المسلمين فيصلي عليهم بعد موتهم إلى أن أتاه النهي من الله تعالى كما في الحديث: قام النبي ﷺ ليصلي على رأس النفاق عبدالله بن أُبَيّ ابن سلول، جذبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بثوبه، وقال: لا تصلّ عليه يا رسول الله! أنسيت ما صنع؟! لقد صنع كذا في يوم كذا، وكذا في يوم كذا، فجذب رسول الله ﷺ ثوبه وقال: «دَعْني يا عمر؛ فلقد خيَّرني الله جل وعلا بين أن أستغفر لهم أو لا أستغفر لهم»، ثم صلى الرسول ﷺ على رأس النفاق، وينزل القرآن على الحبيب ﷺ موافقاً لرأي عمر رضي الله عنه، وهو قول الله جل وعلا:

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (التوبة).

يقول ابن القيم: «هم أخبث بني آدم وأقذرهم وأرذلهم، آذوا رسول الله ﷺ وأصحابه أذية شديدة، فعابوا على رسول الله ﷺ قسمته وسخروا بصحابته، وهزئوا بالمتصدقين منهم، ورجع رأسهم عبدالله بن أُبيّ يوم أحد بثلث الجيش والمسلمون أحوج ما كانوا للعدد والعدة.

وهم الذين أثاروا الفتنة على أمير المؤمنين عثمان - رضي الله عنه - وحرضوا عليه غوغاء الناس، حتى قتل شهيداً صابراً محتسباً، كما وصاه النبي - ﷺ - بقوله: «**يا عثمان، إن الله مقمصك قميصاً، فإن أرادك المنافقون على خلعه، فلا تخلعه حتى تلقاني**» (صحيح الترمذي).

وهم الذين كانوا وراء حادثة الإفك الشهيرة التي أرادوا من ورائها تشويه بيت النبوة الشريف. ومن خطورة هذا النفاق الأصغر: أنه سُلَّمٌ وجسرٌ إلى النفاق الأكبر، إذا استمر صاحبه على أخلاق المنافقين، وأَكثَرَ من شعب النفاق ولم يدعها.

كما ثبت في (الصحيح): «**إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار**». وقد بينت الرواية الأخرى: أن عمله بعمل أهل الجنة ذاك، إنما كان (فيما يبدو للناس).

الشك

شهادة بلا يقين.. لا تنفع صاحبها

(طارق).. يلتزم بصلاة الجماعة فترة.. ثم يختفي فترة أخرى.. ثم يعود.. للمسجد لجميع الصلوات بما فيها صلاة الفجر ثم يختفي.. انتظرني بعد صلاة عصر الجمعة.. سألني..

- هل يمكن أن آخذ من وقتك...

- بالطبع.. تعال نجلس في مكتبة المسجد..

بعد فترة صمت.. قال..

- أخشى أن أقع في الكفر أحياناً.. تأتيني أفكار لا أستطيع السيطرة عليها.

قاطعته..

- ما يأتيك ليس بكفر.. ما يأتيك وسواس يأتي أي مسلم. الكفر هو الشك... في الله أو الملائكة أو اليوم الآخر أو غيرها من أركان الإيمان.. أما الوسواس فلا شيء..

استغرب إجابتي.. وكأنني أهوّن من أمر عظيم!!

- وما الفرق بين الشكّ.. والوسواس؟

- هذا السؤال... مهم جداً والإجابة عليه ينبغي أن يتعلمها كل مسلم حتى لا يصبح فريسة سهلة للشيطان..

اعتدل في جلسته.. وأصغى منتبهاً.. يريد أن يسمع التفصيل..

أولاً: الوسواس هي خواطر شيطانية تأتي قلب الإنسان وفكره لا إرادياً.. ويمكن بل يجب التخلص منها كما علّمنا رسول الله ﷺ.. فقد شَكَى بعض الصحابة لرسول الله ﷺ. قالوا: «**يا رسول الله إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلم به**» قال ﷺ: «**وقد وجدتموه؟**»، قالوا: نعم.. قال: **ذلك صريح الإيمان**» (صحيح مسلم).

بمعنى أنه إذا أتى ودفعتموه.. فهذا هو الإيمان.. وفي الحديث الآخر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينتهِ**» (متفق عليه)... بمعنى أن يقول (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم).. فإن هذا يوقِفه.. ولا يستمر مع هذا الوسواس... وهذه الوساوس لا أثر لها.. ولا ذنب فيها.. وتذهب بمجرد ذكر الله.. والاستعاذة من الشيطان.

أما الشكُّ.. فهو أمر إرادي.. يأتيه الإنسان.. ويحاجّ به.. وهو نقيض «اليقين»... وهو الذي فعله الكفار مع جميع أنبياء الله تعالى... كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ (إبراهيم).

فالعبد لا يخرج من دائرة الكفر ويدخل دائرة الإيمان حتى يحقق (اليقين) بكل ما جاء من عند الله عز وجل.. بل يجب على العبد أن يكون متيقناً بكل أركان الإيمان.. لا يشك بشيء منها.. كما قال النبي ﷺ: «**لا إله إلا الله وأني رسول الله.. لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍ فيهما إلا دخل الجنة...**»، وفي رواية: «**مستيقناً بها قلبه**» (مسلم).. فالعبد يتعلم ما يجب عليه من أركان الإيمان.. ويصدّق بهذه الأركان.. ولا يتزعزع هذا العلم والتصديق أبداً.. لأنه يكون يقيناً لا يخالطه شك!!

سألني..

- وما الفرق بين الريب والشك؟

- هاتان كلمتان إذا افترقتا كان لهما نفس المعنى.. وهو التردد بين شيئين... والنجاة لا تتحقق إلا بانتفاء الشك والريب في دين الله وأركان الإيمان.

- الكفر الأكبر خمسة أنواع: كفر تكذيب وكفر استكبار وإباء مع التصديق وكفر إعراض وكفر شك وكفر نفاق.

فأما كفر التكذيب: فهو اعتقاد كذب الرسل وهذا القسم قليل في الكفار فإن الله تعالى أيّد رسله وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة، قال الله تعالى عن فرعون وقومه ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ (النمل: ١٤).

وقال لرسوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾ (الأنعام).

وإن سمي هذا كفر تكذيب أيضاً فصحيح، إذ هو تكذيب باللسان، وأما

كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس فإنه لم يجحد أمرَ الله ولا قابله بالإنكار وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار ومن هذا كفر من عَرَف صِدقَ الرسول ﷺ وأنه جاء بالحق من عند الله ولم يقبله إباءً واستكباراً، وهو الغالب على كفر أعداء الرسل كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (المؤمنون). وقول الأمم لرسلهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ (إبراهيم: ١٠). وقوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ (الشمس). وهو كفر اليهود كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ (البقرة: ٨٩). وقال: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ (البقرة: ١٤٦).

وأما كفر الإعراض: فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول ﷺ ولا يصدقه ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغي إلى ما جاء به ألبتة، كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي ﷺ: والله أقول لك كلمة إن كنتَ صادقاً فأنت أجلّ في عيني من أن أرد عليك، وإن كنت كاذباً فأنت أحقر من أن أكلمك.

وأما كفر الشك: فإنه لا يجزم بصدقه ولا بكذبه بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكّه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول جملة فلا يسمعها ولا يلتفت إليها، وأما مع إلتفاته إليها ونظره فيها: فإنه لا يبقى معه شك لأنها مستلزمة للصدق ولا سيما بمجموعها فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

وأما كفر النفاق: فهو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوي بقلبه على التكذيب فهذا هو النفاق الأكبر.

الجحود

- من المؤلم أن تحسن إلى أحدهم فيسيء إليك.. وتقف معه في محنته ثم ينقلب عليك.. وتنعم عليه بخيرك.. ثم يكفر بعطاياك..

- بل العبد ينبغي أن يتوقع ذلك من البشر.. فيذكِّر نفسه أن يحسن للآخرين دون أن يتوقع منهم شيئاً.. بل يكون دافعه دائماً.. رضا الله وثوابه.. لا ثناء الناس.. وشكرهم لمعروفه..

كان صاحبي يحدثني بشيء من الحسرة والحزن.. لما رآه من سوء تعامل أحد أقربائه..

دعني أحدثك عن الجحود... فهو من ذنوب القلوب.

لغة (ج ح د) تدل على قلة الخير.. ولا يكون الجحود إلا مع علم الجاحد به.. أي يعلم ما يجحد.. كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤﴾ (النمل).

وقيل (الجحود) هو الإنكار مع العلم.. كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ٣٣﴾ (الأنعام).

أخذنا مجلسنا في المقهى المطل على الشاطئ.. مكان هادئ.. يوم الثلاثاء.. بعد صلاة العشاء...

- والجحود نوع من أنواع الكفر.. فهناك كفر العناد.. ككفر إبليس.. وكفر النفاق وكفر الإعراض وكفر الشك وكفر الإنكار.. وكفر الشرك..

وكفر الجحود.. مصدره الاستكبار.. كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ (فصلت).

وكفر الجحود نوعان.. مطلق عام.. ومقيد خاص..

فالعام هو إنكار جملة ما أنزل الله.. والخاص أن يجحد شيئاً من الدين كالصلاة أو الصيام أو حرمة شيء من الكبائر مما يعلم بالضرورة..

قام النادل بوضع طلبنا من الشاي الأخضر وشاي البابونج.. والمكسرات.. والحلويات.. وسكب لكل طلبه..

تابعت حديثي..

- وورد ذكر أهل الجحود في كتاب الله بأشنع الصفات..

فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الأحقاف)، وهؤلاء الذين لا تنفعهم أفئدتهم وأبصارهم وسمعهم وصفهم الله في آية أخرى فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (الأعراف).

ووصفهم الله عز وجل في آية أخرى فقال:

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٦٣﴾ (غافر)، فهم أهل إِفْكٍ وكَذِب.

وقال الله عنهم في سورة لقمان...

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝٣٢﴾ (لقمان).

والختَّار.. هو الغدار!! ووصف الله أهل الجحود بالكفر وبالظلم..

فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٤٧ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٤٩﴾ (العنكبوت).. وذلك أن الحق بيّن.. والحجة واضحة.. لا ينكرها.. إلا ظالم.. كافر.. متكبر.. غدار..

وهكذا كان حال كفار قريش.. في تفسير قوله تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ (الجاثية: ٢٣). قال مقاتل: نزلت في أبي جهل.. وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة... فتحدثا في شأن الرسول ﷺ فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه لصادق!!

فقال الوليد: صه يا أبا الحكم!! وما دلك على ذلك؟!

قال: يا أبا عبد شمس.. كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تم عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن؟! والله إني لأعلم أنه لصادق.

قال: فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به؟ قال: تتحدث عني قريش أني قد اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة؟ واللات والعزى إن اتبعته أبداً!!

هذا هو الجحود.. استكباراً.. يعلم الحق.. ولا يتبعه.

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد فقال يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها وما يراد بها. قال ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا

فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كَفَرَسَيْ رهان قالوا: مِنّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه. قال فقام عنه الأخنس وتركه.

- نسأل الله العافية.. وحسن الخاتمة..

ذهب عن صاحبي بعض ما كان في قلبه من حزن.. وكدر..

- هل تعلم أن من أسباب سوء الخاتمة والعياذ بالله.. كُفر نِعم الله.. والشك بقَدَرِ الله.. والجحود لأوامر الله.. وذلك أن وقت الاحتضار لا يملك العبد من أمره شيء.. فيموت على ما كان عليه.. من كان على ذكر الله.. يسَّر الله له ذكره.. ومن كان منغمساً في أهوائه.. استحضرها ساعة موته.. ومن كان منشغلاً بأمواله.. مات وهو يعدها.. ومن كان جاحداً.. حجب عنه ما يرجو من رحمة الله..

الغلوّ في الدين

– مشكلةُ كثير من الذين يرجعون إلى الدين بعد سنوات من الغفلة والانغماس في الشهوات.. أنهم يريدون أن «يطبقوا» كل شيء.. وذلك لحماسهم في بادئ الأمر.. مما يؤدي بهم أحياناً إلى انتكاسة أخرى!!

– **والعلاج.. أو الحل؟**

– الحلُّ.. اتباع هدي النبي ﷺ والعلم الشرعي الصحيح.. العقيدة الصحيحة.. العبادات وفق السنة.. الأخلاق والعبادات القلبية.. ودعاء الله.. في الحديث.. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن هذا الدين يُسر ولن يشاد الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**» (البخاري).

والمعنى: النهي عن التشدد في الدين بأن يحمّل الإنسانُ نفسه من العبادة ما لا يطيق إلا بتكلف، فالدين لا يؤخذ بالمغالبة.. «فسددوا» إلزموا التوسط في العمل.. ولا تهلكوا أنفسكم في طلب الكمال.. وإنما اعملوا بما يقرب إليه..

كنت وصاحبي في طريقنا إلى المقبرة نؤدي صلاة العصر.. ونصلي على جنازة ونتبعها حتى تدفن رجاء أجر القيراطين!!

– بعض الناس يُلِزم أهله.. ما لا يطيقون.. بعد أن كان يسمح لهم بكل شيء.. كان يسمح لهم بالفضائيات.. والخروج إلى الأسواق.. والمطاعم.. وبعد تغيّر حاله.. حرّم دخول التلفاز إلى بيته!!

- بصراحة معظم ما يعرض في التلفاز لا يتفق وتعاليم شريعتنا..

- صدقت.. ولكن بالحكمة.. والحلم والأناة.. وإذا رجعنا في تعاليم الإسلام.. فقد وصفها النبي ﷺ بـ «اليسر».. ونهى ﷺ عن الغُلّو في الدين.. ففي الحديث عن ابن عباس قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على راحلته: هات أُلقط لي.. (أي حصيات رمي الجمرات).. فلقطت له حصيات هي حصى الخذف فلما وضعتهن في يده قال: بأمثال هؤلاء وإياكم والغُلوّ في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين» (السلسلة الصحيحة).

- بعض الناس يرى إلتزام هدي النبي ﷺ (غُـلُـواً).. وكـأنّ الأمر نسبياً!!

- قطعاً ليس الأمر كذلك.. هديُ النبي ﷺ.. هو الكمال.. في كل شيء.. وتعرف حديث الثلاثة الذين أَتَوا يسألون عن عبادة النبي ﷺ.. فكأنهم تقالوّها.. وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. قال أحدهم أما أنا فأصلي الليل أبداً وقال الآخر وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الثالث وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج.. فجاء النبي ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أَمَا والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي.. فليس مني» (البخاري).

دخلنا المسجد.. وقد أذّن للعصر.. لاحظت أنهم يؤخرون إقامة الصلاة

إلى نصف ساعة بعد الأذان... أدينا السنة وانتظرنا إقامة الصلاة.. صلينا على جنازتين.. انتظرنا دفنهما..

في طريق عودتنا تابعنا الحديث...

- والغُلُوّ في الدين.. مثل أن لا يتكلم إذا صام... أو لا يصلي في مكان إلا أن يضع سجادته لأنه يشك في طهارة المكان.. أو أن يغيّر ثيابه كلما دخل لقضاء حاجته.. أو أن يمتنع عن الأكل إلا من طبخ بيته... وقد بيّن الله عز وجل أن هذا الغلو كان في أمم قبلنا.. فقال تعالى:

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الحديد).

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾، والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، وأوجبوها على أنفسهم، ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين إلتزموا بها من تلقاء أنفسهم، قصدهم بذلك رضا الله تعالى، ومع ذلك ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ﴾ أي: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم. فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم.

وهذا ما بيّنه النبي ﷺ في الحديث: «إنما أهلك من كان قبلكم الغُلُوّ في الدين».. وكذلك قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ (النساء: ١٧١).

– وكيف يكون الغُلُو في الدين من ذنوب القلوب.. وهو زيادة في العبادة؟!

– مصدَرُ هذه الزيادة اعتقاد في القلب.. بأن هذا أقرب إلى الله وأحب إلى الله وأثوب عند الله... وإلا ما فعله.. دافع هذه العبادات أمر قلبي... فإذا استقام القلب.. صلحت العبادة.. لذلك هو من ذنوب القلوب..

– وماذا من حديث.. «هلك المتنطعون».

– هو حديث متفق عليه. – عن الأحنف بن قيس عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «**هلك المتنطعون.. هلك المتنطعون.. هلك المتنطعون**».

أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.

وعن سهل بن أبي أمامة – رضي الله عنهما – أنه دخل هو وأبوه على أنس ابن مالك بالمدينة، في زمان عُمَرَ بن عبد العزيز، وهو أميرُ المدينة فإذا هو يُصلي صلاة خفيفة دقيقة، كأنها صلاة مسافر، أو قريبٌ منها، فلما سلَّم قال: يرحمُك الله، أرأيت هذه الصلاة المكتوبة، أو شيء تنفّلته؟ قال: إنها المكتوبة، وإنها لصلاة رسول الله ﷺ ما أخطأتُ إلا شيئاً سَهَوْتُ عنه، ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**لا تشددوا على أنفسكم فيُشدَّد عليكم، فإنَّ قوماً شدَّدُوا على أنفسهم، فشُدِّد عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم**» (جامع الأصول).

وعن سعيد بن العاص أن عثمان بن مظعون: قال: يا رسول الله ﷺ الله أئذن لي في الاختصاء فقال له: «**يا عثمان إن الله قد أبدلنا بالرهبانية الحنفية السمحة والتكبير على كل شرف فإن كنت منا فاصنع كما نصنع**» (المعجم الكبير).

- وماذا عن الغلو في الصالحين؟

- هذا أشد أنواع الغلو.. وقد يؤدي إلى الشرك وله شرح سيأتي إن شاء الله.

الغُلُوّ في الصالحين

- أما الغلو في الأنبياء والأولياء والمشايخ والصالحين فإنه أول باب أدخل الجهلة في الشرك الأكبر..

- هذه عبارة قوية.. الشرك الأكبر؟..

- نعم.. الشرك الأكبر وذلك كما ورد في تفسير قوله تعالى.

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ (نوح).

في البخاري عن ابن عباس «أن وداً وسُواعاً ويغوثَ ونسراً كانوا من صالحي قوم نوح، فلما هلكوا، أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا (فلم تعبد).. حتى إذا هلك أولئك وتنسخ بالعلم عُبِدت.. وصارت الأوثان التي كانت في قوم نوح إلى العرب.. أما (وُدٌ) فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما (سُواع)، فكانت لهذيل، وأما (يغوث) فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجُرف عند سبأ، وأما (يعوق) فكانت لهمدان، وأما (نسر)، فكانت لحمير لآل ذي الكلاع...».

- لقد تربينا ونحن نسمع آباءنا يعظمون بعض المشاهد والأماكن التي فيها آثار الصالحين.. أو يظنون أنهم مروا بها.. أو مكثوا فيها.. مثل ما كان عندنا في الكويت جزيرة فيلكا تحديداً مقام ينسب للخضر... يقدمون له النذور ويطلبون فيه شفاء المرضى.. حتى هدم عام (١٩٧٦م)...

كنت وصاحبي في طريق عودتنا من المقبرة.. وفي الشهر الحادي عشر الميلادي يكون النهار قصيراً.. قررنا أن نوقِف مركبتنا عند المسجد.. ونتريض.. إلى أن يؤذن المغرب..

عقّب صاحبي..

- لقد رأيت شيئاً من ذلك في السودان.. خلال زيارتي الوحيدة.. للخرطوم.. هناك يبنون قباباً من الطين.. للصالحين.. ويضعون عليها سَدَنة، أذكر منها.. ضريح الشيخ الشريف الهندي، وضريح «الكباشي».. إن لم تخنّي الذاكرة.

- هذا باب عظيم للوقوع في الشرك الأكبر، لذلك نهى النبي ﷺ عن مدحه وتعظيمه.. فقال ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم.. فإنما أنا عبده.. فقولوا عبد الله ورسوله**» (متفق عليه).

ونهى عن المبالغة في مدحه.. كما في الحديث.. أن ناساً جاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا له: أنت سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا، فقال ﷺ: «**قولوا بقولكم أو بنحو قولكم هذا، ولا يستجرينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسول الله**» (السلسلة الصحيحة).

وللأسف، لا يكاد يخلو بلد إسلامي من ضريح يزوره الناس وينذرون له ويدعون عنده.. رجاء كشف ضر، أو جلب نفع... وهذا من جهلهم بالعقيدة الصحيحة، وأن هذا شرك أكبر بالله عز وجل..

قام صاحبي بالبحث في هاتفه - كعادته عندما يريد أن يأتي بالمعلومة الدقيقة..

- دعني أقرأ لك ما ورد في هذا الأمر عند ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله...

قال ابن تيمية: «فإن اللات كان سببُ عبادتِها تعظيم قبر رجل صالح كان هناك، وقد ذكروا أن وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح عليهما السلام، يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم، لو صوَّرناهم كان أشوقَ لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقَون المطر، فعبدوهم، قال قتادة وغيره: كانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح، ثم اتخذها العرب بعد ذلك.

وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين وبتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك، فلأن يشرك بقبر الرجل الذي يعتقد نبوته أو صلاحه أعظم من أن يشرك بخشبة أو حجر على تمثاله، ولهذا تجد أقواماً كثيرين يتضرعون عندها ويتخشعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يعبدونها في المسجد بل ولا في السَّحَر ومنهم من يسجد لها وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد التي تشد إليها الرحال.

فهذه المفسدة التي هي مفسدة الشرك كبيره وصغيره هي التي حسم النبي ﷺ مادتها حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته كما يقصد بصلاته بركة المساجد الثلاثة ونحو ذلك كما نهى

عن الصلاة وقت طلوع الشمس واستوائها وغروبها لأنها الأوقات التي يقصد المشركون بركة الصلاة للشمس فيها، فنهى المسلم عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد ذلك سداً للذريعة». (اقتضاء الصراط المستقيم).

وقال ابن القيم في (إغاثة اللهفان): «وقال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح عليه السلام فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم فهؤلاء جمعوا من الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل وهما الفتنتان اللتان أشار إليهما رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها: أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها: مارية فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله ﷺ أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله تعالى.

توجهت وصاحبي إلى أماكن الوضوء.. استعداداً لصلاة المغرب..

– لذلك كان من السُّنَّة طمس الصور.. وتسوية القبور.. وعدم البناء عليها.. كما في حديث علي بن أبي طالب..

عن أبي الهياج حيان بن حصين الأسدي قال: قال لي علي رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «**ألّا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مُشرِفاً إلا سوّيته، وفي رواية ولا صورة إلا طمستها**» (صحيح مسلم).

الرياء

العمل الصالح: هو الخالي من الرياء الموافق للسنة

بعد صلاة الجمعة.. اجتمعنا عند (أبي مشعل) كان قد رجع من رحلة علاج لزوجته.. أقام مأدبة غداء لسلامتها بعد نجاح العملية..

أراد خطيبنا.. الاعتذار عن الحضور لحاجته إلى الراحة بعد الخطبة.. ولكنه خضع لإصرارنا.

لم يكن المجلس قد اكتمل كان الضيوف يتوافدون من مساجد أخرى.. نعرف أغلبهم.. طلب صاحب الضيافة انتباهنا.

- سوف يكون الغداء بعد ربع ساعة حسب اتفاقي مع جميع المدعوين وفي هذه الأثناء ليت شيخنا من الأردن يمتعنا بخاطرة.. نستفيد منها..

كان المقصود دكتور في كلية الشريعة.. في الجامعة الأردنية.. قضى فترة دراسته في المدينة المنورة..

- يا (أبا مشعل).. للتو خرج الناس من صلاة الجمعة واستمعوا للموعظة والعلم الشرعي.. فلا داعي.. لزيادة موعظة!!

أصر المضيف وبعض الحضور على ضيفنا فاستجاب..

- إن أكبر هَمَّ للعبد الصادق مع الله.. هو أن يرى ثواب عمله يوم القيامة حسنات وأجراً يدخله الجنة... ولعل أعظم ما يحبط العمل.. (الرياء).. الشرك الخفي.

عن معقل بن يسار قال: انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي ﷺ، فقال يا أبا بكر! لَلشِّرك فيكم أخفى من دبيب النمل.. فقال أبوبكر وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلهاً آخر؟ فقال (ﷺ) والذي نفسي بيده لَلشرك أخفى من دبيب النمل أَلا أَدُلّك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟! «**قل: اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم**» (صحيح الأدب المفرد).

وهناك روايات وأسانيد أخرى لهذا الحديث..

وفي مسند الإمام أحمد.. عن محمود بن لبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول الله عزَّ وجلَّ لأصحاب ذلك (الرياء) يوم القيامة إذا جازى الناس: إذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟!**» (السلسلة الصحيحة).

يقول ابن القيم رحمه الله.. «إن القلب يعرض له مرضان عظيمان: إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بد.. وهما الرياء والكبر.. فدواء الرياء ﴿**إياك نعبد**﴾، ودواء الكبر ﴿**إياك نستعين**﴾.. وكثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ﴿**إياك نعبد**﴾ تدفع الرياء و﴿**إياك نستعين**﴾ تدفع الكبرياء». انتهى.

همس الذي بجانب الشيخ في أذنه..

تابع الشيخ حديثه..

- يريد أبو مصعب أن نشرح هذه العبارة.. هي ما نقرأه في الفاتحة في كل ركعة من كل صلاة فرض أو نافلة.. فإذا حققنا ﴿**إياك نعبد**﴾.. بمعنى أن عبادتنا كلها خالصة لك وحدك يا رب.. وهذه العبارة كما تعلمون أبلغ من قولك (نعبدك).. قدم المعبود ﴿**إياك**﴾.. لحصر العبادة له وحده سبحانه.. فمعناها لا نعبد سواك.. بل عبادتنا كلها لك وحدك يا رب..

وهذا يطهّر العبادة من الرياء.. لأن الرياء عمل قلبي.. ينعكس على الجوارح وغالباً ما يصاحب العبادة.. إذا رآها الآخرون.. ففي صحيح ابن ماجه.. عن أبي سعيد الخدري قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال ﷺ: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قال: قلنا بلى يا رسول الله.. قال** ﷺ: **الشرك الخفي.. أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الناس إليه**».

والرياء.. غالباً يقع أثناء العمل.. ربما يبدأ العبد العبادة يريد وجه الله.. فيدخل قلبه الرياء.. فيعمل لأجل من يرى أو يسمع.. فيحبط عمله... ففي صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه، قال... قال رسول الله ﷺ.. «**من سَمَّع سَمَّع الله به.. ومن راءى راءى الله به**»..

ومعنى هذا الحديث.. أن جزاء من أراد أن يسمَعَ الناسُ بعبادته أو يرى الناسُ عبادَته.. أن الله يفضحه يوم القيامة.. ويحبط عمله.. ويدخله النار.. وهذا مُبَين في حديث أوّل من تسعّر بهم النار يوم القيامة..

عن عقبة بن مسلم أن شفيا الأصبحي حدثه:

أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس فقال من هذا

قالوا أبو هريرة قال فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس فلما سَكَتَ وخلا قلت له أسألك بحقٍّ وحقٍّ لما حدثتني حديثاً سمعتَه من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته فقال أبو هريرة أفعل لأحدثنَّك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ عقلته وعلمته ثم نشغ أبو هريرة نشغة فمكث قليلاً، ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى ثم أفاق ومسح عن وجهه فقال أفعل لأحدثنَّك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة ثم مال خارًّا على وجهه فأسندته طويلاً ثم أفاق فقال حدثني رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمَّة جاثية فأول من يُدعى به رجل جمع القرآن ورجل قُتل في سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله عز وجل للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال بلى يا رب قال فما عملت فيما علمت؟ قال كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار فيقول الله عز وجل له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله تبارك وتعالى بل أردت أن يقال فلان قارئ، وقد قيل ذلك، ويُؤتى بصاحب المال فيقول الله عز وجل ألم أوسّع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال بلى يا رب، قال فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله له كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله تبارك وتعالى بل أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل ذلك، ويُؤتى بالذي قُتِل في سبيل الله فيقول الله له في ماذا قتلت؟ فيقول أي رب أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله له كذبت

وتقول الملائكة كذبت، ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة.

أشار صاحب الدعوة بأن موعد الغداء قد حان.. فأراد الشيخ أن يختم حديثه..

- أختم بأن العبد ينبغي أن يراقب قلبه دائماً.. ويجدد الإخلاص لله دائماً.. وأن يسأل الله النجاة من هذا الذنب القلب..

ففي صحيح الجامع قال ﷺ: «**من استطاع منكم أن يكون له خبئ من عمل صالح فليفعل...**»، والحمد لله رب العالمين.. قوموا إلى غدائكم.

الكِبر

– عندما نقرأ حديثاً يبيّن فيه النبي ﷺ أن عملاً ما.. من أعمال القلوب أو الجوارح.. يمنع صاحبه من دخول الجنة.. فإن ذلك لا يعني أنه مخلد في النار!!!

كنت في مجلس عائلي ننتظر اكتمال العدد.. لإحضار العشاء..

– هل لك أن تبيّن لنا هذه القاعدة؟!

كانت السائلة أصغر أخواتي.. تعدت الأربعين بعامين..

– نعم يا أم عبدالرحمن.. مثلاً قول النبي ﷺ..

«**لا يدخل الجنة عاقّ ولا منَّان ولا مدمن خمر**» (حسنه الألباني).

«**لا يدخل الجنة قتات**» (صححه الألباني).

«**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر**» (الصحيحة).

«**لا يدخل الجنة من لا يأمن جارهُ بوائِقهُ**» (صحيح الترغيب).

«**لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري**» (صحيح الترغيب).

هذه الأحاديث وغيرها.. لا يفهم منها أن صاحبها محروم عن الجنة مطلقاً فيكون خالداً في النار!!! وذلك أن الخلود في النار لا يكون إلا للمشرك الكافر المنافق نفاقاً اعتقادياً..

فمعنى هذه الأحاديث.. أنه لا يدخل الجنة دون عذاب.. ولا يدخل الجنة ابتداء.. إن لم يتب.. وإن لم تكن له حسنات تغلب هذه الذنوب العظيمة.. وإن لم يغفر الله له هذه المعاصي الكبيرة...

فهذه الأحاديث تحذر من الوقوع في هذه الخطايا.. التي بعضها في القلب مثل الكِبر.. وبعضها من الجوارح مثل النميمة!!

عقّب أبو زكريا..

- أول مرة أستوعب هذا المعنى.. ربما لأني لا أتتبع مثل هذه المواضيع.. أكمل شرحك وتوضيحك يا أبا معاذ...

- لعلي أتبنى قولاً لابن مسعود رضي الله عنه يقول: «ثلاثٌ هن أصل كل خطيئة فاتقوهن واحذروهن: إياكم والكبر فإن إبليس حمله الكبر على أن لا يسجد لآدم، وإياكم والحرص فإن ابن آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسداً» (ابن عساكر).. والحديث ضعفه الألباني، أي لا يصح عن الرسول ﷺ، ولكن من كلام ابن مسعود رضي الله عنه.

وهذه الذنوب الثلاثة.. الكبر والحرص والحسد.. ذنوب قلبية عظيمة، والقلب الذي يتشرب منها... غير مؤهل أن يدخل الجنة ابتداء.. ولعل أشدها الكبر... والحديث الصحيح في الكبر يرويه ابن مسعود أيضاً عن رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر**».. فقال رجل: يا رسول الله! إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً.. فقال ﷺ: «**إن الله تعالى جميل يحب الجمال.. الكِبْر بطرُ الحق وغمص الناس**»، وفي رواية: «**بطر الحق وغمط الناس**» (السلسلة الصحيحة).

ففي هذا الحديث تعريف للكبر.. الذي ينبغي على العبد ألا يكون في قلبه مثقال ذرة منه!!! (بطر الحق).. رده.. ورفضه وعدم قبوله... وغمص أو غمط الناس.. الترفع عليهم والاستعلاء والاستهانة بهم!!! هذا هو

الكبر.. وهو من أعظم ذنوب القلوب... وأول المتكبرين إبليس... ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ (الأعراف، ص: ٧٦).

ومن البشر.. فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ (القصص)، وفي الزخرف: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾، يخبر عن تكبره على نبي الله موسى عليه اسلام.

وفي سنن أبي داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجُعل الذي يدهده الخرأة بأنفه، إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء: إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي.. الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب**» (صحيح الترغيب).

فالكِبر يبدأ صغيراً في القلب.. وينمو.. حتى يطغى العبد.. ويرى أنه خير من غيره.. ويعظم في نفسه حتى لا يقبل الحق إن لم يكن وفق هواه... كما قال الله عن الكفار..

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (الأنفال).. وكان الأولى أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا لاتباعه.

عقب أبو فيصل على هذه الآية:

- والله لقد سمعت معمماً يقول: «إن كان هذا هو الضلال فإنه أحب

إلي من الهدى الذي عند غيري.. وإن كان هذا يؤدي بي إلى جهنم فإن جهنم أحب إلي من الجنة التي عند غيري...».

- لنتابع حديثنا عن الكِبر...

- نعم.. والآيات في ذم (الكِبر) كثيرة... ولعلي قبل ذلك أذكر أن من أسماء الله الحسنى (المتكبر)... كما قال تعالى:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الحشر)، فهو سبحانه المتكبر.. والكبرياء في حقه صفة كمال عَزَّ وجلَّ.. ولا تكون لغيره سبحانه.. لذلك ورد في صحيح مسلم:

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل: «**العزُّ إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني شيئاً منهما عذبته**»، وفي صحيح أبي داود... عن عوف بن مالك الأشجعي... في وصفه لصلاة النبي ﷺ أنه كان يقول في ركوعه: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**»... فهذه الصفات لا تصرف إلا لله عز وجل...

بدأ الحضور.. يتوافدون.. وكلما دخل أحدهم ألقى السلام وجلس مستمعاً، طلبت من شقيقتي أن تجهز العشاء...

- والعبد إذا تذكر حاله... مم خُلق.. ﴿**من ماء مهين**﴾ وإلى أي شيء يصير.. (جيفة تأكلها الديدان)... وبين هذا وهذا تصرعه أصغر المخلوقات

(الجراثيم والميكروبات)... ويُلزِمُه الفراشَ أضعف الأمراض... على ماذا يتكبر.. وهو بهذا الضعف؟!

في الحديث أن النبي ﷺ بزق في كفه ثم وضع إصبعه السبابة يفرك البصقة في كفه ثم قال: يقول الله عز وجل: «**يا ابن آدم أنَّى تُعجزني وقد خلقتك من مثل هذا؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بَلَغَت التراقي قلتَ أتصدق وأنَّى أوان الصدقة؟**» (صحيح الجامع).

وأختم بهذا الحديث:

عن عمرو بن شعيب.. عن أبيه عن جده قال رسول الله ﷺ: «**يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر (النمل) في صورة الرجال يغشاهم الذلّ من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم يقال له بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال**» (صحيح الترمذي).

الحسد

غطَّى الحسد قلوباً.. فتركوا الحق.. وقد عرفوه!

بدأ ضيفنا حديثه.. في اجتماع الثلاثاء... بعد صلاة العشاء..

- عن الحسن البصري قال: «ليس من ولد آدم إلا وقد خلق معه الحسد!! فمن لم يجاوز ذلك بقول ولا بفعل لم يتبعه شيء»!

استغرب كثير من الحضور هذه المقولة التي تجعل الحسد طبيعة بشرية.. تابع حديثه..

- نعم أعلم أن كثيراً منا يعتبر (الحسد) خطيئة.. نعم هو كذلك إذا تكلم العبد أو فعل، أما مجرد الشعور ألا تحب أن يرتفع عليك أحد، وألا ينال غيرك أكثر منك... فهذا ينسجم مع الفطرة.. فعلى العبد أن يروِّضَ هذا الشعور.. كما يروِّضُ شهواته الأخرى.. ويجعله تحت سيطرته في بداياته.. أما إذا تركه ينمو.. ويكبر.. فربما غلب الحسدُ الدينَ!! وهذا هو المنهي عنه.. والأمثلة على ذلك كثيرة..

أولها.. حسد إبليس لآدم.. وحسد قابيل لأخيه.. وحسد إخوة يوسف له..

استأذن منظم الإجتماع محدثنا...

- يمكن لمن لديه سؤال أو تعقيب أن يسأل أثناء الحديث.. فهذا لقاء وحوار مفتوح... وليس محاضرة واستماع...

تابع محدثنا كلامه...

- والحسد ركن من أركان الكفر.. وهي.. الكبر والحسد والغضب والشهوة، فهذا أمية بن أبي الصلت يقول: لا أؤمن برسولٍ ليس من ثقيف.. وأبو جهل يقول: والله ما كذب محمد قط، ولكن إذا كانت السدانة والحجامة في بني هاشم.. ثم النبوة.. فما بقي لنا؟

فالكبر.. يمنع الانقياد.. والحسد يمنع قبول النصيحة والغضب يمنع العدل والشهوة تمنع العبادة...

ومنشأ هذه الأربعة.. جهله بربه، وجهله بنفسه!!

وكلكم يعرف حديث النبي ﷺ الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: «**إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب**»، وهذا الحديث في سنن أبي داود وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة..

استغربت أن هذا الحديث ضعيف.. أذكر أني حفظته منذ المرحلة الثانوية.. وما مر علي درس أو خطبة جمعة إلا وسمعته!!

تابع الشيخ...

- والحديث الصحيح في ذلك.. عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً...**» (مسلم).

سأل أحدهم...

- هل يمكن أن تذكر لنا مصدر هذه المقولة عن «أركان الكفر الأربعة»؟

ابتسم محدثنا...

- كنت سأفعل وأحسنت بهذا السؤال...

يقول ابن القيم في (الفوائد)... وإذا تأمَّلَت كفرَ الأمم رأيته ناشئاً منها، وعليها يقع العذاب، وتكون خفته وشدته بحسب خفتها وشدتها. فمن فتحها على نفسه فتح عليه أبواب الشرور كلها عاجلاً وآجلاً، ومن أغلقها على نفسه أغلق عنه أبواب الشرور، فإنها تمنع الانقياد والإخلاص والتوبة والإنابة وقبول الحق ونصيحة المسلمين والتواضع لله ولخلقه.

ومنشأ هذه الأربعة من جهله بربه وجهله بنفسه، فإنه لو عرف ربه بصفات الكمال ونعوت الجلال، وعرف نفسه بالنقائص والآفات، لم يتكبر ولم يغضب لها ولم يحسد أحداً على ما أتاه الله، فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله، فإنه يكره نعمة الله على عبده وقد أحبها الله، ويحب زوالها عنه ويكره الله ذلك. فهو مضاد لله في قضائه وقدره ومحبته وكراهته، ولذلك كان إبليس عدوه حقيقة لأن ذنبه كان عن كِبر وحسد. فقلْعُ هاتين الصفتين بمعرفة الله وتوحيده، والرضا به وعنه، والإنابة إليه، وقلع الغضب بمعرفة النفس وأنها لا تستحق أن يغضب لها وينتقم لها، فإن ذلك إيثار لها بالغضب والرضا على خالقها وفاطرها، وأعظم ما تدفع به هذه الآفة أن يعوّدها أن تغضب له سبحانه وترضى له، فكلما دخلها شيء من الغضب والرضا له خرج منها مقابله من الغضب والرضا لها، وكذا بالعكس.

وفي زاد المعاد يقول ابن القيم: وفي سورة الفلق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

المقصود أن العائِن حاسدٌ خاص وهو أضر من الحاسد، ولهذا جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولا بد وليس كل حاسد عائناً، فإذا استعاذ من شر الحسد دخل فيه العين، وهذا من شمول القرآن الكريم وإعجازه وبلاغته.

فالحاسد عدوُّ النِّعَم وهذا الشر هو من نفس الحاسد وطبعها ليس هو شيئاً اكتسبه من غيرها، بل هو من خبثها وشرّها بخلاف السِّحر فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى واستعانة بالأرواح الشيطانية، فلهذا والله أعلم قرن في السورة بين شرّ الحاسد وشرّ الساحر، لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شر يأتي من شياطين الإنس والجن، فالحسد من شياطين الإنس والجن والسحر من النوعين وبقي قسم ينفرد به شياطين الجن، وهو الوسوسة في القلب فذكره في السورة الأخرى، كما سيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى، فالحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه، بل هو أذى من أمر خارج عنه ففرق بينهما في الذكر في سورة الفلق.

وكثيراً ما يجتمع في القرآن الحسد والسحر للمناسبة.

ولهذا اليهود أسحر الناس وأحسدهم فإنهم لشدة خبثهم فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم، وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بهذا وهذا قال: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ (البقرة).

الغِلُّ

- وما الفرق بين الغِل والحسد؟

- تعرف أن الحسد هو (تمني زوال نعمة الغير)... أما الغِلُّ فهو حقد وعداوة قلبية.. تتولد غالباً من خلاف على أمر.. فالحسد لا مسبب له، أما الغل فيكون بإساءة - ولو متخَيلة - وإذا اشتد الغل أصبح (حقداً).. وفي الحديث.. عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**صيام شهر الصبر وثلاثة من كل شهر يُذهبن كثيراً من وَحَرِ الصدر**» (صحيح الترغيب).

وفي رواية «**من وَغَر الصدر**».. (الوحر: الغل، والوغر: الغيظ)...

صاحبي حصل على الإقامة الدائمة في كندا... لبناني الأصل.. مركز عمله في الكويت.. ملتزم شرع الله.. حريص على تعلم الحلال والحرام فيما يعنيه من أمور معاشه...

دعاني لتناول عشاء (خفيف) في أحد المطاعم اللبنانية...

- ولماذا تصف هذه الأعمال بأنها ذنوب وكثير من الكتب يصفها بأنها أمراض للقلوب؟

- أظن أن وصف ذنوب أدق... لأنها تؤدي إلى النار إن لم يتب العبد منها كما في ذنوب الجوارح!!! فهي ذنوب تسجل في صحيفة العبد يحاسب عليها... يوم القيامة.. يقول ابن القيم..

«فإن ما يعاقب عليه من أعمال القلوب هو معاص قلبية يستحق العقوبة

عليها كما يستحقه على المعاصي البدنية، إذ هي منافية لعبودية القلب، فإن الكِبر والعُجب والرياء وسوء الظن محرمات على القلب، وهي أمور اختيارية يمكن اجتنابها فيستحق العقوبة على فعلها»...

- وهل كل غِلّ ذنب؟!

- (الغِلّ).. كما (الـحُزن).. أمران موجودان في الدنيا لا يكاد يخلو قلب عبد منهما.. ولذلك وصف الله عز وجل أنهما لا ينتفيان إلا في الجنة... كما في قوله عز وجل عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤﴾ (فاطر)، وعن الغِلّ قال عز وجل: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلّٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٤٣﴾ (الأعراف)، وقال سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧﴾ (الحجر).

وفي التفسير.. أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «إني أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧﴾.. وذلك بعد موقعة الجمل... فقد حصل بينهما ما حصل لدرجة الاقتتال، وكلهم مبشر بالجنة!!!

فلا تخلو الدنيا من (الغِل)... يزيد أو يقل!!

من الأمور التي تجذبني للمطاعم اللبنانية ما يقدمونه «ضيافة» قبل إحضار الأطباق المطلوبة.. الزيتون اللبناني بنوعيه.. وما يصحبه من مقبلات...

قام صاحبي بطلب العشاء.. الذي خلا من اللحوم.. كما اتفقنا..

تابعت بياني:

- وفي الحديث:

عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع: «**نضّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فرُبَّ حامل فقه ليس بفقيه ثلاثٌ لا يَغلّ عليهن قلب امرئ مؤمن: إخلاص العمل لله والمناصحة لأئمة المسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعاءهم يحيط من ورائهم**» (صحيح لغيره).

يقول ابن القيم - رحمه الله - : أي لا يبقى فيه غِلّ، ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غله وتنقيه منه، وتخرجه عنه، فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل، وكذلك يغل على الغش، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة، فهذه الثلاثة تملؤه غِلاً ودَغلاً، ودواء هذا الدغل واستخراج أخلاطه بتجريد الإخلاص والنصح ومتابعة السنة... الرابع: أن يعزم على كف شره عن الناس، ويطهر قلبه من الغِلّ لأي من المسلمين.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد**» (البخاري).

فضحك الله إلى هذين الرجلين؛ لأنه كان بينهما تمام العداوة في الدنيا، حتى إن أحدهما قتل الآخر، فقلب الله هذه العداوة التي في قلب كل واحد منهما، وأزال ما في نفوسهما من الغِلّ، لأن أهل الجنة يطهّرون من الغل

والحقد؛ كما قال الله تعالى في وصفهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (الحجر).

قال الأنباري: ما مضى من التآخي قد كان تشوبه ضغائن وشحناء، وهذا التآخي بينهم الموجود عند نزع الغل هو تآخي المصافاة والإخلاص.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ (الحشر).

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله: «هذا شامل لجميع المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض وأن يحب بعضهم بعضاً، ولهذا ذكر الله في هذا الدعاء نفي الغِلّ عن القلب، الشامل لقليله وكثيره، الذي إذا انتفى ثبت ضده وهو المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين، وذلك أن الإنسان وإن اقتُصّ له ممن اعتدي عليه فلا بد أن يبقي في قلبه شيء من الغِلّ والحقد على الذي اعتدي عليه، ولكن أهل الجنة لا يدخلون الجنة حتى يقتص لهم اقتصاصاً كاملاً، فيدخلونها على أحسن وجه، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة.

العُجب

- **يقول شيخ الإسلام ابن تيمية..** «واعلم أن كثيراً من الناس يسبق إلى ذهنه من ذكر الذنوب: الزنا والسرقة ونحو ذلك... ولا يعلم هذا المسكين أن أكثر العقلاء لا يسرقون ولا يزنون حتى في جاهليتهم وكفرهم.. ولكن الذنوب تتنوع وهي كثيرة.. ومنها.. الفخر والخيلاء والحسد والكبر والرياء...» وهي أشد من ذنوب الجوارح...

- ولماذا لا ينتشر هذا المفهوم بين المسلمين... أيامنا هذه.. لا أحد يذكر (ذنوب القلوب) وخطورتها.. إلا ما ندر...

- أظن أن هذا تقصير من الخطباء وطلبة العلم والدعاة.. وربما لانتشار المعاصي الظاهرة... فيتكلمون عما يظهر للناس.. أما العلماء السابقون فقد أجمعوا على خطورة ذنوب القلوب.. ففي كتابه (الزواجر عن اقتراف الكبائر).. يقول ابن حجر الهيثمي... (الباب الأول: في الكبائر الباطنة وما يتبعها وقدمتها لأنها أخطر ومرتكبها أذل العصاة وأحقر ولأن معظمها أعم وقوعاً وأسهل ارتكاباً وأَمَرّ ينبوعاً فقلما ينفك إنسان عن بعضها، ولقد قال بعض الأئمة: كبائر القلوب أعظم من كبائر الجوارح.. لأنها كلها توجب الفسق والظلم وتزيد كبائر القلوب بأنها تأكل الحسنات وتوالي شدائد العقوبات.

- كلام خطير.. ينبغي أن ينشر بين عامة المسلمين حتى يحذروا هذه الذنوب...

كنت وصاحبي في طريقنا لصلاة العشاء... مَشيْاً على الأقدام في مسجد قريب من الواجهة البحرية... حيث كان لنا موعد للعشاء مع بعض الأصدقاء.. بقي على الأذان سبع دقائق..

- مِن هذه الذنوب العظيمة التي يغفل عنها كثير من الناس.. (العُجب).. وهو مرض دقيق خفي يتسلل إلى القلب... فإن تمكن منه.. انقلب إلى مرض أخطر وهو (الكبر).

- أعوذ بالله..

هكذا كانت ردة فعل صاحبي.. مباشرة..

- نعم يا (أبا صالح).. العجب يدخل جميع القلوب.. لأي سبب.. المال.. الشهادة العلمية.. العائلة والقبيلة.. المنصب.. الهيئة والجمال.. الرأي والمنطق فيرى أحدهم أنه خير من غيره.. فيرتفع عليه.. ويستهزأ به..

- كنت قد قرأت حديثاً.. قبل أيام على لوحة المسجد... عن العجب وأنه من المهلكات..

- نعم هذا حديث صحيح..

عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ.. «ثلاث مهلكات وثلاث منجيات.. فأما المهلكات فشُحّ مطاع وهوى مُتَّبع، وإعجاب المرء بنفسه، وأما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا والقصد في الفقر والغنى وخشية الله تعالى في السر والعلانية...» (صحيح الجامع).

والأحاديث في بيان خطورة (العُجب) كثيرة.. ففي المسند عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: انتسب رجلان على موسى عليه السلام فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة فمن أنت لا أم لك؟ قال: أنا فلان بن فلان ابن الإسلام قال: فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن قل لهذين المنتسبين: أما أنت أيها المنتسب إلى تسعة في النار فأنت عاشرهم.. وأما أنت يا هذا المنتسب إلى اثنين في الجنة فأنت ثالثهما في الجنة» (السلسلة الصحيحة).

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**بينما رجل يمشي في حلة تُعجِبه نفسه مرجِلٌ جُمّته إذ خسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة**» (متفق عليه).

فالعُجب داء.. قلبي.. يفسد مآل الإنسان وإذا لم يتداركه العبد في بدايته.. تحول إلى داء أعظم يصعب الخلاص منه: الكبر.. انطلق أذان العشاء.. فأمسكنا عن الحديث نردد ما يقول المؤذن.

... أدينا السنة.. فإذا المؤذن يقيم الصلاة!!

بعد الصلاة.. تابعنا..

- هذا أسرع مسجد يقيم الصلاة بعد الأذان.. لم يكن بينهما سوى سبع دقائق...

- هكذا هي المساجد التي في الأسواق وعلى الطرق العامة تختلف عن المساجد في الأحياء السكنية...

تابعنا حديثنا...

- تذكرت الآن حديثاً عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو لم تكونوا تذنبون خشيت عليكم أكثر من ذلك: العُجب**» (السلسلة الصحيحة).

- إنه تحذير شديد من النبي ﷺ.. وكأن العجب بالدين أشدّ خطراً من العجب بالأمور الدنيوية...

- نعم هو كذلك... من دخله العُجبُ لأجل كثرة صلاته أو صيامه أو علمه الشرعي أو حفظه لكتاب الله... فهذا أشد ممن دخله العجب لأجل مال أو نسب أو منصب..

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكثيراً ما يقرن الناس الرياء والعجب: فالرياء من باب الإشراك بالخلق.. والعُجب من باب الإشراك بالنفس، وهذا حال المستكبر.. فالمرائي لا يحقق ﴿إياك نعبد﴾ والمعجب لا يحقق قوله: ﴿إياك نستعين﴾» (مجموع الفتاوى ١٠٢١٧).

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**إذا قال الرجل: هَلَكَ الناس فهو أهلكُهم**» (مسلم)، و(أهلكُهم) بضم الكاف.

قال العلامة ابن عبد البر في (الاستذكار): «هذا الحديث معناه لا أعلم خلافاً فيه بين أهل العلم: أن الرجل يقول ذلك القول احتقاراً للناس وازدراء بهم وإعجاباً بنفسه»...

بلغنا المكان الذي نريد.. أرشدنا موظف الاستقبال إلى المائدة التي حجزت باسم صاحب الدعوة... كنا أول الواصلين..

- فالعبد ينبغي أن يعلم أنه مهما بلغ من العبادة لن يؤدي حق الله عليه.. وعليه أن يستعين بالدعاء حتى لا يدخل العُجب قلبه. ولا يرى نفسه خيراً من غيره مهما كان عمله.. ويراقب قلبه بأن لا شيء أفسدَ للأعمال من العُجب ورؤية النفس.. ويعلم أنه لا يستغني بعمله عن رحمة الله.. كما في الحديث... عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «**سددوا وقاربوا وابشروا فإنه لن يدخل الجنة أحداً عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة...**» (صحيح مسلم).

تزكية النفس

أحرِص دائماً أن أُلبِّيَ دعوات الأفراح إتباعاً للسنة وتطييباً للخواطر وخاصة إذا كانت الدعوة من أفراد لا تربطني بهم علاقة قوية!!

وأذكِّر نفسي دائماً.. أن مسافة الطريق والتهنئة والعودة إلى البيت لا تحتاج أكثر من ساعة زمن.. مقابل الأجر الذي يحتسبه العبد من الله الجواد الكريم...

- في آية من كتاب الله يقول رب العزة: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ (النجم).

ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ (النساء).

ويقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ (الشمس).

والعبد يسعى في تزكية نفسه بالطاعات والصالحات... فما المراد من (النهي عن تزكية النفس)؟!

رافقني صاحبي في تلبية دعوة أحد رواد المسجد.. بعد صلاة عشاء يوم الجمعة...

- أولاً... قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.. بمعنى لا يمدح بعضكم بعضاً ويذكر بأنه صاحب تقوى وبِرّ وصلاح.. أو لا تمدحوا أنفسكم بأن تصفوا أنفسكم بالتقوى والصلاح والإستقامة.. وذلك أن (النفس) تطلق

على الغير.. وعلى الذات كما في قوله عن بني إسرائيل.. ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ (البقرة)، أي اقتلوا الذين اتخذوا العجل... وتزكية النفس التي نهى الله عنها.. هي (مدح النفس).. وإخلائها من التقصير في طاعة الله والاطمئنان لها.. والجزم بنجاتها من العذاب.. فينبغي على العبد إذا حدّثته نفسه بأنه على خير، وأنه ناج من العذاب.. وربما سيدخل الجنة بلا حساب.. عليه أن يذكُرَ ذنوبه وتقصيره مع الله عز وجل.. فإن لم يذكر ذنباً.. ذكّر نفسه بنِعَم الله وتقصيره في شكر هذه النعم.. فلا ينبغي لعبد أن يستكثر أعماله الصَالحة.. بل يؤمن يقيناً أن الـمِنَّة لله في ما هو عليه من الهداية والصلاح.. كما قال الله تعالى عن المؤمنين.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (الأعراف).

أما قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ (الشمس).. مع الآية التي بعدها ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾.. بمعنى أن الفلاح في عمل ما يُزكي النفس أي يطهرها.. من إتيان الطاعات وترك المحرمات.. وذكر الله مثالاً واضحاً في سورة الأعلى فقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ (الأعلى).

وقال تعالى في سورة النور: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

فمن أسباب التزكية غض البصر.. والبعد عن أسباب الزنا..

وقال تعالى في الاستئذان: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٢٨﴾ (النور).

هذه كلها أعمال تؤدي إلى تزكية النفس.. وتعمَلُها الأنفسُ الزكية.. كنا نتبع تعليمات مرشد الخرائط العالمية (غوغل).. الذي بَيّن لنا أننا سنبلغ المكان بعد ثلاث دقائق!!

- ولكن موضوعنا هو الحرص ألا يقع القلب في هذه المعصية.. وهي أن يطمئن لصلاحه.. ويضمن نجاته.. ويمدح نفسه.. ولو في سريرته.. دون الآخرين.. فإن هذا العمل القلبي.. يؤدي إلى ذنب قلبي آخر وهو «العُجب».. وهذا يؤدي إلى ذنب قلبي أكبر وهو «الكبر».

فالعبد يجتهد في الطاعات.. الظاهرة والباطنة.. ويكون على الباطنة أحرص ولا يغتَر بصلاحه وعبادته.. ويتذكر قدوته الرسول ﷺ الذي كان يقوم الليل حتى تتفطّر قدماه.. فيقال له في ذلك وأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيقول: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**» (متفق عليه).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن ينجي أحداً منكم عمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال ﷺ: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمته... فسددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا**» (متفق عليه).

وصلنا إلى صالة الأفراح... لم نجد مكاناً لمركبتنا بسهولة... استقبلنا صاحب الدعوة أحسن استقبال.. أدينا الواجب... ثم غادرنا!!!

– ولكن العبد أحياناً يركن إلى عمله.. ويحمد الله على ما هو فيه!!!

– هذان أمران مختلفان... أن يحمدَ العبد ربه على نعمة الهداية ويعلم في قرارة نفسه أن الفضل لله لما هو عليه من إلتزام الطاعات والابتعاد عن المحرمات... هذا مطلوب... أما أن يركن إلى عمله... فلا... ويزكي نفسه.. فيقول: أنا خير من فلان... الذي لا يصلي... فلا.. وذلك أن في أمور الدين والآخرة... ينبغي أن ينظر العبد إلى من هو أفضل منه... ويسعى أن يفعل مثله... كما في الحديث... عن سالم عن أبيه قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله قرآناً فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل والنهار...» (متفق عليه).

ودائماً هناك من هو خير منك في أمور الآخرة... فلا ينبغي للعبد أن (يزكي) نفسه لمجرد أنه يحافظ على الصلوات الخمس وينتهي عن كبائر المحرمات!!... يقول عز وجل.. رداً على هؤلاء: ﴿**هو أعلم بمن اتقى**﴾، الله تبارك وتعالى... يطّلعُ على قلبك... لا جسدك... ويعلم ما في قلبك من تقوى وخشية ومراقبة وإحسان... فلا تزكي نفسك.. بل ولا تزكي غيرك على الله!! فإذا كنت تعرف أحداً بالصلاح والاستقامة.. تقول: (أحسبه كذلك ولا أزكي على الله أحداً)...

– وهل (التزكية) منهي عنها حتى في الأسماء؟!

– نعم... أحسنت غفلت عن هذه النقطة وكنت أريد أن ذكرها..

في الحديث.. عن محمد بن عمرو بن عطاء أن زينب بنت أبي سلمة سألته: ما سمّيت ابنتك قال سميتها (برّة)... فقالت: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم وقال: «**لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم**»، فقال ما نسميها؟ قال: سموها زينب» (أبو داود).

ولذلك نهى العلماء عن تسمية التقي - المتقي - المطيع - المحسن - المنيب، وغيرها من الأسماء التي فيها تزكية للمسمّى.

الخُيلاء

– وما الفرق بين العُجب والكبر والخيلاء؟

– أما الكِبر فقد فسره النبي ﷺ فقال: «**الكِبر بَطَر الحق وغُمْط الناس**» (مسلم)، أي... رد الحق... وظلم الناس والاستعلاء عليهم.. فالكِبر يحتاج إلى أناس يتكبّر عليهم... وأما العُجب.. فلا يحتاج إلى غيره... فيعجب المرء بشيء عنده ولو لم يعلم به أحدٌ... ويرجِع ما يعجب به إلى نفسه، ولا يرى فضل الله عليه.. أما الخيلاء.. فهو أعلى من العُجب.. ودون الكِبر.. وهو أن يرى نفسه أفضل من غيره.. فيكبر نفسه ويصغر غير...

كنت وصاحبي نتحاور فِي مكتبته التي تبرع بأكثر من (٩٠٪) من كتبها للجان الدعوة في أفريقيا.. وأبْدلَها بجهاز حاسوب... فيه أكثر من عشرين ألف كتاب لا يحتاج للاتصال بالشبكة العنكبوتية... فضلاً عن البحث الفوري في الشبكة...

– وقد ذكر النبي ﷺ الخيلاء في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**جاء أهل اليمن هم أرقّ أفئدة وأضعفُ قلوباً، والإيمان يمان، والحكمة يمانية، والسكينة في أهل الغَنَم، والفخر والخُيلاء في الفدادين من أهل الوبر...**».

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأس الكفر نحو المشرق، والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل والفدادين أهل الوبر والسكينة في أهل الغنم**» (صحيح البخاري).

والفدادون: هم الذين يرفعون أصواتهم وهي عادة أهل الإبل في التعامل مع إبلهم.. وقيل هم رعاة الإبل والبقر والحمير.. وفي رواية في الصحيحين: «**في الفدادين عند أصول أذناب الإبل**»، ومن هذا الحديث نفهم معنى الخُيَلاء... وهو عكس السكينة.. التي هي الطمأنينة والتواضع.

جلس صاحبي خلف جهاز الحاسوب...

دعني أقرأ لك بعض ما جمعت في هذا الموضوع..

سُمِّيت الخُيَلاء والـمُختال مختالاً لأن المختال يتخيّل في نفسه من عظمته وقدره ما لا حقيقة له ﴿**وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾**﴾ (الحديد).

وأكثر ما يكون الخيلاء بالأفعال، كأن يتخايل في مشيته، أو في مركوبه، أو في ملبسه، أو نحو ذلك.

في غزوة أحد وَرَد أن أبا دجانة أعلم بعصابة حمراء فنظر إليه رسول الله ﷺ وهو مختال في مشيته بين الصفين فقال: «**إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع**» (الطبراني في معجمه الكبير).

وعن جابر بن عتيك الأنصاري قال، قال رسول الله ﷺ: «**إن من الغِيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله، ومن الخُيَلاء ما يحب الله ومنها ما يبغض الله، فأما الغيرة التي يحب الله فالغيرة في ريبة، وأما التي يبغض الله فالغيرة في غير الريبة، وأما الخيلاء التي يحب الله أن يتخيل العبد بنفسه لله عند القتال، وأن يتخيل بالصدقة**» (تعليق شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ينظر الله إلى من جَرَّ ثَوبه خيلاء**» (متفق عليه).

وفي لفظ آخر عند البخاري: «**من جَرّ ثوبه مخيلة: لم ينظر الله إليه يوم القيامة**».

وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «**بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خُسِف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ (لقمان)، وقوله عز وجل: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ (الحديد)، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ (الأنفال).

فذمَّ الله سبحانه وتعالى الخيلاء والمَرَح والبَطَر.

- **قال ابن القيم عن العُجب**: «أصله: رؤية نفسه، وغيبته عن شهود منَّة ربه وتوفيقه».

- **والخيلاء**: أن يرى نفسه فوق ما هي عليه، أو ما تستحقه، أو يُري الناس عظمة نفسه.

- **والفخر**: هو التمدح بالخصال وذكر المناقب، بتفضيل نفسه على غيره.

وهذه الخصال بينها من التداخل ما يجعلها مترابطة، خاصة الفخر والخيلاء، فلا يكاد يتصف أحد بخصلة منها، فيسلم من أختها.

وكأن هذه الصفات قنوات تنبع من معين واحد وهو: الكِبْر، وتخيل عظمة نفسه وفضله، وإرادة تعظيم الخلق له، وحمدهم له.

وقال ابن كثير: ﴿**إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً**﴾، أي: مختالاً في نفسه، مُعجَباً متكبراً، فخوراً على الناس، يرى أنه خير منهم، فهو في نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغيض» انتهى من تفسير ابن كثير.

- والمَخْرَج من هذه الآثام... والحفظ منها؟!

- العلاج.. دائماً بنقض الأسباب.. ينظر إلى النقص الذي فيه وعيوبه، ويرجع الخير الذي فيه لله عز وجل.. وأن الله يختبره بما أنعم عليه... ويذكِّر نفسه أن الله مطلع عليه، وينظر إلى قلبه... ولا ينسى أن آثام القلوب وذنوبها أعظم عند الله من ذنوب الجوارح... ويدعو الله عز وجل.. صادقاً مخلصاً.. كما في دعاء النبي ﷺ.

«واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت» (رواه مسلم).

التفاخر

جاري (فيصل)... وكنيته (بو حمد)... شابٌّ في عمر كُبرى بناتي.. هادئ الطبع.. دمث الأخلاق.. يصحب ابنيه (حمد وأحمد) إلى المسجد لكثير من الصلوات...

كلما إلتقينا.. تبادلنا التحية... ويركض ابنه ذو الست سنوات ليعانقني ويلعب معي...

- هل تعلم أن أحد الأسباب الإنتقال من سكني السابق.. جاري.. لقد كان سيئ الخلق.. متعالياً.. متكبراً.. جلفاً.. لا يريد أن يتحدث إلى أحد.. ولا أن يكلمه أحد.. يمشي مشية الطاووس.. ويأمر سائقه أن يمشي وراءه.. يحمل حقيبة العمل الصغيرة له.. ويفتح له باب مركبته.. بينما يأخذ مكانه.. دون أن يلتفت يمنة أو يسرة!!

كان صاحبي يتحدث متأثراً ويمثل الحركات التي يصف بها جاره السابق... ابتسمت ابتسامة عريضة..

- يبدو أنك حقاً تأذيت منه..

- إي والله..

- لقد استعاذ الرسول ﷺ من مثل هذا الجار فقال: «**اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة، فإن جار البادية يتحول**» (صحيح الترغيب)... وفي رواية أخرى: «**تعوذوا بالله من جار السوء في دار المقامة، فإن جار البادية يتحول**» (صحيح النسائي).

لعل جارك كان يرى نفسه أعلى منكم ربما لكثرة ماله.. أو نسبه..

- نعم هو كذلك... وكاد ينطقها ذات مرة أمامي...

- هذا خلاف أخلاق الإسلام... ومنها التواضع... وأصل التواضع عمل قلبي.. بأن الإنسان لا يفضل غيره ببدن أو نسب أو مال، وإنما بالعمل الصالح... ولا فخر على الناس بالعمل الصالح... كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات).

وفي الحديث عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحدٌ على أحد، ولا يفخر أحدٌ على أحد**» (مسلم)... وفي الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة**».

قاطعني:

- كأن هذا الحديث فيه تبرير لهذه الأمور... على الأقل عند العامة الذين لا يقرؤون الشروح ولا يستمعون إلى دروس العلماء...

- بل فيه ذم لهذه الأمور ونهي عنها... لأنها من أمور الجاهلية... التي جاء النبي ﷺ ليقوّمها... وفي سورة الحديد يقول الله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ (الحديد)... هذه هي خلاصة الأمر.. ابتداء وانتهاء.. والعبرة في ختام الآية... لأن فيها تحذير من الوقوع فيما ذكره في بداية الآية!!

- وما هو أسوأ أنواع التفاخر؟!

- لعل الأسوأ... أن يتفاخر المرء بالدين!!

- وكيف يتفاخر أحد بدينه؟!

قالها صاحبي مستغرباً..

- نعم.. بعض الناس.. يغفل عن إصلاح قلبه.. وربما يهمل قلبه أحياناً فيتفاخر على الآخرين... بحفظه لكتاب الله... او علمه بالفقه... والأحاديث... أو اطلاعه الكبير على السيرة وغير ذلك من العلوم الشرعية... فيرى أن الناس... على ضلال وأن مآلهم إلى العذاب!! كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم**» (مسلم)... و «أهلكهم» بضم الكاف... كما في القراءة المشهورة... بمعنى (هو أشدهم هلاكاً).

وكذلك حديث الرجل الذي جزم بأن الله لا يغفر لصاحبه... ففي صحيح مسلم عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان فقال الله عز وجل من ذا الذي يتألّى عليّ أن لا أغفر لفلان، إني قد غفرت له وأحبطت عملك**».

- نسأل الله العافية... نعم إنه داء خفي... ينبغي على العبد أن يحذر منه..

كنت وصاحبي متجهين لأداء صلاة المغرب، وقد بقي على الأذان عشر دقائق... قررنا أن نقضيها مشياً حول المسجد...

- نعم ينبغي على العبد ألا يغتر بشيءٍ... لا بماله.. ولا بحسبه... ولا

شهادته... وقبل كل ذلك بعلمه وصلاحه وإلتزامه دين الله... فإن كل ذلك يحبط العمل... وهنا يحضرني حديث عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طاف على راحلته القصواء يوم الفتح واستلم الركن بمحجنه، وما وجد لها مناخاً في المسجد حتى أُخرجت إلى بطن الوادي فأنيخت ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإن الله قد أذهب عنكم عبيَّة الجاهلية، الناس رجلان: برٌّ تقيٌّ كريم على ربه، وفاجر شقيٌّ هيّن على ربه... ثم تلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات).

أقول قولي هذا وأستغفر لي ولكم». (الصحيحة)...

- وماذا عن قول الله تعالى: ﴿**فلا تزكوا أنفسكم**﴾؟

- أحسنت يا (أبا حمد) نعم هذه الآية تناسب هذا الموضوع... يقول تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾**﴾ (النجم)... فالله تبارك وتعالى أعلم بدرجة التقوى... لأنه يرى ما في القلوب، وهي - القلوب - محل نظر الرب عز وجل... لذا وجب على العبد أن يراجع قلبه على الدوام، وأن يتأكد ألا يدخله فخر... ولا عُجب... ولا عُلوّ على خلق الله.. لا في دين.. ولا دنيا!!

الأمن من مكر الله

دخل المسجد بعد صلاة المغرب... وقد غادر جميع المصلين... بادرني بعد السلام...

- كنت على يقين أنني سألقاك هنا...

ابتسمت لمقولته...

- أصبح الوقت بين العشائين أقل من ساعة وخير ما يقضى به العبد وقته (كتاب الله)... حياك الله يا (أحمد)...

- سوف أقطع عليك خلوَتَك اليوم... في موضوع لعلك تثاب عليه قدر أجرك بقراءة كتاب الله...

- رحبت به.. ودعوته للمجلس الملحق خلف حرم المسجد...

- سمعت حديثاً في الإذاعة عن صفة (المكر) لله عز وجل وأنها مقيدة ولا تُنسب لله إلا مع من يستحقها... كقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنفال).

قاطعته...

- لو قرأنا هذه الآية من بدايتها سيكون المعنى أوضح... يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنفال).

- أحسنت... نعم الآن الفكرة أوضح... وليس هذا سؤالي... وإنما

سؤالي عن موضوع (الأمن من مكر الله) وأنه لا ينبغي لأحد أن يأمن مكر الله!!! كيف يمكن أن نفهم هذا الأمر؟

شَارَكنا المجلس (أبو يعقوب)... يأتي قبل الأذان لجميع الصلوات وربما تولى مهمة الأذان إذا اعتذر مؤذُننا... أو تأَخّر عن الموعد...

أخذ (أبو يعقوب) مجلسه بعد السلام والاستئذان...

- كنا نتحدث عن موضوع... (الأمن من مكر الله)..

- موضوع جميل دعونا نتشارك الأجر...

- أولاً معنى (الأمن من مكر الله)، أن يطمئن القلب ويضمن النجاة... ولا يخاف عقوبة الله تعالى... مع أنه مقصر في حق الله... معرِضٌ عن أوامره... كما قال تعالى..

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (الأعراف).

أي عذاب الله وبأسه ونقمته وقدرته عليهم...

قاطعني (أبو حمد)...

- وماذا عن المؤمن... كيف يجب أن يكون حاله؟

- المؤمن في الدنيا يكون على وَجَلَ من أن يُبتلى ويُفتن فيسأل الله الثبات على الدين كما في حديث النبي ﷺ: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» (السلسلة الصحيحة)... وكذلك لا يقنط من رحمة الله... بل يسأل الله الثبات على الدين ويعلم أن ما فيه من خير وصلاح وهدى إنما هو

من فضل الله... وهكذا دعاء المؤمنين... ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ (آل عمران).

وسُئِل عبد الله بن مسعود عن أكبر الكبائر فقال...

«**أكبر الكبائر: الشرك بالله والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله**»... فالعبد الصالح يتقرب إلى الله بالطاعات ويسأل اللهَ قبولها... ويخاف ألا تُقبل لخلل في نفسه... كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (المؤمنون)، وفي الحديث عن أنس أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو يحتضر فقال ﷺ: كيف تجدك؟ قال والله يا رسول الله! إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف» (حسن الألباني).

فالعبد المؤمن (لا يأمن مكر الله) بمعنى لا يضمن الجنة... بأعماله الصالحة... بل يخاف ألا تُقبل... ويرجو رحمة الله ومغفرته على تقصيره ويعلم يقيناً أن سبيل دخول الجنة هي رحمة الله عز وجل... ومع ذلك يجتهد في الطاعات ويبتعد عن المعاصي... وهنا يحضرني حديث النبي ﷺ.

عن أبي هريرة وعائشة، وجابر وأبي سعيد الخدري... قال رسول الله ﷺ: «**لن يُدخِل أحداً منكم عملُه الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة (مرتين أو ثلاثاً) فسددوا وقاربوا وأبشروا**» (السلسلة الصحيحة).

يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله... في قوله تعالى: ﴿**أفأمنوا مكر الله**﴾.

دليل على أن (لله مكراً).. والمكر هو التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر... فإن قيل: (كيف يوصف الله بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم)؟

قيل... المكر إذا نُسب إلى الله فإنه محمود ويدل على قوة التدبير، وأنه غالب على خصمه، ولذلك لا يوصَفُ الله به على الإطلاق فلا يجوز أن تقول (إن الله ماكر)!! وإنما تذكر هذه الصفة في مقام تكون فيه مدحاً لله عز وجل... مثل قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾ (النمل)، ومثل قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ (الأنفال: ٣٠).

المعنى (فمكر الله عز وجل فيمن يستحقه من أعدائه... وفيمن يمكر بأنبيائه وأوليائه.. فهو صفة كمال ومدح لله عز وجل لأنه يقع على من يستحقه).

- وخلاصة هذا الموضوع يا (أبا معاذ)؟!

- خلاصته أن قلب العبد المؤمن ينبغي أن يكون على وَجَل من عذاب الله وعلى خوف من سوء العاقبة... وأن يخلوَ من الاتكال على حوله وقوته... ويتعلق بالله عز وجل.. في ثباته على الدين... والتزامه أوامر الله.. ويكثر من دعاء الله عز وجل أن يثبته على دينه... وأن يميته على الإسلام، وأن يرزقه حسن الخاتمة وأن لا يزيغ قلبه بعد الهداية... وأن يحفظه من الفتن وألا يجعل مصيبته في دينه... وأن يرزقه الصدق والإخلاص في العمل... ومع كل ذلك.. يحسن الظن بالله بأنه لا يضيع أجر المحسنين.

القنوط من رحمة الله

بعد صلاة العشاء... رافقني (أبو حمد)... مشياً إلى مساكننا...

- تحدثنا عن (الأمن من مكر الله)، وأنه لا ينبغي لعبد أن يأمن مكر الله وخاصة إن كان معرضاً عن دين الله.. غارقاً في معصية الله... وماذا عن (القنوط من رحمة الله)...

- ربما نستطيع أن نقول (أن على المؤمن ألا يأمن مكر الله) وعلى العاصي (ألا يقنط من رحمة الله)... وذلك لقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (الزمر).

قال عبد الله بن مسعود «هذه أرجى آية في كتاب الله»... فالفقيه كل الفقيه هو الذي لا يُيَئِس الناس من رحمة الله... ولا يُجرِّئُهم على معصية الله!!

- كلام جميل.. زدنا من تفسير هذه الآية...

لم يكن الطقس مريحاً... رغم أننا بدأنا فصل الخريف... كانت درجة الحرارة اثنتين وأربعين (٤٢) درجة... ولكننا اعتدنا المشي لصلاة العشاء...

- في تفسير ابن عاشور (يغفر الذنوب)... (الألف واللام) تستلزم الاستغراق بمعنى أن الله يغفر كل ذنب كائناً ما كان إلا ما أخرجه النص القرآني وهو (الشرك).. ثم لم يكتف بذلك بل أَكَّده بقوله (جميعاً) فيما

لها من بشارة ترتاح لها النفوس... وما أحسن التعليل.. ﴿**إنه هو الغفور الرحيم**﴾.

وهنا أذكر كلام ابن القيم في الأسماء الحسنى المقترنة التي تختم بها الآيات... (فإن لله عز وجل كمالٌ من اسم الغفور... وكمالٌ وجمالٌ من اسم الرحيم... وكمالٌ جديدٌ وجمالٌ جديدٌ من اقتران هذين الاسمين فهو سبحانه (الغفور الرحيم)...) فلا شك أن الغفور الرحيم لن يعذب عباده التائبين!!

- وما الفرق بين اليأس والقنوط؟

- (اليأس) و(القنوط) كلمتان إذا اجتمعتا افترقتا في المعنى، وإذا تفرقتا اجتمعتا في المعنى... و(اليأس) ورد في قوله تعالى عن يعقوب: ﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (يوسف).

وقالوا (القنوط) أشد اليأس.. وقال آخرون بل (اليأس) أشد من القنوط لأنه صفة الكافرين.. وقالوا اليأس يكون مع المصيبة... وهو انقطاع الطمع من زوالها... والقنوط مع المعصية وهو استبعاد مغفرتها.. وعلى كل حال... المؤمن لا يقنط من رحمة الله... ولا ييأس من روح الله... مهما كان ذنبه... ومهما كانت مصيبته!!!

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله! ما الكبائر؟

قال ﷺ: «**الإشراك بالله والإياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله**» (السلسلة الصحيحة).

منازلنا تبعد سبع دقائق مشياً إلى المسجد... ومنزل (أبي حمد) قبل منزلي بمئة متر تقريباً..

- ولا ينبغي أن يكون (الرجاء) برحمة الله ومغفرته سبباً في التهاون في المعصية فضلاً عن الدوام عليها... فالعبد ينبغي أن يخوّف نفسه من قصد المعصية والعزم عليها فإن قَصَدَتها فليخوفها من ارتكابها... فإن غلبته فليخوفها من الإصرار عليها وليأمرها بالتوبة فإن حدّثه الشيطان بأن توبته لا تقبل - لأي سبب - فليذكرها بالاستغفار وأن الله يغفر الذنوب جميعاً فإن أصرّت على الذنب قنوطاً من رحمة الله فليذكّرها أنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الظالمون....

اقترح علي صاحبي أن نقرأ ما ذكره ابن تيمية في مسألة القنوط...

- لك ذلك فالكتب كلها ولله الحمد محمولة في جيبي!!!

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الآية السابقة، آية الزمر: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (الزمر).

«المقصود بها النهي عن القنوط من رحمة الله تعالى، وإن عظمت الذنوب وكثرت، فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله، ولا أن يُقنِّط الناس من رحمته، لذا قال بعض السلف: وإن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيّس الناس من رحمة الله، ولا يجرّؤهم على معاصي الله.

والقنوط من رحمة الله بمنزلة الأمن من مكر الله تعالى وحالهم مقابل لحال مستحلي الفواحش، فإن هذا أَمِن مكر الله وذاك قنط من رحمة الله، والقنوط يكون بأن يعتقد العبدُ أن الله لا يغفر له، إما لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته ويغفر ذنوبه وإما بأن يقول نفسه لا تطاوعه على التوبة بل هو مغلوب معها، والشيطان قد استحوذ عليه، فهو ييأس من توبة نفسه، وإن كان يعلم أنه إذا تاب غفر الله له وهذا يعتري كثيراً من الناس والقنوط يحصل بهذا تارة وبهذا تارة فالأول كالراهب الذي أفتى قاتل تسعة وتسعين أن الله لا يغفر له فقتله وكَمّل به مائة، ثم دُلّ على عالم فأتاه فسأله بأن الله يقبل توبته والحديث في الصحيحين، والثاني كالذي يرى للتوبة شروطاً كثيرة ويقال له لها شروطٌ كثيرة يتعذّر عليه فعلها فييأس من أن يتوب» (مجموع الفتاوى).

قسوة القلب

- وهذه صفة أخرى للقلب.. كثيراً ما أقرأ وأسمع عنها أنها من (أمراض القلوب)... وأنت تقول إنها من (ذنوب القلوب).

- نعم هي من (ذنوب القلوب).. لأنها تؤدي إلى اكتساب السيئات واستحقاق غضب الرب والعذاب يوم القيامة... دعني أُورد لك ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الباب...

«وسُئل أيهما أولى معالجة ما يكره الله من قلبك مثل الحسد والحقد والغل والكبر والرياء والسمعة ورؤية الأعمال وقسوة القلب وغير ذلك مما يختص بالقلب من دَرَنه وخبثه أو الاشتغال بالأعمال الظاهرة من الصلاة والصيام وأنواع القربات من النوافل والمنذورات مع وجود تلك الأمور في قلبه أفتونا مأجورين؟ فأجاب رحمه الله: الحمد لله من ذلك ما هو عليه واجب وأن للأوجب فضل وزيادة كما قال تعالى فيما يرويه عنه رسوله: «**ما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ثم قال: ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه**» (متفق عليه)، والأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب، فإن القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذ خبث الملك خبثت جنوده، ولهذا قال النبي ﷺ : «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله**» (متفق عليه).

كنت وصاحبي بانتظار موعد إقلاع رحلتنا لأداء العمرة... قررنا الذهاب والرجوع في ذات اليوم... بحجز أول رحلة في الصباح... والعودة مع آخر رحلة... كانت أول تجربة لنا بهذا الجدول السريع!!

- أليس (قسوة القلب) من الأمور التي تَوَعَّد الله صاحبها بـ(الويل)؟!

- بلى... أحسنت.. وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ (الزمر).

فهو من ذنوب القلوب التي توعّد الله صاحبها بالويل.. كما للمطففين وكما للهُمَزة اللمزة... وكما قال العلماء (كل ذنب جزاؤه الويل فهو من الكبائر)... نسأل الله العافية...

القلبُ القاسي.. يمنع صاحبه من كل خير.. فلا ينتفع بموعظة ولا يتذكر الآخرة... ولا يتورع عن معصية... حتى مع أَوْلَى الناس ببره... والديه...

لذا وجب على العبد أن يراقب قلبه... فإذا بدأت فيه علامات القسوة عالجها فور حدوثها.

إقترح علي صاحبي أن نجلس في المقهى الموجود في صالة الانتظار نتناول شيئاً قبل الإقلاع... فقد غادرنا بيوتنا بعد صلاة الفجر مباشرة...

أخذنا حاجتنا...

- وعلامات قسوة القلب؟!

- الغفلة.. عن الطاعات والآخرة والموت.. والانغماس في الشهوات والملذات.. كما في حديث أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يبغض كل جعظري جواظ سخاب بالأسواق جيفة بالليل حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة**» (صحيح على شرط مسلم).

يسمع آيات الله فلا تتجاوز طبلة أذنه.. ويرى الجنازة ولا يتجاوزه المشهد بؤبؤة عينه.

يقول ابن القيم: «ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبُعد عن الله، خُلقت النار لإذابة القلوب القاسية... أبعد القلوب من الله القلب القاسي... إذا قسى القلب قحطت العين... قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة الأكل والنوم والكلام والمخالطة كما القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ ومن أراد صفاء قلبه فليُؤْثر الله على شهوته القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها... القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها شغلوا قلوبهم بالدنيا ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وآياته المشهودة ورجعت إلى أصحابها بغرائب الحكم وطرف الفوائد... إذا غُذي القلب بالتذكر وسُقي بالتفكر ونُقي من الدغل رأى العجائب وأُلهم الحكمة» (الفوائد).

«القلب (المخبت) ضد القاسي والمريض وهو سبحانه الذي جعل بعض القلوب مخبتة إليه وبعضها قاسياً وجعل للقسوة آثاراً وللإخبات آثاراً فمن آثار القسوة تحريف الكلم عن مواضعه، وذلك من سوء الفهم وسوء القصد وكلاهما ناشئ عن قسوة القلب ومنها نسيان ما ذُكّر به وهو ترك ما أُمِر به علماً وعملاً ومن آثار الإخبات وَجَلُ القلوب لذكره سبحانه والصبر على أقداره والإخلاص في عبوديته والإحسان إلى خلقه» (شفاء العليل).

- لعلك تذكرنا ببعض ما ورد في صفة الرسول ﷺ من لِين القلب وهديه في هذا الأمر.

- دعني أبحث لك في هاتفي..

في أقل من دقيقة وجدت ضالتي...

إسمع يا (أبا خالد)...

يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ (آل عمران).

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة.

قال: أَجَل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن، يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحِرْزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا (لا إله إلا الله). ويفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صُمَّاً، وقلوباً غلفاً. (البخاري)

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ يشكو قسوة قلبه، قال: «أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك: إرحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يلين قلبك وتدرك حاجتك» (حسن لغيره، صحيح الترغيب).

اتباع الهوى

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (الجاثية)

- يجهل كثير من الناس أن اتباع الهوى يكون في الدين أيضاً...

استغرب صاحبي مقالتي... كنا في طريقنا إلى مركز المدينة لأخذ ثياب صاحبي بعد مكالمة تلقاها من الخياط...

- ماذا تعني باتباع الهوى في الدين؟ أحدنا إذا سمع اتباع الهوى تخطر على باله شهوات... من شرب خمر.. أو زنا... أو معازف.. أو المحرمات.. من المعاملات كالربا.. والسرقة.. وغير ذلك...

- اتباع الهوى في الدين هو اتباع ما يحلو للعبد في دين الله وترك ما لا يحلو له.. وكذلك.. ترك السنة إلى البدعة.. والابتداع بدل الاتباع... وهذا أخطر على العبد... لأنه أقرب تفسير لقول الله تعالى..

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ (الكهف).

إن إتباع الهوى... إذا وقع في العلم أخرجه إلى الكِبْر وإذا وقع في الزهد أخرجه إلى الرياء... وإذا وقع في الحكم أخرجه إلى الظلم... وإذا وقع في العبادة أخرجها إلى البدعة... «وكل بدعة ضلالة».

كانت الطرقات سالكة.. فقد قاربت الساعة التاسعة ليلاً يوم الثلاثاء..

- هل تذكر الحديث عن المهلكات والمنجيات؟! أظن فيها اتباع الهوى!

– نعم، الحديث عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية والعدلُ في الرضا والغضب والقصدُ في الفقر والغنى وثلاث مهلكات: هَوىً متّبع وشُحّ مطاع وإعجابُ المرء بنفسه» (السلسلة الصحيحة).

والهوى في الدين.. أن يتبع ما يراه حسناً.. ويترك غيره وفق هواه... وإن كان لديه بعض العلم.. فلا يوطّن نفسه على .. (سمعنا وأطعنا).. ولا يستجيب لآراء العلماء ابتداء من الصحابة ومن بعدهم... وقد وصف الله عز وجل هؤلاء فقال:

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠﴾ (القصص).

وهذا ما وقع فيه الخوارج.. الذين وصفهم الرسول ﷺ في الحديث عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه... وهو واقف على رأس الحرورية عند باب دمشق وهو يقول: «**كلابُ أهل النار.. كلابُ أهل النار.. كلابُ أهل النار.. خير قتلى من قتلوه**»، ودمعت عيناه.. فقال له رجل: يا أبا أمامة... أرأيت قولَكَ هؤلاء كلاب أهل النار أشيءٌ سمعته من رسول الله ﷺ أو من رأيك؟ قال: إني إذاً لجريء.. لو لم أسمعه من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً... وعدّ سبع مرات ما حدثتكموه».. (صحيح ابن ماجة).

هؤلاء مرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِية.. مع أنهم أشد الناس صلاة وصياماً وحفظاً لكتاب الله!! إلا أنهم اتبعوا أهواءهم في دين الله..

وأولهم كان في عهد النبي ﷺ ... وذلك عندما قسم رسول الله ﷺ غنائم هوازن بالجعرانة.. فقام رجل من بني تميم... فقال: «إعدل يا محمد!!... فالتفت إليه النبي ﷺ وقال: ويلك.. ومن يعدل إذا لم أعدل.. لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أعدل!! فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله... أقوم فأضرب عنق هذا المنافق؟! قال ﷺ: معاذ الله أن تتسامع الأمم أن محمداً يقتل أصحابه.. ثم قال ﷺ: إن هذا وأصحاباً له.. يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» (صحيح ابن ماجه).

فالعبد يجب عليه أول ما يجب إذا أراد رضا الله.. أن يكون وقَّافاً عند أوامرِ الله وهديِ رسول الله ﷺ.. أعجبه أو كرهه.. وهذا ما ربَّى عليه رب العزة عباده المؤمنين.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ (المؤمنون).

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ (الأحزاب).

وهذه الآية نزلت في زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله ﷺ عندما خطبها النبي ﷺ لزيد.. وكرهت في بادئ الأمر إلا أنها أذعنت عندما علمت أنه بأمر الله!!

وصلنا.. محل الخياطة.. في أقل من ربع ساعة... مع أن المعتاد أن يصل الوقت إلى قرابة الساعة لقطع هذه المسافة... أخذ صاحبي حاجته.. بدأنا طريق العودة.

- وهذا يدخل في جهاد النفس.. أليس كذلك؟

- بلى... وجهاد النفس مطلوب لكل مسلم... ففي الحديث.. عن أبي ذر.. عن النبي ﷺ قال: «أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه» (صحيح الجامع).

- وما التالي في اتباع الهوى من حيث الشدة بعد اتباع الهوى في الدين؟

- لعله اتباع الهوى في الحُكم والقضاء... فمن كان ذا سلطان ينبغي أن يتبع الحق... في الحكم والقضاء والشهادة... وهذا أمرُ الله لنبيه داود عليه السلام.. وللجميع.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ (ص).

وهكذا يأمر الله عباده المؤمنين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ (النساء).

فكل تشريع يخالف شرع الله فهو اتباعٌ للهوى وكل شهادة لا تتفق وأمر الله، فهي اتباع للهوى.. وفي هذا فساد عظيم كما قال تعالى:

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ (المؤمنون)..

في تفسير هذه الآية.. قال مجاهد والسدّي: «الحق هو الله عز وجل.. والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى وشَرَعَ الأمور وفق ذلك لفسدت السمواتُ والأرض ومن فيهن... أي لفساد أهوائهم واختلافها». انتهى

- وبعد ذلك في اتباع الهوى؟!

- بعد ذلك.. اتباع شهوات النفس ونزغات الشيطان.. كما توعَّدَ عدوّ الله إبليس:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الأعراف).

وفي الحديث: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لما خلق الله الجنة قال لجبريل اذهب فانظر إليها.. فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال يا رب وعزتك لا يسمع بها أحدٌ إلا دخلها... ثم حفّها بالمكاره... ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها.. فذهب فنظر إليها.. ثم جاء.. فقال: أي رب وعزتك خشيت أن لا يدخلها أحد.. قال: فلما خلق النار.. قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها ثم جاء.. فقال: يا رب وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها.. فحفَّها بالشهوات ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها.. فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال: أي رب وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها**» (صحيح أبي داود).

فالشهوات.. سبيلٌ إلى النار والعياذ بالله.. ولذلك كانت مخالَفَةُ الهوى ديدنُ الصالحين من عباد الله..

قال قتادة: إن الرجل إذا كان كلما هوى شيئاً ركبه.. وكلما اشتهى شيئاً أتاه.. لا يحجره عن ذلك ورعٌ ولا تقوى فقد اتخذ إلهه هواه.. وذلك في تفسير قوله تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الجاثية).

فالكافر يسجد للصنم.. وصنم هذا هواه!!

حب الدنيا

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ٢٠﴾ (الحديد)

– لماذا ذَكَرَ اللهُ اللّعب قبل اللهو في آيات... وذكر اللهو قبل اللعب في آيات أخرى:

– ابتداء ينبغي أن نؤمن بأن القرآن كلام الله.. وأنه أكمل كلام باللغة العربية لأن الله تكلم به... كل حرف فيه.. أتى في مكانه... بل كل نقطة وكل حركة وسكون.. هو الكمال في اللغة العربية.. وبالرجوع لسؤالك فقد جاءت كلمة «اللهو» قبل «اللعب» في آية واحدة من كتاب الله وهي:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٦٤﴾ (العنكبوت).

وجاءت كلمة «اللعب» قبل «اللهو» في ثلاث آيات من القرآن... هي:

قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٣٢﴾ (الأنعام).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ٣٦﴾ (محمد).

وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ٢٠﴾ (الحديد).

كان السائل أحد المصلين... مُدَرّسُ إسلاميات للمرحلة الثانوية.. والمجيب شيخنا إمام المسجد.. خريج الأزهر.. حافظ القراءات الكبرى والصغرى ومؤهل لإجازة الحفّاظ ومنحهم السند وفق قراءاتهم.

كنا في مجلس المسجد.. بين العشائين...

– وما الفرق بين (اللّهو) و(اللعب)؟!

– (اللعب)... شيءٌ للترويح... و(اللهو) وليد الرغبة والشهوة.. فاللعب قد يكون مباحاً... ولا يكون من الضرورات.. لا في الحال ولا في المآل.. فإذا شغله (اللعب) عن الواجبات... صار (لهواً)!! وقدّم اللعب على اللهو... في ثلاث آيات... لأنه يكون في مقتبل العمر.. وللصبيان.. فهو يحصل قبل اللهو.. وأخّر (اللهو)... لأنه يأتي بعد مرحلة الصبا... في الشباب وما بعده!!

– سبحان الله.. بيان جميل.. لكتاب الله..

تابع شيخنا حديثه..

– والأهمُّ من ذلك أن الله حذر من أن تدخلَ الدنيا قلبَ المؤمن سواء باللعب أو اللهو.. بل وحذر من الدنيا على إطلاقها وبيَّن أنها (لا شيء).. مقابل الآخرة... ولو رجعنا إلى اللغة لنعرف معنى (الدنيا)...

(دنا) فعل ماض بمعنى قرب وللمؤنث (دنت).

و(دنؤَ) فهو (دنيء).. بمعنى (حقير).

ويقال للرجل إذا طلب شيئاً خسيساً... (دنيء)..

فالدنيا.. قريبة الأجل.. أي قصيرة تنتهي بسرعة.. أو أنها (دنيئة)... ووصفها النبي ﷺ بأنها متاع.. والمتاع شيء مؤقت.. ففي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو قال، قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**».

والذم ليس للدنيا على الإطلاق.. وإنما لمن «استحب الحياة الدنيا».. ولمن «اغتر بالحياة الدنيا» يقول تعالى:

﴿ **مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧** ﴾ (النحل).

وهذا الحب للدنيا يجرّ العبد إلى الرضا بها والاطمئنان إليها كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧** ﴾ (يونس)... هؤلاء غرّتهم الحياة الدنيا.. بمعنى خُدعوا بها.. فأصبحت غاية مناهم.. وأعلى مطالبهم!!! وباعوا آخرتهم لأجل الدنيا.. كما قال تعالى... ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦** ﴾ (البقرة).

وفي كتاب الله.. جاء ذكر (الدنيا) أكثر من مئة مرة.. وليس في هذه المئة مدح لها ولا مرة واحدة... وإنما تحذير منها... وإظهار حقيقتها.. ويُمدح العبد الصالح إذا كانت دنياه مطية لآخرته كما في حق الأنبياء ... مثل قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ**

﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ (النحل).

والنبي ﷺ وضع الدنيا في مكانها الصحيح... فقال ﷺ: «**ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**» (صحيح الترمذي).

قاطع الحديث (أبو سليمان):

– ولكن الله حبَّبَ إلينا أموراً من الدنيا لتستقيم الحياة.. كما في الحديث.. «**حُبِّبَ إليّ من الدنيا النساء والطيب وجُعلت قرة عيني في الصلاة**» (صحيح النسائي).

– نعم... أحسنت يا أبا سليمان.. القصد ألا يغترّ العبدُ بها... وتلهيه عن آخرته.. هذا هو المحذور.. كما في الحديث.

«**من كانت نيته الآخرة جمعَ اللهُ شملَه وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له**» (صحيح الجامع).

فينبغي على العبد أن يضع الدنيا في مكانها الذي يليق بها.. لا يفرح لإقبالها ولا يحزن لإدبارها.. ولنتدبر قول الله تعالى في وصف من استحقوا العذاب، قال تعالى: ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾... و(الاستحباب).. أشد من الحب.. طلبوا حبَّها وسَعَوا إليه وبذلوا الجهد لأجله.. وفي الآية الأخرى وصفهم الله تعالى: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا

بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ دفعوا مصيرهم الأبدي ثمناً لحياتهم الزائلة!! ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾.. ولخّص النبي ﷺ حال الدنيا.. بكلمات قليلة، وقد أوتي جوامع الكلم..

عن أبي هريرة وابن مسعود رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله، وما والاه، وعالماً أو متعلماً»** (صحيح الجامع).

الحرص على الدنيا

«فقير كلُّ ذي حرص»

مع دخول الشهر السابع من التقويم الميلادي يشتد الحر.. يطول النهار ويقصر الليل ويفضل كثير من الناس السفر.. ومن لا يستطيع... يجعل نشاطاته الإجتماعية ليلية.. ويصلي الفجر ثم ينام إلى الصباح... ويقيل ساعتين قبل العصر أو بعده!!!

- الحمد لله... وبصراحة أنا من محبي أشهر الصيف... أشعر أنها صحية... ويمكن للمرء أن ينجز الكثير في فترة العصر الطويلة...

إستغرب (أبو سالم) وجهة نظر صاحبي...

- أظنك تقول ذلك لأنك لا تحب السفر ابتداء..

سبقت صاحبي في التعليق...

- كثيرٌ من الناس يحرص حرصاً شديداً على السفر.. وإن اضطر إلى الاستدانة.. وإن أرهق ميزانيته... وهذا النوع من الحرص ليس من التدبير الصحيح... وليس من الدِّين... فالحرص على الدنيا من أشد ما يضر العبد في دينه..

كنَّا ثلاثة نفر... نعود بعد صلاة العصر أخاً لنا في المستشفى الصدري.. أجرى فحوصات القلب وتبيَّن ضرورة إجراء عملية قلب مفتوح بعد خمسة أيام.

- ماذا لديك في موضوع الحرص؟!

- الحُرص نوعان أساسيان.. حرص على المال.. وحرص على الشرف ولكل منهما قسمان... أما الحرص على الشرف... فالقسم الأول الحرص على الرئاسة والأمارة والوزارة وغيرها... والقسم الآخر هو الحرص على العلم والدين لأجل العلو والرفعة... وهذا هو الأسوأ...

والحرص على المال قسمان... طلبه بشدة والاشتغال به من الوجوه المباحة بحيث يشغله عن الآخرة... والثاني طلبه من الأبواب المحرمة ومنع حقوق من لهم حق فيه**!!**

قاطعني...

- إسمح لي أن أعترض على القسم الثالث وهو طلب المال من الحلال وصرفه في حلال... هذا لا شيء فيه..

- لعلك لم تنتبه إلى مقولتي.. «بحيث يشغله عن الآخرة»... ودعني أورد لكما بعض الأحاديث في ذلك...

الطريق إلى المشفى يستغرق قرابة الثلاثين دقيقة... استخرجت هاتفي وأخذت أقرأ...

- عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**» (صحيح الترمذي).

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كانت الدنيا همّه فرَّق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا**

ما كُتِبَ له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة» (السلسلة الصحيحة).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تعلّم علماً مما يُبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة**» (صحيح أبي داود).

- ما المقصود بـ (عَرْفَ الجنة)؟

- طِيبُها...

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**من جعل الهموم هماً واحداً على المعاد كفاه الله سائِرَ همومه ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك**» (صحيح الجامع).

فالقصد... أن العبد مجبولٌ على حب الدنيا وجمع المال... والتوسع في المباحات.. كما قال الله تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ (آل عمران).

والآية التي بعدها مباشرة...

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ (آل عمران).

فلا ينبغي أن تكون الدنيا همَّاً.. يشغل العبدَ ليل نهار.. بل يعطي الدنيا ما تستحق والآخرة ما تستحق ويضع كل منهما في مكانه...

- وماذا عن الحديث في التحذير من طلب الأمارة؟

- نعم جزاك الله خيراً ذكرتني..

في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم ستحرصون على الأمارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة**».

هذه الغرائز... جعلها الله في خَلْقِه لتستقيم دنياهم كما جميع الشهوات الأخرى... فعلى العبد أن يتعامل معها بشكل إيجابي ويستفيد منها وإلّا أصبحت سبَبَاً لهلاكه.. شهوة الأكل وشهوة النساء وشهوة المال، وشهوة الرئاسة، وشهوة العُلُوّ والبروز... وشهوة القُوة والسيطرة... وغيرها من شهوات النفس.

قال ابن القيم: «إذا أصبح العبد وأمسى وليس همّه إلا الله وحده تحمّل الله عنه سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمّه، وفرغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته، وإن أصبح وأمسى والدنيا همُّه حمَّله الله همومَها وغمومَها وأنكادَها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبَّته بمحبة الخلق ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحوش في خدمة غيره». (الفوائد)

الغفلة

أصبحت وسائل التواصل الإجتماعي ركيزة أساسية في الحياة اليومية للغالبية الكبرى.. بل أصبح جيل الألفية الثانية.. لا يمكن أن «يعيشوا» دون هاتف ذكي.. ومشاركة في وسائل التواصل... يعرفون كل شيء عن هذه البرامج... وكلما ظهر برنامج جديد... أتقنوه... وأدمنوه..

- لا أدري إلى ماذا سيؤدي هذا التسارع الكبير في هذه البرامج...

- والله.. لا أرى إلا زيادة فساد.. وانتشار للأفكار غير المنضبطة.. ودون حدود... تُلقى الفكرة في أقصى الشرق فتصل إلى اقصى الغرب بلمح البصر.. يطلّع عليها أحفادنا.. ولا ندري مدى تأثرهم.. نسأل الله الحفظ والرحمة لأجيالنا القادمة..

- ما أستغربه هو سرعة إتقانهم لكل جديد... مع أن جيلنا بالكاد اعتاد على الرسائل... وبعض طرق التواصل مثل (الواتس أب)...

- ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (الروم).

يقول الحسن البصري: «والله ليبلغ أحدُهم من دنياه أن يقلب الدرهم على ظفره.. فيخبرك بوزنه... وما يُحسن أن يصلي»..

- والله لقد صدق.. هذا حال أغلب جيل أحفادنا... يعرفون أدق تفاصيل هذه البرامج.. ولا يحسنون قراءة القرآن من المصحف!!

- إن الغفلة عن الآخرة هي السبب الأول في الانغماس بتفاصيل الدنيا وإتقانها.

كنت وصاحبي في حفل تخرّج أحفادنا.. في إحدى المدارس الخاصة.. وكان أحد التلاميذ يستعرض مهاراته في الهاتف الذكي ضمن برنامج حفل التخرّج!!

قررنا الذهاب خارج المسرح لنأخذ قهوتنا بعيداً عن الضوضاء..

– الغفلة عن الآخرة.. ظاهرة عامة أيامنا هذه... الكلّ مشغول.. الأطفال في مدارسهم.. والآباء في أعمالهم.. والجميع في المناسبات الاجتماعية، وأصبح التوجه إلى الله.. شكْلِياً وفي المواسم.. مثل رمضان... والعشر الأواخر منه.. فقط.. وربما موسم الحج..

– لا يمكن أن نعمم.. ولكن نَعَم.. هذا مُلاحظ.. والغفلة عن الآخرة سببها الأساس (جهل المرء بالله عز وجل).. وذلك أن من عرف ربه.. بأسمائه وصفاته.. لا يمكن أن يغفل عن لقائه يوم القيامة..

– وأظن أن الصحبة سبب مهم في الغفلة..

– نعم.. من كان يصاحب أهل الدنيا.. فهو منهم.. كما قال النبي ﷺ: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**» (صحيح الترمذي).

ولا شك أن المجلس الذي يخلو من ذكر الله.. وينشغل بالمباريات واللهو واللعب والأكل والمزاح وأحاديث الدنيا يشغل الشاب عن الآخرة.. وكثير منهم يقضي الساعات الطويلة في مثل هذه المجالس... وربما يسمعون الأذان فلا يذهبون للمسجد.. وأفضلهم من يؤدي الصلاة في المجلس ويرجع إلى لهوه!!

– ولو أن أحدهم إلتزم أن يؤدي الصلوات في المسجد في أوقاتها لحفظه

الله من الغفلة... كما في الحديث... عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حافظ على هؤلاء الصلوات المكتوبات لم يكتب من الغافلين**» (رواه ابن خزيمة، صححه الألباني).

والغفلة من صفات الكافرين.. كما وصفهم الله عز وجل..

﴿**ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾**﴾ (الأنبياء).

ويقول سبحانه: ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾**﴾ (الأعراف).

والغفلة سبيل لترك الواجبات.. ونتيجة لها..

إستغرب صاحبي مقولتي..

- ماذا تعني بأنها سبيل لترك الواجبات.. ونتيجة لها؟

- من غَفَل عن أداء الواجبات وتهاون في الفرائض.. عاقبه الله بالغفلة في قلبه..

كما في الحديث عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**لينتهين أقوامٌ عن وَدَعِهِم الجُمُعات أو لَيَختِمَنَّ الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين**» (مسلم)

وربما تكون الغفلة ثمرة لحب الدنيا.. والحرص عليها وطول الأمل فيها.. فالإنسان يكبر.. ولكن يزداد تعلقاً بالدنيا إن لم يهذب نفسه ويلجمها ويذكرها بالآخرة كما في الحديث... عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يهرم ابن آدم وتشِبُّ منه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر**» (مسلم).

وفي رواية: «**الشيخ يكبر ويضعف جسمه وقلبه شاب على حب اثنتين: طول الحياة وحب المال**» (السلسلة الصحيحة).

فالعبد إن لم يربّ نفسه على الإلتزام بتعاليم الدين وينشأ على ذلك.. ويتمسك به.. لن يجد السبيل إلى ذلك سهلاً إذا تقدّم به العمر..

سمِعنا تصفيقاً... إيذاناً ببدء توزيع الشهادات...

- لذلك دلَّنا النبي ﷺ على أعمالٍ نواظبُ عليها لنحفظ أنفسنا عن الغفلة... أولُها كما ذكرت المحافظة على الصلوات الخمس المكتوبات في وقتها جماعة... والثانية كما في الحديث... عن عبد الله بن عمرو بن العاص... قال رسول الله ﷺ: «**من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمئة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين**» (صحيح أبي داود).

- هذه والله سهلة.. يعني لو قام أحدنا كل ليلة.. بالفاتحة ثم سورة الإخلاص (أربع آيات) والفلق (خمس آيات)، والناس (ست آيات)، أي خمس عشرة آية... لم يكتب من الغافلين؟

– هذا من فضل الله وتيسيره... والحمد لله..

ولا شك أن من وطَّن نفسه أن يقرأ كل يوم شيئاً من كتاب الله.. وإلتزم الدعاء فإن الله عز وجل يوفقه لأن يحفظه من الغفلة.. ومن أسباب إزالة الغفلة زيارة القبور بين فترة وأخرى كما قال النبي ﷺ: «**زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة**» (مسلم).

قال ابن القيم: «فأكثر الخلق لا ينظرون في المراد من إيجادهم، ولا يتفكرون في قلة مُقامهم في دار الغرور، ولا إلى أين يرحلون؟ وأين يستقرون؟ قلّ نصيبهم من العقل، وشملتهم الغفلة، وغرتهم الأماني، وخدعهم طول الأمل، وكأن المقيمَ لا يرحل، وكأن أحدهم لا يُبعث ولا يسأل، وكأن مع كل مقيم توقيع من الله لفلان بن فلان، بالأمان من عذابه، والفوز بجزيل ثوابه، فأما اللذات الحسية، والشهوات النفسية، كيفما حصلت فإنهم حصلوها، ومن أي وجه لاحت أخذوها، غافلين عن المطالبة، آمنين من العاقبة، يسعون لما يدركون، ويتركون ما هم به مطالبون، ويعمرون ما هم عنه منتقلون، ويُخربرون ما هم إليه صائرون، وهم عن الآخرة هم غافلون، ألهتهم شهوات نفوسهم، فلا ينظرون في مصالحها، ولا يأخذون في جمع زادها في سفرها ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (الحشر)».

حب الفاحشة

– من الآيات التي تقلقني أحياناً.. قوله تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ (الحجرات).

– ليتك أتبعتها بالآية بعدها... ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ (الحجرات).

– أحسنت ولكن الجزء الذي أردت التركيز عليه هو قوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ﴾.. وذلك أن نفسي «تشتهي» أحياناً.. «ارتكاب المعصية».. حتى أكون صريحاً معك... من باب «التجربة».. وقد تكون من الكبائر.. أحياناً..

– وهل تُقْدِم على ارتكابها؟!

– أحاول أحياناً.. ولكن الله يعصمني .. ولا أقع فيها.. وأحياناً أؤنب نفسي.. وأحتقرها إذا ارتكبتها.. وأستغفر وأتوب.. ولكن أشعر أن المؤمن لا ينبغي أن يفكر بارتكاب المعصية..

– دعني أبيّن لك.. أولاً.. حديث النفس.. لا شيء فيه.. إن لم يترجم إلى عمل... والشيطان لا يدَعُ أحداً إلا ويحاول أن يغويه.. والله عز وجل.. يحفظ عباده المخلصين.. فمن كان صادقاً مع الله.. يأتيه حديث النفس ووسوسة الشيطان... ولكنه يذكّر نفسه وينتهي.. وفي ذلك أدلة كثيرة.. منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ (الأعراف).

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (ص).

وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (الحجر).

وفي الحديث:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل، قال: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هو همّ بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة**» (متفق عليه).

وعن أبي ذر أن النبي ﷺ قال له: «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخُلق حسن**» (صحيح الترغيب).

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ قال: «**إن عبداً أصاب ذنباً، وربما قال: أذنب ذنباً فقال: رب أذنبت وربما قال: أصبت فاغفر لي فقال ربه: أعلِم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت**

لعبدي، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً، أو أذنب ذنباً فقال: رب أذنبت، أو أصبت آخر فاغفره فقال: أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب؟ ويأخذ به غفرت لعبدي ثم مكث ما شاء ثم أذنب ذنباً وربما قال: أصاب ذنباً قال: قال رب أصبت أو أذنبت آخر فاغفره لي فقال: أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي ثلاثاً فليعمل ما شاء» (أخرجه البخاري).

كان صاحبي - كعادته - يحدثني بما يدور في خاطره و «يفكر بصوت عال».. ولا يفعل ذلك إلا معي - كما يقول.

- فالعبد المؤمن وإن وقع في «الفاحشة»... لا يجاهر بها.. ولا يحبها.. ولا يدعو لها.. والجميع يقع في الذنب.. والصالحون يستغفرون ويتوبون وغيرهم.. يتمادى في الغي.. ويتفاخر به ويدعو له.. ويحب أن يرى الجميع يقع فيه... ولذلك يقول تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ (النور).

القلب المؤمن لا يحب الفاحشة.. وإن وقع فيها.. ولا يحب أن تنتشر.. وإن ارتكبها.. وذلك أن قلب المؤمن يبقى على الفطرة السليمة.. كما أخبر الله.. يكره الكفر والفسوق والعصيان.. أما القلب الذي يحب هذه الأمور فقد زاغ عن درب الراشدين... وسلك طريق الخائبين!!

ودعني أقرأ لك من تفسير ابن عاشور في هذه الآية.. أعني سورة النور الآية (١٩).

لما حذَّر الله المؤمنين من العود إلى مثل ما خاضوا به من الإفك على

جميع أزمنة المستقبل أعقب تحذيرهم بالوعيد على ما عسى أن يصدر منهم في المستقبل بالوعيد على محبة شيوع الفاحشة في المؤمنين، فيعم المؤمنين والمنافقين والمشركين، فهو تحذير للمؤمنين وإخبار عن المنافقين والمشركين.

وجعل الوعيد على المحبة لشيوع الفاحشة في المؤمنين تنبيهاً على أن محبة ذلك تستحق العقوبة، لأن محبة ذلك دالة على خبث النية نحو المؤمنين، ومن شأن تلك الطوية أن لا يلبث صاحبها إلا يسيراً حتى يصدر عنه ما هو محب له، أو يُسَر بصدور ذلك من غيره.

وتلك المحبة شيء غير الهمّ بالسيئة وغير حديث النفس، لأنهما خاطران يمكن أن ينكف عنهما صاحبهما، وأما المحبة المستمرة فهي رغبة في حصول المحبوب.

ومعنى أن تشيع الفاحشة أن يشيع خبرها، لأن الشيوع من صفات الأخبار والأحاديث وهو: اشتهار التحدث بها، أي أن يشيع خبرها، إذ الفاحشة هي الفعلة البالغة حداً عظيماً في الشناعة.

وشاع إطلاق الفاحشة على الزنا ونحوه، وتقدم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّـٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ (النساء: ١٥). وتقدم ذكر الفاحشة بمعنى الأمر المنكر قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾ (الأعراف: ٢٨)، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ (البقرة: ١٦٩).

ومن آداب هذه الآية أن شأن المؤمن أن لا يحب لإخوانه المؤمنين إلا ما يحب لنفسه...

وصلنا إلى محل الخياطة الذي أراده صاحبي.. ليأخذ (الدشاديش) التي خاطها لموسم الشتاء..

– العبد المؤمن إن حدثته نفسه بمعصية.. تذكر عظمة الله وشدة عقابه.. فإذا وقع فيها.. تاب إلى الله واستغفر.. وأكثر من الاستغفار والحسنات.. ولا يستمر في المعاصي.. ولا يتوقف عن التوبة والاستغفار والرجوع إلى الله.. ويبذل الأسباب بالابتعاد عن مواطن الفتن وأماكن الفاحشة وصحبة السوء... ويستعين بالله دائماً صادقاً.. سوف يصل إلى بر الأمان بإذن الله تعالى..

حب الشهرة

سألت صاحبي عن أحد معارفنا...

- لقد أصبح من مشاهير «وسائل التواصل».. وله من المتابعين العدد الكبير.. وأصبح يجني أموالاً من «التيك توك».. أو هكذا بلغني عنه..

- إنها إحدى فتن زماننا.. نسأل الله السلامة.. فقد كان صاحب صلاة.. ومسجد.. وحلقات ذكر..

- بدأ مشواره.. بعرض مهاراته في الطبخ.. وهو كما تعلم يعشق هذه الهواية.. وأصبحت تدرّ عليه أموالاً طائلة.. بالإعلانات والمتابعات..

كنت وصاحبي نتريض بعد العِشاء.. مع اعتدال الطقس في أواخر الشهر العاشر (أكتوبر).. والانتهاء من الصلاة قرابة الساعة السابعة..

- لقد ذكّرتني بحديث النبي ﷺ:

«**ما ذئبان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**» (صحيح الترمذي).. ولا شك أن الحرص على الشهرة والرئاسة.. والمال من أشد مفسدات الدين.. وحب الشهرة شهوة خفية في النفس.. إذا تمكنت من العبد.. غلبت الشهوات الأخرى..

- هذه الشهوات تَخفى على العبد فلا ينتبه لها.. حتى تطغى... مثل حب الرئاسة وحب الظهور.. أو الشهرة كما هو حاصل أيامنا هذه... يقول ابن تيمية: «فهي خفية تخفى على الناس، وكثيراً ما تخفى على صاحبها».

ومن العلامات ما ذكره الفضيل بن عياض: «ما أحبّ أحدٌ الرئاسة إلا حسد وبغى وتتبع عيوب الناس، وكره أن يُذكر أحدٌ بخير».

بحث صاحبي في هاتفه...

- اسمع ما يقول ابن الجوزي: «وقد يكون الواعظ صادقاً قاصداً للنصيحة إلا أن منهم من شرب الرئاسة في قلبه مع الزمان فيحب أن يُعظّم وعلامته: أنه إذا ظهر واعظ ينوب عنه كره ذلك... ومنهم من يفرح بكثرة الأتباع ويلبّس عليه إبليس بأن هذا الفرح لكثرة العلم، وإنما مراده الأصحاب».

توقفنا عند أحد البقالات المتنقلة.. أخذنا حاجتنا من الماء..

- لقد ربَّى رسول الله ﷺ أصحابه على عدم التطلع للرئاسة ولا الإمارة.. ففي الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه قال: دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من قومي فقال أحد الرجلين: أمِّرنا يا رسول الله، وقال الآخر مثله.. فقال ﷺ: «**إنا لا نولِّي هذا من سأله ولا من حرص عليه**» (البخاري).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بخير الناس منزلة؟**» قالوا: بلى يا رسول الله.. قال: «**رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله حتى يقتل أو يموت.. ألا أخبركم بالذي يليه؟.. رجل معتزل في شِعب، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعتزل شرور الناس، ألا أخبركم بشر الناس؟ رجل يُسأل بالله ولا يعطي**» (صحيح الجامع الصغير).

فالعبد ينبغي أن يحرص على سمعته عند أهل السماء لا عند أهل الأرض!!

والأحاديث في بيان ذلك كثيرة منها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أُعطي رضي وإن مُنع سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخر آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعثٌ رأسه، مغبرة قدماه، إن كانت الحراسة كان في الحراسة، وإن كانت الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفّع له، ثم طوبى له**» (البخاري). وحدثنا حبيب بن شهاب العنبري قال: سمعت أبي يقول: أتيت ابن عباس أنا وصاحب لي فلقينا أبا هريرة رضي الله عنه عند باب ابن عباس فقال: من أنتما؟ فأخبرناه، فقال: انطلقا إلى ناس على تمر وماء، إنما يسيل كل واد بقدره، قال: قلنا: كثر خيرك، استأذن لنا على ابن عباس، قال: فاستأذن لنا، فسمعنا ابن عباس يحدث عن رسول الله ﷺ فقال: خطب رسول الله يوم تبوك، فقال: ما في الناس مثل رجل أخذ بعنان فرسه، فيجاهد في سبيل الله ويجتنب شرور الناس، ومِثلُ رجلٍ باد في غنمه يقري ضيفه، ويؤدي حقه، قال: قلت: أقالها؟ قال: قالها، قالَ: قلت: أقالها؟ قال: قالها، قال: قلت: أقالها؟ قال: قالها، فكبرت الله وحمدت الله وشكرت...» (إسناده صحيح، شعيب الأرناؤوط).

- كأن هذه الأحاديث تتحدث عن (حب الرئاسة)...

- نعم.. وهما وجهان لذات الداء.. (حب الرئاسة) و(حب الشهرة)..

كلاهما يفسد الدين... وتضيع أجر العمل الصالح... في الأثر عن يوسف بن أسباط قال: «الزهد في الرئاسة أشد من الزهد في الدنيا»

وكتب سفيان الثوري إلى صاحبه عباد بن عباد: «إياك وحب الرئاسة، فإن الرجل تكون الرئاسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء، فتفقّد نفسك واعمل بنية صادقة».

الطَيَرَة

- سمعت حديثاً.. في المذياع.. وأظنني لم أسمعه كاملاً أو ربما كان هناك خلل في الإرسال.

هكذا بدأ صاحبي حديثه بعد أن انتهينا من العِشاء وكنا في طريق العودة إلى منازلنا...

- وما هو الحديث..

- كان عن الطيرة.. أو التشاؤم لأن المحاورة كانت حول هذا الموضوع.. فذكر الضيف (إن الطيرة شرك). أنقله لك بالمعنى...

ثم قال: (وما منا إلا... ولكن الله يذهبه بالتوكل).

- نعم، هذا الحديث صحيح أخرجه البخاري في الأدب المفرد وأصحاب السنن والإمام أحمد... ونصه... عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطيرة شرك.. الطيرة شرك.. الطيرة شرك.. وما منا إلّا ولكن الله يذهبه بالتوكل**».

تعرف أن (الطَيَرة) أصلها من الطير، وذلك أنهم في الجاهلية كانوا إذا أرادوا أمراً أطلقوا الطير، فإن اتجهت يميناً استبشروا وأقدموا، وإن انطلقت شمالاً تشاءموا وأحجموا!!! ثم توسعوا في الأمر.. بأنهم إذا عزموا على أمر.. فسمعوا كلمة «... تم.. أفلح.. خير...»، أقدموا على الأمر وإذا سمعوا «خاب... انقطع... عجز...» تشاءموا وأحجموا... والتشاؤم ليس في دين الله... ووصفها النبي ﷺ بأنها «شرك»، لأنها من أعمال الجاهلية

المتعارف عليها.. وهي سوء ظن بالله عز وجل.. أما قوله ﷺ: «**وما منا إلا...**»، أي كل أحد يعتريه شيء من التشاؤم أو فِكْرٌ (سلبي).. وهذا يَذْهَب بالتوكل على الله.. أما من تصرف وفق ما يعتريه من تشاؤم... فقد وقع في باب من أبواب الشرك!!

- والآيات التي ذكر الله فيها الطِّيَرة؟!

- وصف الله موقف الأمم الكافرة من رسلها بذلك.

يقول سبحانه:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ (يس).

ويقول عز وجل عن قوم فرعون:

﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ (الأعراف).

وعن قوم صالح يقول:

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (النمل).

وعن معاوية بن الحكم السلمي.. قال.. بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذا عطس رجل فقلت يرحمك الله....»، فعلّمه النبي ﷺ أنه لا ينبغي الكلام في الصلاة.. فقال: إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام

وإن رجالاً يأتون الكهان.. قال ﷺ فلا تأتهم.. قال: ومنا رجال يتطيرون... قال: ذاك شيء يجدونه في صدورهم.. فلا يصدنهم» (مسلم).

دعني.. أخبرك بما فهمت...

- لا ينبغي التوقف عن عمل شيء لأجل التشاؤم بسبب رؤية طائر أو حيوان أو سماع كلمة.. بل يجب التوكل على الله.. وعدم الالتفات إلى هذه الأمور... وربما ينتاب المرء شعور سيئ... فلا ينبغي النظر إليه لأن الله يذهبه بالتوكل عليه سبحانه...

- نعم هذا هو الأمر باختصار...

- وماذا عن الحديث الذي يذكر أن التشاؤم في المرأة والمركبة؟

- نص الحديث:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا عدوى، ولا طيرة، والشؤم في ثلاث: في المرأة، والدار، والدابة**» (متفق عليه).

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن كان الشؤم في شيء ففي المرأة والدابة والسكن**» (صحيح الجامع).

ومعنى هذا الحديث إنْ فُرض وجود الشؤم يكون في هذه الثلاثة والمقصود منه نفي صحة الشؤم ووجوده على وجه المبالغة، فهو من قبيل قوله ﷺ: «**لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين**»، فلا ينافيه حينئذ عموم نفي الطيرة في قوله ﷺ: «**لا عدوى ولا طيرة**».

قال الخطابي: هو استثناء من غير الجنس، معناه إبطال مذهب الجاهلية

في التطيُّر فكأنه قال: إن كانت لأحدكم دار يكره سكناها أو امرأة يكره صحبتها أو فرس يكره سيره فليفارقه، ومنها أنه ليس المراد بالشؤم في قوله: «الشؤم في ثلاثة»، معناه الحقيقي بل المراد من شؤم الدار ضيقها وسوء جوارها، ومن شؤم المرأة أن لا تلد وأن تحمل لسانها عليك، ومن شؤم الفرس أن لا يُغزى عليه، وقيل حرانُها وغلاء ثمنها.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يُعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع: «**يا راشد**»، «**يا نجيح**» (صحيح الترمذي).

وجاء في «الموسوعة الفقهية الكويتية»:

إن اعتقد المكلف أن الذي شاهده من حال الطير مُوجِبٌ لما ظنه، مؤثر فيه، فقد كفر، لما في ذلك من التشريك في تدبير الأمور.

أما إذا علم أن الله سبحانه وتعالى هو المتصرف والمدبر وحده، ولكنه في نفسه يجد شيئاً من الخوف من الشر، لأن التجارب عنده قضت أن صوتاً من أصوات الطير، أو حالاً من حالاته يرادفه مكروه، فإن ظن نفسه على ذلك فقد أساء، وإن استعاذ بالله من الشر، وسأله الخير، ومضى متوكلاً على الله، فلا يضرُّه ما وجد في نفسه من ذلك، وإلا فيؤاخذ، لحديث معاوية بن حكيم.

وقال عكرمة: كنتُ عند ابن عباس رضي الله عنه فمرّ طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خيرٌ! خيرٌ!. فقال ابن عباس رضي الله عنه: ما عند هذا لا خير ولا شر.

وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا

طيرة، وخيرها الفأل». قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم» (متفق عليه).

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك**»، قالوا يا رسول الله! ما كفارة ذلك؟ قال: «**أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**».

تعليق شعيب الأرنؤوط: حسن.

الحُزن

«لم يأتِ الحزن في القرآن إلا منهياً عنه»

– من مداخل الشيطان إلى قلب المؤمن أن يوسوس له بالحزن كما قال تعالى عن النجوى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ (المجادلة).

وقطعاً لهذا السبب نهى النبي ﷺ أن يتناجى اثنان دون الثالث..، وقال: «**فإن ذلك يحزنه**» (مسلم).

وهذا مجرد شعوري مؤقت يدخل قلب المؤمن.. فما بالك بذلك الحزن الذي يملأ قلب الإنسان فيجعله طريح الفراش عاجزاً عن الحركة... تائه الذهن.. مشوش التفكير.. مسلوب الإرادة..

– كثيراً ما يقع الناس في هذه الحالة.. نتيجة عِظَم المصيبة والعجز عن التعامل معها... فيظنون أن ما يحصل لهم رغماً عنهم.. لا قدرة لهم على دفعه..

– إنما ذلك من ضعف الإيمان وقلة العلم.. وإلا فلا مصيبة أعظم من الموت.. وبيّن لنا الله تعالى.. تفاصيل التعامل مع الحدث الجلل..

كنت وصاحبي اللبناني .. نتحاور بانتظار وصول طلبنا من المأكولات اللبنانية.. في مطعم صغير.. حرص صاحبه أن ينقل زبائنه إلى أجواء لبنان.. بتفاصيل الديكورات.. والخدمة.. وقائمة الطعام!!

– ابتداءً.. ذكّر الله تعالى عباده أن ما يصيبهم إنما هو بقدر الله تعالى:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ (التوبة).

تدبّر هذه الآية.. كله بأمر الله.. و(هو مولانا).. بمعنى يتولى أمرنا.. وهو اللطيف الخبير الرحيم العليم.. وغير ذلك من صفات الكمال والرأفة والرحمة لله.. فينبغي على العبد أن يذكّر نفسه بذلك... ويسلم أمره لله.. توكلاً.. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾. فتطمئن النفس.. أنّ ما أصابها لم يكن ليخطئها..﴿**والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾.. وزيادة في تثبيت النفس... حتى لا يكون الأمر مجرد أفكار وعقائد.. أرشدنا الله فقال: ﴿**ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧**﴾ (البقرة).

فالعبد ينطق بلسانه هذه العبارة الربانية: ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ**﴾.. ليثبّت إيمانه حال المصيبة... فلا يحزن الحزن المنهي عنه.

استوقفني صاحبي..

- ورد في الحديث... عندما توفي إبراهيم ابنُ النبي ﷺ قال له بعض أصحابه: يا رسول الله: تبكي وأنت رسول الله؟ فقال: «**إنما أنا بشر.. تدمع العين، ويخشع القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزنون**» (صحيح ابن ماجه).

فهذا الحزن... الذي لا يؤدي إلى قول أو فعل لا يرضاه الرب عز وجل، والذي هو من الجِبلة الإنسانية.. لا بأس به... وهو لا يضعف الإنسان ولا يعجزه ولا يقعده عن عمل ما يجب عليه.

أحضر النادل.. المقبلات والمزات اللبنانية الباردة.. وهي أشهى إلى نفسي من الوجبة الرئيسة!!

- ذكرتَ في البداية أن الحزن لم يُذكر في القرآن إلا منهي عنه أو منفي.

- هل تذكر لنا بعض هذه الآيات..

رنّ هاتف صاحبي.. استأذنني أن يرد لأن المتصل (أبو عبدالله) شريكنا الثالث في هذه المأدبة.. لم يستدل إلى مكان المطعم..

ذهب صاحبي.. ليرشده إلى المكان.. وكان قريباً جداً منه.. بعد التحية.. تابعنا حديثنا..

- نعم.. من الآيات التي ذكرها الله عن الحزن.. قوله تعالى:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ (آل عمران).

وقوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ (الحجر).

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ (النحل).

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ (التوبة: ٤٠).

قاطعني أبو عبدالله...

- وماذا عن حزن يعقوب على يوسف عليهما السلام.. كما قال تعالى:

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤﴾ (يوسف).

- كنت سأذكر شرح العلماء لموقف يعقوب في حزنه على يوسف عليهما السلام: ... في تفسير «التحرير والتنوير» لابن عاشور.. أن إظهار الحزن كان مشروعاً في الأمم السابقة.. «وقد حكت التوراة بكاء بني إسرائيل على موسى أربعين يوماً وحكت تمزيق بعض الأنبياء ثيابهم من الجزع وإنما التصبر على المصيبة كمال بلغت إليه الشريعة الإسلامية». انتهى

وفي موضع آخر، فجملة ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾، مفيدة قَصْرَ شكواه على التعلق باسم الله.. فصارت الشكوى بهذا القصد ضراعة وهي عبادة لأن الدعاء عبادة... وصار ابيضاض عينيه أثراً جسدياً ناشئاً عن عبادة مشروعة مثل تفطر قدمي النبي ﷺ من قيام الليل».

- أحسنت..

هكذا كانت ردة فعل أبي عبد الله..

- وهنا نذكر حديث النبي ﷺ في الاستعاذة من الحزن..

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الهَمّ والحَزَن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال**» (متفق عليه).

- ودعني أقرأ لك بعض ما ورد في ذات الموضوع..

عن عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الرؤيا ثلاث منها**

أهاويل من الشيطان ليُحْزِن بها ابن آدم ومنها ما يهمّ به الرجل في يقظته فيراه في منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة». قال: قلت له: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟، قال: نعم أنا سمعته من رسول الله ﷺ أنا سمعته من رسول الله ﷺ. (صحيح ابن ماجه).

قال ابن القيم في (زاد المعاد): «وسنَّ لأمته الحمد والاسترجاع، والرضا عن الله، ولم يكن ذلك منافياً لدمع العين، وحزن القلب، ولذلك كان أرضى الخلق في قضائه، وأعظمهم له حمداً، وبكى مع ذلك يوم مات ابنه إبراهيم، رأفة منه ورحمة للولد، ورقةً عليه، والقلب ممتلئ بالرضا عن الله عز وجل وشكره، واللسان مشتغل بذكره وحمده».

المعتَبر في تحريم الحزن إنما هوالتسخط القلبي على أقدار الله سبحانه، سواء طالت مدته أم قصرت، فإن تجرد الحزن من التسخط، فلا يؤاخذ به صاحبه، إذ لا قدرة له على رفعه، ولا نعلم أصلاً للتفرقة بين الحزن الطويل والقصير.

فلا ريب في أن هناك فرقاً بين الفائت من أمر الدنيا، والفائت من أمر الآخرة، فالحزن على الأول مضر مذموم غالباً، وعلى الثاني نافع محمود مطلقاً. قال ابن الجوزي في كتابه (الطب الروحاني): «العاقل لا يخلو من الحزن، لأنه يتفكر في سالف ذنوبه، فيحزن على تفريطه... فأما إذا كان الحزن لأجل الدنيا وما فات منها... فليدفعه العاقل عن نفسه، وأقوى علاجه أن يعلم أنه لا يرد فائتاً، وإنما يضم إلى المصيبة مصيبة، فتصير اثنتين، والمصيبة ينبغي أن تخفف عن القلب وتدفع، فإذا استعمل الحزن والجزع، زادت ثقلاً.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾ (الحديد).

المراد: الحزن المخرج إلى ما يذهِل صاحبَه عن الصبر، والتسليم لأمر الله، ورجاء ثواب الصابرين، والفرح المطغي الملهي عن الشكر، فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه، مع الاستسلام، والسرور بنعمة الله، والاعتداد بها، مع الشكر: فلا بأس بهما.

انتهى بفضل الله ومنته

فله تمام الحمد كما ينبغي

لجلال وجهه وعظيم وسلطانه

الفهرس

م	الموضوع	الصفحة
	المقدمة	٥
١	أعمال القلوب	١١
٢	التوحيد	١٥
٣	تعظيم الله عز وجل	١٩
٤	حب الله	٢٣
٥	الخوف والرجاء (١)	٢٨
٦	الخوف والرجاء (٢)	٣٢
٧	الصدق	٣٦
٨	الإخلاص	٤١
٩	اليقين	٤٦
١٠	نية المؤمن خير من عمله	٥٠
١١	محبة النبي محمد ﷺ	٥٤
١٢	تعظيم حرمات الله	٥٩
١٣	الحب والبغض في الله	٦٣
١٤	الإفتقار إلى الله	٦٧
١٥	حُسن الظن بالله	٧٢
١٦	الحياء من الله	٧٦
١٧	الأُنس بالله	٨٠
١٨	الذل لله – عز وجل –	٨٤

١٩ الشوق للقاء الله ٨٩
٢٠ التوكل ٩٤
٢١ الثقة بالله ٩٧
٢٢ التفويض.. روح التوكل ولبه وحقيقته ١٠١
٢٣ التقوى ١٠٥
٢٤ الإحسان ١١٠
٢٥ سلامة الصدر ١١٥
٢٦ المراقبة.. فإن لم تكن تراه فإنه يراك ١٢٠
٢٧ التوبة ١٢٥
٢٨ الصبر ١٢٩
٢٩ الشكر ١٣٤
٣٠ الرضا ١٣٨
٣١ الإنابة ١٤٣
٣٢ الإستقامة ١٤٧
٣٣ الرغبة والرهبة ١٥٢
٣٤ الزهد ١٥٧
٣٥ إنكار المنكر ١٢
٣٦ الوجل ١٦٦
٣٧ الخشية ١٧٠
٣٨ الإخبات ١٧٤
٣٩ الطمأنينة والسكينة ١٧٨

٤٠ الورع ١٨١
٤١ الخشوع ١٨٥
٤٢ التواضع ١٩٠
٤٣ الغيرة ١٩٥
٤٤ ذنوب القلوب ١٩٩
٤٥ الشرك بالله ٢٠٣
٤٦ الشرك بالله (٢) ٢٠٨
٤٧ النفاق ٢١٢
٤٨ الشك ٢١٦
٤٩ الجحود ٢٢٠
٥٠ الغُلوّ في الدين ٢٢٥
٥١ الغُلوّ في الصالحين ٢٣٠
٥٢ الرياء ٢٣٤
٥٣ الكِبر ٢٣٩
٥٤ الحسد ٢٤٤
٥٥ الغِلّ ٢٤٨
٥٦ العُجب ٢٥٢
٥٧ تزكية النفس ٢٥٧
٥٨ الخيلاء ٢٦٢
٥٩ التفاخر ٢٦٦
٦٠ الأمن من مكر الله ٢٧٠

٦١ القنوط من رحمة الله ٢٧٤
٦٢ قسوة القلب ٢٧٨
٦٣ إتباع الهوى ٢٨٢
٦٤ حب الدنيا ٢٨٨
٦٥ الحرص على الدنيا ٢٩٣
٦٦ الغفلة ٢٩٧
٦٧ حب الفاحشة ٣٠٢
٦٨ حب الشهرة ٣٠٧
٦٩ الطَيَرَة ٣١١
٧٠ الحزن ٣١٦
الفهرس ٣٢٣